

الولاة العثمانيون في اليمن

١٥٣٨-١٦٣٥م

قراءة من واقع المصادر العربية والعثمانية والتركية الحديثة

تأليف

د/ ماجد يحيى مجاهد لعجه

مركز التاريخ العربي للنشر

ماجد يحيى مجاهد لعجه

الولاة العثمانيون في اليمن

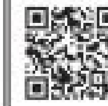
مركز التاريخ العربي للنشر



- ولد في محافظة صعدة شمال اليمن عام ١٩٨٨م .
- بكالوريوس- قسم التاريخ- كلية التربية- جامعة صنعاء ٢٠٠٩م .
- ليسانس- قسم التاريخ- كلية الآداب- جامعة صنعاء ٢٠١١م .
- ماجستير في التاريخ المقارن- جامعة دوكوز أيلول- تركيا ٢٠١٨م.
- دكتوراه في التاريخ الحديث- جامعة كاتب تشلبي- تركيا ٢٠٢٢م .
- عضو هيئة تدريس مساعد بقسم التاريخ- كلية التربية - جامعة صنعاء .
- يجيد اللغات التركية والعثمانية.
- له العديد من الأبحاث العلمية في مجال التاريخ ، منشورة باللغات العربية والتركية.

ماجد يحيى مجاهد لعجه





مركز التاريخ العربي للنشر

www.arabhistorypublishing.com



الولاة العثمانيون في اليمن

١٥٣٨-١٦٣٥م

قراءة من واقع المصادر العربية والعثمانية والتركية الحديثة

تأليف

ماجد يحيى مجاهد لعجه

الولاة العثمانيين في اليمن

١٥٣٨-١٦٣٥م

قراءة من واقع المصادر العربية

والعثمانية والتركية الحديثة

الطبعة الأولى 1
(١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م)

اسم الكتاب : الولاة العثمانيون في اليمن ١٥٣٨-١٦٣٥م
قراءة من واقع المصادر العربية والعثمانية والتركية الحديثة

اسم المؤلف : د. ماجد يحيى مجاهد لعجه

موضوع الكتاب : تاريخ

عدد الصفحات : 250 صفحة

مقاس الكتاب : 17 x 24 سم

رقم الإيداع : 248563

الترقيم الدولي : (978-977-6916-98-4)



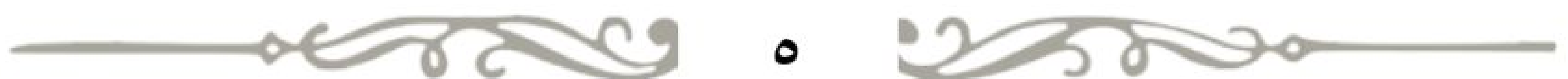
التوزيع والنشر
6/11 شارع وحيد أفندي - حي توفيق بيك - كوجوك
جكمجة - اسطنبول - تركيا - ت: 00905454886870
هاتف: 00201555566139 - 00201027013326
E-mail: info@arabhistorypublishing.com
Websit: www.arabhistorypublishing.com

مركز التاريخ العربي للنشر
Arab History Publishing

الإهداء

إلى من له الفضل بعد الله في تربيتي وتعليمي، إلى والدي الشهيد السعيد الذي اختاره الله قبل أن يرى ويلمس ثمار تربيته وجهده، إلى روحه الطاهرة أهدي هذا الكتاب.

المؤلف



المحتويات





المقدمة

لا شك أن الكتابة في مجال التاريخ مهنة صعبة وصَنعة شاقة، مقاصدها محمودة ومآلاتها خطيرة، تتطلب كثيرا من الجهد، وفيضا من التفكير، ومزيدا من المصداقية، وتكمن صعوبتها في تناقض الروايات التاريخية، واختلاف المذاهب الفكرية، وتباين وجهات النظر السياسية، وما أحوجنا اليوم إلى إعادة كتابة تاريخنا. العربي بشكل عام، واليمني بشكل خاص. كتابة ناتجة عن قراءة تاريخية وفلسفية متحررة من قيدين، طالما أعاقا كثيرا من المؤرخين والباحثين من الوصول إلى الحقيقة التاريخية أو الاقتراب منها، وهما: قيد السلطة وإملاءاتها، وقيد المصادر ومبالغاتها. ونعتقد أنه لن يتأتى ذلك إلا بالعمل على توسيع مساحة الحرية الفكرية، وإعادة قراءة المصادر التاريخية قراءة نقدية وتحليلية.

إن القارئ المتتبع لتاريخ اليمن العام سيخلص إلى نتيجة حتمية تتلخص في نقطتين، النقطة الأولى: إن التاريخ العام لليمن يكتنفه غموض كبير، وإشكال حاد، والتباس واسع، يفتقد إلى الدقة، ويغلب عليه الإبهام، ويعتريه التشويه في كثير من مراحله. أما النقطة الثانية: هي عدم وجود تناسق بين تاريخ اليمن الطويل وما كتب عنه ووثّق؛ ذلك أن ما كتب عنه - حتى الآن - لا يتناسب، بأي حال من الأحوال، مع تاريخ اليمن الممتد ببعده الزمني، والعريض الممتلئ بأحداثه.

ويُقدم كتابنا - الحالي - دراسة تاريخية عامة لتاريخ اليمن تحت الحكم العثماني في الفترة (١٥٣٨-١٦٣٥م)[١]، هذه الحقبة التاريخية التي اتسمت بالصراع العالمي، وشكّلت فيها اليمن نقطة محورية، خصوصا بعد الكشوفات الجغرافية الأوروبية، ووصول البرتغاليين إلى المياه الدولية في الشرق.

وتكمن أهمية دراستنا في نقطتين أساسيتين، الأولى: إنها استندت في معلوماتها على مصادر عربية وتركية، إضافة إلى اعتمادها على وثائق عثمانية ليس من السهل الوصول إليها، والنقطة الثانية: إنها تقدم دراسة لجوانب مختلفة ومتنوعة لوضع اليمن في العهد العثماني الأول؛ فتورد معلومات سياسية واقتصادية وعسكرية واجتماعية وفكرية.

دخلت اليمن تحت السيادة العثمانية في النصف الأول من القرن السادس عشر كغيرها من الولايات العربية الأخرى، واحتلت مكانة خاصة عند العثمانيين نتيجة لموقعها الجغرافي وأهميتها الإستراتيجية؛ كونها تتحكم في مدخل البحر الأحمر الجنوبي عبر مضيق باب المندب، بالإضافة إلى إطلالها على البحر العربي والمحيط الهندي من الجنوب، وبهذا فقد كانت بمثابة البوابة الجنوبية للإمبراطورية العثمانية آنذاك.

وقد بدأ النفوذ العثماني في اليمن منذ إعلان الحامية المملوكية فيه تبعيتها للدولة العثمانية عام ١٥١٧م، وذلك بعد سقوط الدولة المملوكية على أيدي العثمانيين في العام نفسه، ولكنه كان نفوذا اسميا وشكليا، ولم تدخل اليمن تحت الحكم الفعلي للدولة العثمانية إلا في يونيو سنة ١٥٣٨م، عندما استولى القائد

---

[١] الفترة ١٥٣٨-١٦٣٥م، هي فترة الحكم العثماني الأول لليمن، ونأمل أن تتهيأ الفرصة مستقبلا لنا أو لأي باحث آخر لعمل دراسة حديثة تغطي الفترة الثانية من الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢-١٩١٨م.

العثماني سليمان باشا الخادم على عدن، وأقدم على قتل عامر بن داوود الطاهري آخر سلاطين الدولة الطاهرية.

حكم العثمانيون اليمن لفترتين منفصلتين، الفترة الأولى ما بين (١٥٣٨-١٦٣٥م)، والفترة الثانية ما بين (١٨٧٢- ١٩١٨م). وقد واجه العثمانيون - منذ وصولهم اليمن وحتى خروجهم منها - مشاكل واضطرابات أعاقت تواجدهم، وقوّضت، في كثير من الأحيان استقرار الولاية. ويمكن إرجاع أسباب تلك المشاكل والاضطرابات إلى أسباب خاصة باليمن واليمنيين، وأخرى خاصة بالعثمانيين أنفسهم.

وفيما يخص الأسباب المتعلقة باليمن واليمنيين نجد أنها تتمحور في أمرين، أولهما: **الطبيعة الجغرافية** لليمن؛ فقد شكلت التحدي الأول أمام العثمانيين، وكانت عائقا كبيرا أمامهم، ليس في القرن السادس عشر فحسب، بل استمرت حتى خروجهم النهائي من اليمن في العقد الثاني من القرن العشرين. وكما هو معروف؛ فإن الطبيعة الجغرافية لليمن تتميز بصعوبة تضاريسها وارتفاعاتها الجبلية الشاهقة، الأمر الذي كان يعيق في كثير من الأحيان تحركات العثمانيين؛ ولهذا نلاحظ أن العثمانيين كانوا يخسرون معظم المعارك التي تقع في نطاق المناطق ذات الطابع التضاريسي المعقد.

أما الأمر الثاني فيتمثل في **الطبيعة البشرية**؛ كون المجتمع اليمني مجتمعا ذا طابع قبلي، وباعتقادنا؛ فقد فشل بعض الولاة العثمانيين في احتوائه، الأمر الذي انعكس سلبا على تقدم العثمانيين في بعض المناطق.

أما عن الأسباب المتعلقة بالعثمانيين؛ فيمكن تصنيفها إلى ثلاث معضلات أساسية، كانت دائما ما تعصف بالأوضاع في اليمن نحو الاضطرابات والحروب، وسنتحدث عنها بالمجمل في الفقرات الآتية.

شكلت **الخلافات الداخلية** بين الولاة والأمراء العثمانيين في اليمن المعضلة الأولى التي تسببت بشكل مباشر في هزائم العثمانيين على الأغلب، ولا نبالغ إذا قلنا أنها كانت تؤثر على الوجود العثماني أكثر من أعداء العثمانيين أنفسهم. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المشكلة لم تقتصر على العثمانيين فقط، بل كانت موجودة كذلك في الجبهة الزيدية المضادة للعثمانيين، والشواهد على ذلك كثيرة.

أما عن المعضلة الثانية؛ فقد تمثلت في **التقارير غير الصحيحة** التي كانت أحيانا تُرسل من قبل بعض الولاة إلى إسطنبول؛ فهناك شواهد تدل على أن بعض الولاة أرسلوا تقارير إلى الباب العالي تفيد أن الوضع في اليمن على ما يرام، بينما الحقيقة عكس ذلك، ويبدو أن الهدف من ذلك إحراز بعض الأمجاد الشخصية لبعض الولاة، بحيث يظهر أمام الباب العالي أنه رجل المرحلة، وأنه استطاع تهدئة الوضع وإخماد الاضطرابات. وعلى العكس من ذلك لاحظنا أن بعض الولاة كانوا يقومون بإرسال تقارير إلى الباب العالي تفيد بنشوب حروب واضطرابات، ويؤكدون على ضرورة إرسال مساعدات وتعزيزات، بالرغم من أن الولاية لا تحتاج إلى ذلك، الأمر الذي كان يثقل كاهلها، ويزيد من الضغط على مواردها المالية.

وتأتي المعضلة الثالثة المتمثلة في **الفساد المالي والإداري عند بعض الولاة**، وحرصهم على تكوين ثراء ومجد شخصي، الأمر الذي كان له أبلغ الأثر على سوء وتردي الأوضاع في اليمن بشكل عام، وعلى الوجود العثماني فيه بصورة خاصة.

وقد تم تقسيم الكتاب إلى عناوين رئيسة، يحمل كل عنوان اسم والٍ من الولاة العثمانيين الذين حكموا اليمن في الفترة (١٥٣٨-١٦٣٥م) والبالغ عددهم ٢٢ واليًا. وسعيا لجعل الكتاب في متناول الجميع؛ تعمدنا الاختصار غير المخل، والبسط غير الممل، فلو تقصينا كل الروايات لخرج الكتاب في مجلدين، وبالتالي سيُشكِل حجمه على القارئ، كما سيصبح من الصعوبة لدى الكثيرين اقتناؤه والاطلاع عليه.

وعن مدة التأليف؛ فقد استغرقنا ما يقارب أربع سنوات في جمع مادته وكتابة محتواه، قضينا أغلبها في أروقة الأرشيف العثماني ومكتبات تركيا واليمن، وأتاحت لنا هذه المدة الطويلة الاطلاع على مصادر ووثائق لم يكن من السهل الوصول إليها في زمن قصير؛ فعكفنا على دراستها بشكل متأنٍ واستقصائي، وحرصنا كل الحرص على أن تكون المعلومات والمصطلحات الواردة في ثنايا هذا الكتاب سهلة ومبسطة، خصوصا تلك المصطلحات المستقاة من اللغتين العثمانية والتركية مع إيضاح معانيها في الهوامش بعد الرجوع إلى المعاجم التركية ذات العلاقة، كما حرصنا على أن تكون التعريفات بالمناطق الجغرافية وفق المعلومات المعاصرة والتقسيم الإداري الحديث في الجمهورية اليمنية.

ورغبة منا في سلامة الكتاب، وتحقيقا للتوازن بين جوانبه؛ فقد استندنا على مصادر متنوعة ومختلفة، مؤيدة ومعارضة، قديمة وحديثة، مع التأكيد على أن الباحث لم يدخر جهدا في إظهار ما رأه مناسبا وموضوعيا بعد دراسة فاحصة وناقدة، معتمدا على منهج البحث التاريخي التحليلي والمقارن.

وقد ألّفناه وفق ما جادت به المصادر الأساسية، بعد أن أخضعناها للفحص والتدقيق تدقيقا تعدى النص إلى صاحب النص وماضيه وقربه وبعده من الحاكم، مستنكرين المبالغات التي تخالف المنطق العقلي والفلسفي والتاريخي.

وفي الحقيقة؛ نرى أن التأليف لا يتأتّى إلا لحاجة اقتضاها، أو سبب استدعاه، أو ضرورة استوجبته، وما عدا ذلك؛ يكون عديم النفع، قليل الجدوى، هش الفائدة، وأي كاتب لا يكتب لهدف جلي، وغرض واضح، ومقصد نزيه، فلا شك أن عمله سيكون خاليا من الجدية، ناقصا من الرصانة، خاويا من الواقعية، وكما قال كاتب تشلبي صاحب كتاب كشف الظنون:

"فالتأليف على سبعة أقسام، لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها وهي: شيء لم يسبق إليه أحد فيخترعه، أو شيء ناقص يتممه، أو شيء مغلق وغامض يشرحه، أو شيء طويل فيختصره دون أن يخل بشيء من معانيه، أو شيء متفرق يجمعه، أو شيء مختلط فيرتبه، أو شيء فيه خطأ فيصلحه"، ولهذا فقد حاولنا في كتابنا هذا جمع ما تفرق، وترتيب ما اختلط، وإتمام ما نقص، وإصلاح ما استشكل.

ولا يفوتنا أن نؤكد على حقيقة مفادها أن قدرات الإنسان محدودة، وأن التاريخ نسبي وليس مطلقا؛ فقد تظهر بالغد معلومة تنقض معلومة اليوم، وقد يُصوّب غيرنا ما رأيناه خطأ، أو يُخطّئ ما رأيناه صوابا، وحسبنا أننا كتبنا ما يريح ضميرنا ويُبهج سريرتنا.

وقبل أن نختم؛ فجُل ما نطلبه، هو أن يعذرنا قارئ كتابنا هذا إن وجد فيه تقصيرا، ويرضى منه بالميسور، فلو اطلع على مراحل جمع مادته، وترتيب معلوماته وأبوابه، وتحليل ما استشكل في طياته، ووضع شروحه وتعليقاته، واطلع

على عدد الكتب التي قرأنا، وكم مخطوط درسنا، وكم مكتبة زرنا، وكم من الجهد بذلنا، لاستجاب لطلبنا وقبل عذرنا. وهذا جهد قد لا يفي موضعنا حقه، ولكن يكفينا أنه محاولة لإتمام ذلك الحق الذي توجب علينا، انطلاقا من صميم تخصصنا، آملين أن يقدّم إضافة مفيدة إلى المكتبة اليمنية والعربية، وأن يستفيد منه المثقف والمختص على حد سواء.

كما نأمل أن يكون عملنا هذا بادرة طيبة لكتابات لاحقة، تسلط الضوء على تاريخ اليمن في جميع مراحله، ونشد على أيدي الباحثين– وهم قلة– في إعادة إحياء تاريخ اليمن بكتابات وأبحاث علمية وأكاديمية دقيقة ورصينة.

وأخيرا فإن أحسنت فهذا ما قصدت وهو بتوفيق من الله تعالى، وإن جانبت الصواب في شيء فمن نفسي والكمال دائما لله.

ماجد لعجه

إسطنبول ٩/ ٤ /٢٠٢٢م

مصادر الكتاب

استند الكتاب على مجموعة كبيرة من المصادر والمراجع المتنوعة، تأتي في مقدمتها وثائق الأرشيف العثماني التابع لرئاسة الوزراء بإسطنبول (Başbakanlık Osmanlı Arşivi)، ونزعم أن أي بحث تاريخي يتعلق باليمن أو بالعالم العربي في العصور الحديثة يظل ناقصا ما لم يستند إلى تلك الوثائق المهمة.

والجدير بالذكر، إن تلك الوثائق تطرح معلومات تاريخية جديدة، تضيف أو تصحح ما أوردته المصادر المعاصرة؛ كما تكشف عن جوانب جديدة لسياسة العثمانيين في اليمن، وأهم ما يميز تلك الوثائق أنها تعرض المعلومة ولا توظفها مثلما نلحظ ذلك في بقية الكتب سواء كانت مصادر أو مراجع.

وتتجلى فائدة تلك الوثائق في كونها تعرض معلومات تشمل الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية ولا تقتصر على جانب دون آخر. وتجدر الإشارة إلى أن أغلب الوثائق التي اعتمدنا عليها واستفدنا منها في هذا الكتاب هي مجموعة من الوثائق المحفوظة في الأرشيف العثماني تحت تصنيف دفاتر المهمات (Mühimme Defterleri)، وهي عبارة عن مراسلات، وأحكام سلطانية بين السلاطين العثمانيين والولاة في اليمن ومصر. كما أفدنا من وثائق متحف طوب كابي سرايي (Topkapı Sarayı Arşivi).

وتأتي المخطوطات العربية والعثمانية في المرتبة الثانية بعد وثائق الأرشيف العثماني، وقد أفدنا في كتابنا هذا من بعض تلك المخطوطات، منها: مخطوط ابن داعر "**الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية**" المحفوظ في مكتبة راغب باشا بإسطنبول، وهو سفر كبير يحتوي على كثير من التفصيلات التي قد لا نجدها عند

غيره، ويتضح من العنوان أنه تم تأليفه للسلطان مراد الثالث في اليمن، وقد أرخ فيه إلى ولاية حسن باشا.

كما أفدنا من مخطوط مصطفى بك رموزي **(تاريخ فتح يمن)**، وهو مكتوب باللغة العثمانية، والواسطي **(تاريخ ولاة اليمن في مديدة من الزمن)**، وابن أبي السرور البكري **(المنح الرحمانية في تاريخ الدولة العثمانية)** وغيرها. وبالرغم من أن المخطوطات تختلف عن وثائق الأرشيف في أنها معرضة أكثر للمزايدات وأهواء المؤلفين، شأنها في ذلك شأن المصادر التي تم تحقيقها، فإن جانبها المضيء هو أنها تتيح لنا الاطلاع على معلومات جديدة لم يسدل الستار عنها بعد. وأغلب المخطوطات التي أخذنا منها حصلنا عليها من مكتبات إسطنبول التاريخية، خصوصا مكتبة السليمانية، ومكتبة راغب باشا، ومكتبة علي أميري.

أما المصادر العربية والعثمانية؛ فتأتي في المرتبة الثالثة بعد وثائق الأرشيف العثماني والمخطوطات. ومما لا شك فيه أن تلك المصادر تحتل أهمية كبرى في نقل أحداث تلك الحقبة التاريخية إلينا؛ كونها مصادر معاصرة للأحداث وشاهدة عليها، أو سجلت في فترة غير بعيدة عنها. ومما يجب التنويه إليه، أننا واجهنا صعوبات بالغة في استنباط المعلومات من تلك المصادر، نظرا للاختلاف الملموس بين الروايات التاريخية فيها، ويعود سبب الاختلاف، برأينا، إلى اختلاف الأرضية السياسية والمذهبية عند الفريقين؛ فهناك مؤرخون محسوبون على الدولة العثمانية، ومؤرخون محسوبون على الطرف المناوئ لها المتمثل في مؤرخي الدولة الزيدية.

وقد حاولنا قدر الإمكان أن نعتمد على الروايات غير المبالغ فيها والأقرب إلى السياق التاريخي، ولم ننسَ معيار صدق المؤرخ وأمانته، قياسا على مواقف أخرى

بعد الاطلاع على سيرته، وإن التبس شيء علينا، وصعب تمييز الحقيقة فيه؛ فإننا غالبا ما نطرح الروايتين أمام القارئ الكريم.

والملاحظ على تلك المصادر - سواء المحسوبة على العثمانيين أو المناوئة لهم - أنها اتسمت بالإسهاب الطويل الممل في أحيان، والاختصار المخل في أحيان أخرى، نظرا لتوجه المؤرخ السياسي والمذهبي، وقليلا ما نجد الاعتدال والاتزان في تلك المصادر.

كما لاحظنا تشابها كبيرا في أغلب الروايات التاريخية عند المؤرخين، وصل إلى حد التشابه في الصياغة اللغوية، مما يدل على أنها أقرب إلى النقل مع عدم مراعاة الإشارة إلى ذلك سواء في المتن أو في الهوامش، ناهيك عن المبالغات الكبيرة التي غالبا ما تصل إلى مستوى غير معقول. وفي الأخير، فقد حاولنا أن نستقي من تلك المصادر مجتمعة مع اختلافها، منتهجين الموضوعية والدقة في أخذ المعلومة وتوظيفها.

ومن المصادر العربية التي رجعنا إليها في كتابنا هذا، كتاب "**البرق اليماني في الفتح العثماني**" لقطب الدين النهروالي، المؤرخ الرسمي للدولة العثمانية في اليمن في القرن السادس عشر. ويعد هذا السفر من أهم المصنفات التي كتبت عن تاريخ اليمن في مطلع العصور الحديثة، وقد تناول فيه النهروالي تاريخ اليمن من بدايات القرن السادس عشر إلى نهاية ولاية سنان باشا على اليمن في سبعينيات القرن السادس عشر الميلادي. كما أفدنا من كتاب الموزعي المعنون بـ"**الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان**". وقد اعتمد فيه الموزعي على

الاختصار في إيراد الحوادث، وبالغ في كثير من رواياته التاريخية، لكنه لا يخلو من فائدة.

ومن المصادر الأخرى التي تم الإفادة منها - وهي محسوبة على المصادر المناوئة للوجود العثماني في اليمن - كتاب "**غاية الأماني في أخبار القطر اليماني**، لمؤلفه المؤرخ يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد المتوفى سنة ١٦٨٩م. ويعدّ الكتاب من أهم مصادر تاريخ اليمن في القرن السادس عشر، وقد كتب من وجهة نظر مغايرة ومعادية للعثمانيين، وقد أورد الأحداث التاريخية حتى سنة ١٠٤٥هـ/١٦٣٥م، وانتهى من تأليفه سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٦م؛ والكتاب خرج في جزأين بتحقيق المرحوم أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

ومن الكتب التي أفدنا منها - أيضا - كتاب عيسى بن لطف الله شرف الدين (تـ ١٧٣٨م)، وعنوانه " **روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح**"، سجل المؤلف فيه الأحداث التاريخية من سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٥م إلى سنة ١٠٢٩هـ/١٦٢٠م، وكان ينوي مواصلة تسجيل الأحداث لولا أن الموت عاجله. وقد قام ابنه علي بن عيسى بمواصلة المهمة؛ فسجل ملحقا للكتاب وصل فيه إلى حوادث سنة ١٠٧٩هـ/١٦٦٩م. وهناك كثير من المصادر الأخرى التي استند إليها الكتاب، سيجدها القارئ الكريم مثبتة في الهوامش وفي قائمة المصادر والمراجع.

وفيما يخص المصادر العثمانية التي كُتبت في فترة بحثنا؛ فبالرغم من أن أغلبها ركز على الأوضاع في بلاد الأناضول وفتوحات أوروبا وبلاد فارس، الا أنها جادت علينا بتفاصيل لم نجدها في المصادر العربية، خصوصا فيما يتعلق بحياة الولاة العثمانيين قبل توليهم الحكم في اليمن.

ونورد هنا أسماء بعض المصادر العثمانية التي أفدنا منها، مثل كتاب "**يمن تاريخي**" لمؤلفه عاطف باشا الذي شغل منصب أركان حرب في العهد العثماني، والكتاب مدون باللغة العثمانية في مجلدين، وهو مصدر مهم يؤرخ لتاريخ العثمانيين في اليمن، تطرق فيه المؤلف إلى الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ولاية اليمن. كما أفدنا من مؤلفات المؤرخين العثمانيين: عاشق باشا زاده، وكمال باشا، وبجوي، وجودت، وأحمد راشد باشا صاحب كتاب" **تاريخ اليمن وصنعاء**". وأفدنا من " **يمن سالنامه سي**" التي تُعد مصدرا مهما يؤرخ لكثير من الأحداث في الولايات العثمانية المختلفة، مع التنويه إلى أنها تؤرخ للفترة المتأخرة من تاريخ العثمانيين، إلا أننا وجدنا فيها معلومات تفيد دراستنا.

كما استفدنا من مجموعة كبيرة من المراجع العربية والتركية والأجنبية الأخرى، سواء كانت كتبا أو مقالات علمية أو أطروحات أكاديمية، وقد حاولنا قدر الإمكان الاعتماد على ما رأينا أنه كُتب بموضوعية، يأتي في مقدمة هذه الأعمال كتابات المؤرخ الكبير أ.د. سيد مصطفى سالم الذي يعد، وبحق، أفضل من كتب من المعاصرين عن تاريخ اليمن تحت الحكم العثماني في القرن السادس عشر الميلادي.

ومن المؤرخين الأتراك الذين استقينا من كتاباتهم المؤرخ يلماز أوزتونا وخليل إينالجك وصالح أوزبران وغيرهما. وحرصنا على الإشارة في الهوامش إلى المؤلفات والأطروحات الخاصة بكل والٍ– إن وجدت– سواء كانت باللغة العربية أو بالتركية، لما من شأنه أن يفيد القارئ الكريم في حال أراد الاستزادة و معرفة تفاصيل فترة حكم أي والٍ من الولاة.

بعض المصطلحات العثمانية الواردة في الكتاب

الباب العالي: مقر الإدارة المركزية للحكومة العثمانية بإسطنبول، وفيها مكتب الصدر الأعظم (رئيس الوزراء)، أطلق هذا الاسم في بدايات حكم السلطان عبد الحميد الأول، وتحديدا في عام ١١٣٠هـ الموافق ١٧١٨م، وكان قبل هذا التاريخ يسمى البلاط السلطاني.

فرمان: مصطلح فارسي، معناه أمر أو حكم أو دستور موقع من الملك، استعمله الأتراك العثمانيون بمعنى الأوامر السلطانية، أو ما يسمى في عصرنا بالمراسيم الملكية.

بك: وقد تلفظ بيك، كلمة تركية قديمة، أصلها فارسي بمعنى: حكيم أو مقدس أو رئيس، وأصبحت عند المغول والتركمان من ألقاب التشريف، أول من حملها بوصفها لقبا طغرل بك، مؤسس الدولة السلجوقية سنة ٤٥٠هـ الموافق ١٠٥٨م، ثم اتسع نطاق استعماله ليشمل الأمراء في العهد العثماني ممن هم دون رتبة الباشا، وقد أضيف هذا اللقب إلى رتبة حامله فقيل: سنجق بك و بيلر بك، وفي العصر العثماني المتأخر مُنح السلطان لأبناء حاملي لقب: باشا وللعسكريين الحاصلين على رتبة القائمقام (العقيد)، وبنهاية الدولة العثمانية انتهى هذا اللقب في البلاد العربية بصفته الرسمية، لكنه ظل شائع الاستعمال على ألسنة الناس، يطلقونه على أصحاب المراكز المتميزة، باعتباره لقبا من ألقاب الاحترام والتبجيل.

بكلربكي: لفظ تركي بمعنى الأمير، استخدم في العهد العثماني كلقب يطلق على رؤساء السناجق أو الألوية التي تنتظم فيها الإقطاعات العسكرية.

سرداد: أصلها سردار، لفظ فارسي بمعنى: قائد الجيش أو كبير الجيش، دخل العربية في العهدين الأيوبي والمملوكي؛ ليدل على رتبة عسكرية تساوي في وقتنا الحالي رتبة: رئيس الأركان.

علوفة: جمعها علوفات، من العلف، وهو في الأصل ما يقدم للدابة المستخدمة في أعمال الجر والحمل، وتطور هذا المدلول ليصبح عند المماليك والعثمانيين بمعنى المرتبات والمكافآت المشتملة على الطعام والشراب التي كانت تضعها الدولة لذوي الاستحقاق من العسكر وغيره.

سنجك/سنجق: لفظ فارسي- تركي معناه: علم أو راية، ورد ذكره في مصادر العصرين الأيوبي والمملوكي، ولكنه استخدم بشكل كبير في العصر العثماني، والسنجقدار هو حامل الراية أو حامل العلم (البيرق)، وفي العصر العثماني تحول مدلوله ليصبح ذا معنى إداري يدل على منطقة بعينها باعتبار أن حكام المناطق كانوا يتخذون أعلاما أو رايات تميزهم عن بعضهم، وظل بعد ذلك السنجق يطلق على الوحدة الإدارية الرئيسة في التقسيمات الإدارية عند العثمانيين، كما أطلق السنجق على القائد الذي يحكم تلك الوحدة الإدارية.

السكة: السكة في اللغة: الدينار والدرهم، سمي كل واحد منها سكة؛ لأنه طبع بالحديدة المعلمة، وهي القالب الذي كانت تصب فيه العملات النقدية، ومثل هذا العمل كان يتم في مكان مخصص يعرف بدار الضرب، تحت إشراف موظف مسؤول يعرف بمتولي دار الضرب.

كتخدا: لقب تركي- فارسي أصله: كدخدا، ومعناه: رب الدار، وأصبح فيما بعد لقبا بمعنى: حاكم أو عمدة، أطلق على أمراء الأقاليم في الدويلات الإسلامية التى نشأت في الشرق، وفي العهد العثماني اعتمد هذا اللقب رسميا، فأصبح يطلق بصفة أساسية على كل معاون أو مساعد للموظف الكبير في الدولة. وورد في بعض المصادر باسم: كتختا وأحيانا كيخيا أو كخيا.

دفتردار: المسؤول عن سجلات الحسابات وسجلات واردات الخزينة، رئيس المحاسبة، المسؤول عن الإدارة المالية، وكان الدفتردار في المقر الرئيسي في إسطنبول بمثابة وزير المالية حاليا، ويرتبط به دفتردار الولايات.

تمهيد

الأوضاع في اليمن قبل الحكم العثماني:

اتسم الوضع العام في اليمن في بدايات القرن السادس عشر الميلادي بالضعف وعدم الاستقرار؛ فكانت تتنازع على حكم اليمن قوتان محليتان، هما الدولة الطاهرية في عدن وتعز والمناطق الساحلية، ودولة الأئمة الزيدية في صنعاء والمناطق الشمالية. وكانت العلاقة بينهما مشبوبة بالصراع الحاد والمستمر؛ نتيجة لأسباب عديدة أهمها، الاختلاف المذهبي بين القوتين.

وإلى جانب القوتين المحليتين السابقتين، وجدت كذلك قوة أجنبية ثالثة تمثلت بالقوة المملوكية، وذلك عندما دخلت اليمن في بدايات القرن السادس عشر بذريعة محاربة البرتغاليين الذين ظهروا كقوة استعمارية جديدة في الشرق في بدايات القرن السادس عشر، وقد كان لوجودهم في المياه العربية والدولية الجنوبية أكبر الأثر في تغيير الأوضاع العامة في اليمن والعالم العربي آنذاك.

ومن أجل معرفة الأرضية التي كانت موجودة عند مجيء العثمانيين إلى اليمن، سنعرض في هذا المدخل، وبشكل مختصر، لمحة عن القوى السابقة ودورها في رسم الخارطة السياسية لليمن في بدايات القرن السادس عشر. وسنؤجل الحديث عن الزيدية؛ لأن دورها في الحقيقة لم يكن يتعدى صراعهم مع الطاهريين، وذلك بحكم موقعها الجغرافي الذي كان يقع في أقصى المناطق الشمالية بعيدا عن مناطق الصراع الحية المتمثلة في المناطق الساحلية. وما يهمنا هنا هو عرض القوى التي كانت تسيطر على السواحل؛ كونها رسمت السياسة العامة لليمن آنذاك، مع العلم أننا سنوضح دور الأئمة الزيديين بالتفصيل عند الحديث عن العثمانيين وسياستهم في حكم اليمن.

الدولة الطاهرية ١٤٥٤-١٥٣٨م:

بنى الطاهريون حكمهم في اليمن على أنقاض حكم الرسوليين، حيث انتقل الحكم إليهم عن طريق علي بن طاهر، وعامر بن طاهر اللذين كانا يحكمان عدن باسم الدولة الرسولية، وذلك بعد أن استقلا بحكم عدن ولحج، وتوسعا حتى أخذا زبيد سنة ١٤٥٤م.

وقد عمل الطاهريون على توسيع رقعة نفوذهم في اليمن، ودخلوا في صراع مع الأئمة الزيديين الذين حرصوا على الحد من امتداد النفوذ الطاهري نحو الشمال، وبالرغم من ذلك استطاع الطاهريون التوسع، ووصلوا إلى ذمار وصنعاء، مما اضطر الإمام الزيدي محمد بن الناصر(١٤٦٢-١٥٠٣م) إلى الاعتراف بهم والتعايش معهم، ولكنه ما إن تمكن ورتب أوراقه حتى أعلن الحرب عليهم سنة ١٤٦٦م، وقام بإجلائهم من المناطق التي سبق وأن سيطروا عليها[٢].

وتعاقب على حكم الدولة الطاهرية خمسة حكام، اختلف حكمهم بين القوة والضعف، وكان السلطان عامر بن عبد الوهاب أكثرهم شهرة وأشدهم بأسا، حكم في الفترة الزمنية (١٤٨٩-١٥١٧م)، وعمل على توسيع منطقة نفوذ الدولة، واستطاع أن يتوسع في المنطقة الشمالية، واصطدم بالزيدية في أكثر من مكان، وتوج ذلك التوسع بسقوط صنعاء بيده سنة ١٥٠٤م[٣].

تمتاز الدولة الطاهرية عن غيرها من الدول اليمنية في أنها عاشت في فترة تاريخية مليئة بالتحديات والصراعات المحلية والإقليمية والدولية، وعاصرت مجيء

---

[٢] البطريق، عبد الحميد، من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧-١٨٤٠م، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٩م، ص١٦-١٧.
[٣] سالم، سيد مصطفى، الفتح العثماني الأول لليمن، القاهرة، دار الأمين، ط٥، ١٩٩٩، ص ٥٠-٥٤.

المماليك والعثمانيين، ودخلت معهم في علاقات اتسمت بالعداء أحيانا، والانسجام والتعاون أحيانا أخرى، كما عاصرت الغزو البرتغالي لسواحل اليمن والهند، وقامت بجهود مضادة للبرتغاليين، وإن كانت تلك الجهود تتسم بالضعف.

وقد استمر حكم الدولة الطاهرية في اليمن إلى سنة ١٥٣٨م[٤]، وكانت نهايتها الفعلية على أيدي العثمانيين بعد أن دخل القائد العثماني سليمان باشا الخادم عدن في العام نفسه، وقام بقتل عامر بن داوود الطاهري آخر سلاطين بني طاهر، وينتهي بذلك حكم الدولة الطاهرية وتدخل اليمن في مرحلة جديدة من تاريخها، هي مرحلة اليمن تحت الحكم العثماني.

المماليك:

تولد لدى حكام العرب والمسلمين منذ أواسط القرن الثالث عشر الميلادي ثقة كبيرة واحترام للدولة المملوكية؛ نتيجة لدورها الكبير في صد المغول والصليبيين عن ديار الإسلام، وكانت اليمن إحدى تلك البلدان التي أظهرت التقدير الكبير الممزوج بالولاء للدولة المملوكية؛ كونها كانت أكبر قوة إسلامية في المنطقة آنذاك. وقد أشارت بعض المصادر إلى أن اليمن كانت ترسل الهدايا إلى القاهرة منذ أيام الدولة الرسولية ومن بعدها الدولة الطاهرية، وذلك حرصا على استمرار العلاقات الودية مع دولة المماليك[٥]، ومن الملاحظ أن تلك الهدايا أخذت طابعا رسميا بعد ذلك، إذ كانت ترسل بشكل سنوي، مما جعلها صورة من صور التبعية للمماليك.

---

[٤] البعض يعتبر عام ١٥١٧م – وهو العام الذي أنتهى فيه حكم عامر بن عبد الوهاب – هو تاريخ نهاية حكم الطاهريين، والحقيقة أن النهاية الفعلية للدولة الطاهرية كان عام ١٥٣٨م، وهو العام الذي قُتل فيه آخر سلطان طاهري، وطويت فيه صفحة الدولة.

[٥] ابن عبد الظاهر، محي الدين، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٤٩.

ويعود التواجد المملوكي في سواحل اليمن والبحر الأحمر إلى بدايات القرن السادس عشر، عندما أرسل السلطان المملوكي قانصوه الغوري حملة بحرية سنة ١٥٠٥م بقيادة حسين الكردي؛ لغرض صد الخطر البرتغالي الذي بدأ يهدد طرق التجارة الدولية، وشكّل تهديدا مباشرا لأطراف الدولة المملوكية الجنوبية. وقد أبحرت تلك الحملة من السويس إلى جدة، وأقاموا فيها تحصينات دفاعية؛ تحسبا لأي هجوم محتمل عليها أو على المقدسات الإسلامية في الداخل، ثم واصلت سيرها باتجاه الهند، وما إن وصلت إلى سواحل اليمن حتى بادر الطاهريون ببذل المساعدة، وسمح الأمير مرجان الظافري لحسين الكردي بدخول عدن، وبقي فيها بعض الوقت ثم واصل سيره باتجاه المحيط الهندي[٦].

وقد حقق الأسطول المملوكي في بداية الأمر انتصارا على البرتغاليين سنة ١٥٠٨م، إلا أنه سرعان ما تلقى ضربة قوية من البرتغاليين في (٣ فبراير سنة ١٥٠٩م) في معركة ديو البحرية الشهيرة[٧]، وتم تدمير الأسطول المملوكي، وهرب حسين الكردي ناجيا بنفسه عائدا إلى مصر[٨].

وفي الحقيقة؛ فقد كانت الدولة المملوكية أضعف من أن تواجه الترسانة البحرية للبرتغال؛ كونها لم تكن دولة ذات قوة بحرية من الطراز الأول مقارنة بالبرتغال، إذا ما علمنا أن المماليك كانوا فرسانا أكثر من كونهم بحارة[٩].

---

[٦] ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي بن محمد، الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق: يوسف شلحد، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٨٣م، ص٣٠٥-٣٠٦.

[٧] للمزيد عن معركة ديو البحرية ودورها في انهيار دولة المماليك انظر: إيمان مصطفى، ديو البحرية ١٥٠٩م وأثرها في انهيار دولة سلاطين المماليك، جامعة عين شمس/ مجلة البحث العلمي – الآداب والعلوم الانسانية، العدد ٢٢، يناير ٢٠٢١م، الجزء ١، ص ٥٤-٧٩.

[٨] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص٧٧-٧٩.

[٩] ياغي، إسماعيل أحمد، العالم العربي في التاريخ الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٧م، ص٢٢.

وكيفما كان الأمر؛ فمع ازدياد النفوذ البرتغالي ووصولهم إلى البحر الأحمر، لم يكن أمام السلطان المملوكي إلا أن يبحث عمن يساعده؛ فطلب المساعدة من العثمانيين ومن البنادقة الإيطاليين[10]، وقام بتجهيز حملة بحرية سنة ٩٢١هـ الموافق ١٥١٥م مكونة من عشرين سفينة وحوالي ستة آلاف جندي، يقودها القائد السابق نفسه حسين الكردي؛ لغرض محاربة البرتغاليين في الهند. وحسب المصادر فإن هذه الحملة هي من أدخلت النفوذ المملوكي إلى اليمن، بعد أن غيرت مسارها من مواجهة البرتغاليين إلى التوغل في السواحل والداخل اليمني، كان ذلك بعد أن وصلت إلى جزيرة كمران في جمادى الأولى سنة ٩٢١هـ/حزيران ١٥١٥م.

يذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب كانت وراء استيلاء المماليك على السواحل اليمنية، منها: إن الإمام المتوكل يحيى شرف الدين الذي كان على خلاف دائم مع السلطان عامر بن عبد الوهاب بعث برسالة إلى الأمير حسين الكردي، يطلب منه الإعانة على حرب السلطان فأجابه إلى ذلك[11]. أما السبب الثاني فيتمثل في أحتجاز عامل عامر بن عبد الوهاب على الحديدة لثلاث سفن مملوكية مشحونة بالمؤن والطعام، كانت متجهة إلى جزيرة كمران حيث تتواجد الحملة المملوكية. والسبب الثالث، وهو برأينا أقرب إلى الحقيقة، فيتمثل في امتناع السلطان عامر بن عبد الوهاب عن مساعدة الحملة بعدما طلب حسين الكردي منه ذلك، ويبدو أن السلطان خاف أن تصبح تلك المساعدة مقررات سنوية، مما يعني الخضوع الفعلي

---

[10] إينالجك، خليل، الدولة العلية (أبحاث عن الإمبراطورية العثمانية العصر الكلاسيكي ١٣٠٢-١٦٠٦م التطورات الاقتصادية والسياسية والمؤسسية)، دار بنك العمل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط٥٤، ٢٠١٤م، ص١٤١. (الكتاب باللغة التركية).

[11] الجرموزي، القاسم بن الحسن، نزهة الفطن في أخبار ملوك اليمن، مخطوط محفوظ بمكتبة السليمانية، اسطنبول، برقم ٢٣٧٣، ص٥٤-٥٥. (للاطلاع على محتوى الرسالة انظر: ملحق رقم ٥).

للسيادة المملوكية، الأمر الذي أثار حفيظة حسين الكردي، وجعله يتحول باتجاه السواحل اليمنية، ويترك الهدف الأساسي الذي جاء من أجله[١٢].

ومهما كانت الأسباب؛ فقد تحول المماليك من الصدام مع البرتغاليين إلى السيطرة على السواحل اليمنية؛ بل والتوغل نحو الداخل، وقد نشب بين المماليك واليمنيين العديد من الوقائع الحربية، انتهت باستيلاء المماليك على زبيد؛ فدخلوها وطردوا عامل الطاهريين منها، ونهبوا وأحرقوا كثيرا من دورها، وصادروا كثيرا من أموال تجارها[١٣]. وبهذه الكيفية دخل المماليك إلى اليمن، وبسطوا نفوذهم على الساحل الغربي، وجعلوا من زبيد مقرا لهم.

وبعد أن سيطر العثمانيون على مصر سنة ١٥١٧م، وأنهوا الحكم المملوكي، أعلنت الحامية المملوكية في اليمن ولاءها وتبعيتها للدولة العثمانية، وظلت تحكم في المناطق الساحلية باسم العثمانيين بعد أن تم إصدار فرمان سلطاني يقضي بتثبيت قادة المماليك في اليمن بعد إعلانهم التبعية للدولة العثمانية.

وبالرغم من ذلك فإننا نلاحظ أن المماليك في اليمن لم يكونوا على إخلاص كبير للدولة العثمانية؛ بل ظل بعضهم ينظر لها كدولة عدوة، والدليل على ذلك أن بعض قادة المماليك في اليمن حاكوا مؤامرات واختلقوا مشاكل ضد العثمانيين فيها.

---

[١٢] للمزيد انظر: شرف الدين، أحمد حسين، اليمن عبر التاريخ، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م، ص٢٣٥-٢٣٧. الجرافي، عبد الله بن عبد الكريم، المقتطف من تاريخ اليمن، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص٩٧-٩٨.

[١٣] بامخرمة، أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بن علي، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، تحقيق: بو جمعة مكري وآخرون، دار المنهاج للنشر، جدة، ط١، ٢٠٠٨م، مجلد٦، ص٥٧٦.

البرتغاليون:

تحكّم العرب في أغلب طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب حتى نهاية القرن الخامس عشر، وكما هو معروف، فإن اليمن بموقعها الجغرافي المهم تشرف على باب المندب الذي يعد واحدا من أهم المضائق المائية في العالم؛ كونه يربط البحر الأحمر بالمحيط الهندي وبحر العرب. وقد جاء البرتغاليون إلى العالم العربي في نهايات القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر مع ما سمي تاريخيا بـ(الكشوف الجغرافية)، مفتتحين بذلك صفحة صراع تاريخية استمرت إلى وقتنا الحاضر.

كان للبرتغاليين السبق الاستعماري الأوروبي في الشرق؛ فقد جاءوا بأسلحة حديثة لم تكن معروفة في اليمن ولا في الإمارات الهندية، وتميزت سياستهم بالعنف والقسوة والتعصب الديني.[١٤] ولا يسع المجال هنا للخوض بشكل مستفيض في أسباب ومراحل الكشوف الجغرافية؛ لأنه ليس موضوعنا، وبسط الحديث عنها يحتاج إلى مساحة أكبر[١٥]، بل سنتحدث عن تأثير الغزو البرتغالي على اليمن؛ كونه أحد الأسباب الرئيسة في استيلاء المماليك ومن بعدهم العثمانيين على اليمن.

وكيفما كان الأمر، فإن أكثر سببين خاض فيهما المؤرخون بشأن الغزو البرتغالي للعالم الاسلامي هما: السبب الديني، والسبب الاقتصادي، يتمثل الأول في

---

[١٤] أحمد، إبراهيم خليل، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦-١٩١٦م، دار ابن الأثير للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ٢٠٠٥م، ص٢٨-٢٩.

[١٥] لتسليط الضوء أكثر على أسباب الكشوف الجغرافية ومجيء البرتغاليين إلى سواحل المحيط الهندي والبحر الأحمر انظر: السلمان، محمد حميد، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة ١٥٠٧-١٥٢٥م، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين- الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٠م، ص١٥-٢٦.

نشر المسيحية في الأراضي الإسلامية، إذا علمنا أن الأوروبيين على وجه العموم، والبرتغاليين على وجه الخصوص، اعتبروا تلك الأعمال جهادا دينيا مقدسا[١٦].

وقد صور لنا أحد المؤرخين الروس الطابع الديني وراء تلك الكشوفات بقوله: إن البرتغاليين كانوا أول الدول الأوروبية التي استجابت لنداء البابا عندما بدأ بالتحرك والحشد والتحريض لغزو الشرق في موجة صليبية، بعد أن اعتراهم الخوف مع سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين عام ١٤٥٣م، بحيث دعوا إلى تنظيم حملة صليبية جديدة ردا على القسم الذي أطلقه السلطان محمد الفاتح حين قال: "إنه سوف يطعم حصانه الشوفان على عرش القديس بطرس"[١٧].

أما السبب الثاني؛ فذو طابع اقتصادي تجاري، هدف البرتغاليون من خلاله إلى السيطرة على مصادر الإنتاج في الهند، ومنع احتكار المسلمين للتجارة، إذا ما علمنا أن طرق التجارة العالمية آنذاك كانت تمر عبر البلدان العربية والإسلامية[١٨].

ومهما يكن الأمر؛ فقد بدأت الموجة الأولى باحتلال المغرب العربي عام ١٤٥٨م، وفي عام ١٤٦٨م قام الأسطول البرتغالي باحتلال وإحراق الدار البيضاء، وفي عام ١٤٧١م استولى على طنجة، واستمروا في أعمالهم العدائية إلى أن أخضعوا ساحل مراكش الغربي كله، وحولوا مناطق المغرب السهلية المحاذية

---

[١٦] المليباري، أحمد بن زين الدين المعبري، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، تحقيق: محمد سعيد الطريحي، مؤسسة الوفاء للنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص١٥٢. في الحقيقة وعند قراءة مراسيم انطلاق الرحلات الاستكشافية من المصادر الأوروبية فإنه يتأكد للقارئ أننا أمام حرب دينية مقدسة، لا تقل أهمية عن الحملات الصليبية التي تم إرسالها إلى القدس وبلاد الشام في نهايات القرن الحادي عشر الميلادي. للاطلاع أكثر انظر: سونيا. ى. هاو، في طلب التوابل، ترجمة: محمد عزيز رفعت، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٧م.

[١٧] نيقولاي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦-١٥٧٤م، ترجمة: يوسف عطا الله، دار الفارابي للنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ص٣١-٣٢.

[١٨] المليباري، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، مصدر سابق، ص١٥٣.

للمحيط الأطلسي إلى مستعمرات لهم، أما سبتة فكانوا مسيطرين عليها منذ سنة ١٤١٥م[١٩].

انطلقت حملة فاسكوا داجاما في ٨ أغسطس سنة ١٤٩٧م بعد سلسلة طويلة من الرحلات الاستكشافية، ورحلة داجاما [٢٠]هي الرحلة الاستكشافية التي استطاعت أن تصل إلى الهند. بدأت مسارها من جزر الرأس الأخضر عبر المحيط الأطلسي الجنوبي، وعبرت خليج سنت هيلانه، ثم عبرت رأس الرجاء الصالح الذي كان قد تم اكتشافه قبل حوالي ١٠ سنوات من قبل بارثلمي دياز، ثم واصل داجاما سيره حتى وصل إلى مضيق موزمبيق ثم ماليندي، وفيها التقى بالملاح العربي المشهور أحمد بن ماجد حسب ما تذكر بعض المصادر، وقد أرشدهم ابن ماجد بحكم خبرته بالطرق وعلم البحار، وبفضل تعليماته وصلوا إلى الهند مجتازين كثيرا من الصعوبات والمغامرات[٢١].

وقد أظهر البرتغاليون فور وصولهم قسوة وشدة، وظلموا وسطوا حتى على صيادي الأسماك العزل من السلاح، وقد وصفهم المؤرخ الروسي نيقولاي إيفانوف بما يفيد أنهم كانوا نموذجا للإرهاب الصليبي الجماعي.

بدأت الهجمات البرتغالية على الشواطئ العربية الجنوبية في بدايات القرن السادس عشر الميلادي، وخلال الأعوام (١٥٠٢-١٥٠٦م)، قام البرتغاليون

---

[١٩] نيقولاي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، مرجع سابق، ص٣٢.

[٢٠] نيقولاي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، مرجع سابق، ص٣٣.

[٢١] المليباري، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، مصدر سابق، ص١٥٨-١٥٩. من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن موضوع مساعدة أحمد بن ماجد للبرتغاليين موضع خلاف لدى المؤرخين، فمنهم من أثبت ذلك مثل النهروالي والمليباري، ومنهم من قال بغير ذلك مثل المؤرخة الأوروبية سونيا. ي. هاو، التي أشارت إلى أن من قام بمساعدتهم هو شخص يدعى المغربي.

باجتياح شواطئ المحيط الهندي، وأحرقوا[٢٢] السفن التجارية، وقتلوا المئات من الناس، وفي عام ١٥٠٧م احتلوا جزيرة سقطرى، وظهروا في البحر الأحمر لأول مرة.

وقد كان الوضع العام في المنطقة حينها يتسم بالضعف والانحلال السياسي والعسكري؛ فاليمن كان يعاني من صراع داخلي، والدولة المملوكية كانت في حالة ضعف عامة، وتعيش آخر أيامها. والقوى المحلية في عمان والإمارات الإسلامية في الهند كانوا هم الآخرون يعانون من انعدام الإمكانات التي يستطيعون بها صد الخطر القادم إليهم، لذلك اتجهت الأنظار آنذاك إلى الدولة العثمانية.

وفي عام ١٥١٣م، وصل ستة عشر مركبا برتغاليا إلى عدن، ولكن تحصيناتها المنيعة ومقاومة أهلها حالت بينهم وبين الاستيلاء عليها؛ فتم صدهم بعد أن قُتل منهم أربعة أشخاص وأسر خمسة آخرين؛ فتراجعوا بعد أن ضربوا عدن بالمدفعية، الأمر الذي أدى إلى مقتل عدد من الناس وخراب بعض البيوت [٢٣]، ثم توجهوا إلى جزيرة كمران، واتخذوا منها نقطة لشن غارات القرصنة، وأقاموا فيها من أوائل شهر صفر إلى منتصف جمادى الأولى من العام نفسه، ثم أعادوا محاولة السيطرة على عدن مرة أخرى، لكنهم لاقوا المقاومة الطبيعية والأهلية السابقة، الأمر الذي جعلهم يقطعون أملهم في السيطرة عليها[٢٤].

---

[٢٢] نيقولاي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، مرجع سابق، ص٣٤.

[٢٣] العبدلي، احمد فضل بن علي محسن، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٥١هـ، ص٩٢.

[٢٤] ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي بن محمد، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، صنعاء، ط٢، ١٩٨٨م، ص٤٥٨-٤٥٩.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن مقاومة اليمنيين للبرتغاليين اتسمت بالدفاع عن عدن والسواحل لا أكثر، ولم يصل الأمر إلى حد الهجوم عليهم في المحيط الهندي والبحر الأحمر؛ إذ لم تورد لنا المصادر سوى ذكر حملة صغيرة لم تحقق أي نجاح يُذكر، أرسلها السلطان عامر بن عبد الوهاب سنة ١٥٠٧م.

وثَمة سبب رئيس كان وراء إخفاق البرتغاليين في السيطرة على البحر الأحمر، يتمثل في عدم دعم ومساندة مملكة الحبشة المسيحية لهم، بعد أن كانوا يعولون كثيرا على مساعدة الأحباش لهم، ويرى بعض المؤرخين أن عدم الوفاق بين البرتغاليين والأحباش يعود إلى الاختلاف المذهبي بينهما، بالإضافة إلى فطنة الأحباش إلى أهداف البرتغاليين الاستعمارية، كما كان لطبيعة البحر الأحمر الجيولوجية أثر كبير في إعاقة تحرك البرتغاليين فيه؛ فكما هو معروف عنه، إنه يمتاز بكثرة الشعاب المرجانية التي تعيق حركة السفن وتغير مساراتها، كل ذلك جعل وجودهم في البحر الأحمر واليمن يتصف بالضعف العام.

من خلال العرض السابق، يتضح لنا الإطار العام الذي كانت عليه اليمن قبل وصول العثمانيين إليها، والمتمثل في الوضع المتشظي وغير المستقر، مع الخوف والترقب بتوسع البرتغاليين نحو الداخل اليمني وعمق البحر الأحمر، الأمر الذي جعل القوى المحلية في اليمن والهند والحجاز تتطلع إلى العثمانيين كمنقذ، إذا ما علمنا أن الدولة العثمانية آنذاك كانت في أوج قوتها واتساعها.

دخول العثمانيين عدن وتنصيب بهرام باشا[٢٥] أميرا عليها (١٥٣٨-١٥٤٠م):

لم تكن اليمن بمعزل عن متابعة العثمانيين واهتمامهم قبل عام ١٥٣٨م، نلحظ ذلك من خلال التقرير الذي أعده القبطان البحري العثماني سلمان ريس سنة ٩٣١هـ الموافق ١٥٢٥م، حيث أعد تقريرا مفصلا عن أحوال بلاد اليمن والساحل السوداني وبلاد الحبشة[٢٦]، أشار فيه إلى ما يعيشه اليمن من حالة تجزئة وتمزق وعدم استقرار؛ نتيجة عدم وجود حاكم واحد يتحكم بكامل البلاد، كما أشار التقرير إلى تميز اليمن بغناها وثرواتها ومواردها التي لا حصر لها حسب تعبيره، وعرض إمكانية حكم اليمن وتقسيمها من الناحية الإدارية إلى خمسة ألوية كبيرة لتسهل إدارتها، وأكد على أن التحكم باليمن هو مفتاح التحكم بالهند[٢٧]، ولهذا نستطيع القول إن التقرير كان أشبه بدعوة لأخذ ولاية اليمن، وإدخالها تحت النفوذ الفعلي العثماني.

دخلت اليمن اسميا تحت النفوذ العثماني في سنة ١٥١٧م، بمجرد أن استولى السلطان سليم الأول على القاهرة، وأعلن نهاية الدولة المملوكية، وبموجب ذلك أعلنت الحامية المملوكية التي كانت في اليمن آنذاك ولاءها للسلطان العثماني وتبعيتها له، وقد استمرت السيادة الاسمية العثمانية على اليمن إلى عام ١٥٣٨م؛ لتتحول بعد ذلك إلى فعلية مباشرة.

---

[٢٥] مصطلح باشا؛ أصله باش وتعني الرأس باللغة التركية، شاع استعماله كلقب من ألقاب التشريف في العهد العثماني، كان يمنح في البداية لكبار ضباط الجيش والبحرية، ممن يحملون رتبة لواء وما فوق، ثم أُطلق على الوزراء والولاة، ومع توسع الدولة العثمانية أصبح السلطان يمنح هذا اللقب لكبار الأعيان ورجال الدولة من غير الوزراء، كما أنه لم يقتصر منحه للمسلمين فقط، بل تم منحه لكثير من المسيحيين واليهود من رعايا الدولة العثمانية، نظرا لموقعهم والأعمال التي قاموا بها، وقد تم إلغاء استخدام المصطلح مع زوال الدولة العثمانية وقيام الجمهورية التركية سنة ١٩٢٣م. انظر: الخطيب، مصطفى عبدالكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص٦٥.

[٢٦] التقرير محفوظ كوثيقة في أرشيف الباب العالي-إسطنبول: Topkapı Sarayı Arşivi, E. 6455

[٢٧] بيات، فاضل، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إسطنبول، ٢٠١٥م، ط٢، ج١، ص١١٩-١٢٦.

خاض كثير من المؤرخين العرب منهم والأتراك في موضوع أسباب دخول العثمانيين إلى اليمن، ويكاد يجمع أغلب المؤرخين على أن أهم سبب دفع العثمانيين إلى السيطرة على اليمن هو ردع الخطر البرتغالي الذي بدأ يهدد العالم الإسلامي بشكل عام والجزيرة العربية بشكل خاص، خصوصا بعد احتلالهم لهرمز عام ١٥٠٧م، وجوا في الهند عام ١٥١٠م، وتوغلهم داخل البحر الأحمر الذي بلا شك شكّل تهديدا مباشرا للمقدسات الإسلامية، الأمر الذي جعل العثمانيون أمام مسؤولية مواجهتهم، إذا ما علمنا أن الدولة العثمانية كانت أكبر قوة في العالم الإسلامي آنذاك.

لم يكن بإمكان العثمانيين منع دخول السفن البرتغالية إلى البحر الأحمر دون أن يكونوا مسيطرين على اليمن؛ كون اليمن يمثل البوابة الجنوبية للبحر الأحمر والجزيرة العربية، ولهذا فقد كانت مواجهة البرتغاليين تستوجب وجود قوة عثمانية في جنوب البحر الأحمر، يقوم على عاتقها ردع الخطر البرتغالي.

وقد أشارت بعض المصادر التركية إلى أن الدولة العثمانية آنذاك هدفت إلى عدم وجود أي علاقة للبرتغاليين مع الصفويين[٢٨]أو مع مملكة الحبشة المسيحية، ولم يتمكنوا من ذلك دون تثبيت وجودهم في اليمن وهرمز[٢٩]. وثمة سبب آخر نرى أنه

---

[٢٨] الصفويون: أسرة فارسية حكمت إيران منذ بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي حتى منتصف القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي. تُنتسب إلى صفي الدين الأردبيلي، ويعتبر إسماعيل بن شيخ حيدر المؤسس الحقيقي لهذه الدولة، والذي اتخذ عقيدة الشيعة الإمامية مذهبا رسميا لدولته، ويعد عباس الثالث ١٧٣٧م آخر حكامها. وقد دخل الصفويون في بدايات القرن السادس عشر في عداء مع العثمانيين، بحيث تطور إلى حد المواجهات العسكرية بين الدولتين. للمزيد انظر: الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مرجع سابق، ص٢٩٢.

[٢٩] سرما، إحسان ثريا، الوضع الجيوسياسي لليمن وضمه إلى الدولة العثمانية، بحث مقدم إلى مؤتمر الدولي حول تاريخ الأتراك الاقتصادي والاجتماعي، ١١-١٣ تموز ١٩٧٧م، جامعة حجي تبه، أنقرة، منشورات مجلة معهد التاريخ، كلية الآداب جامعة إسطنبول، ص٤٣٨. المقال باللغة التركية.

لا يقل أهمية عن السبب السابق، يتمثل في رغبة الدولة العثمانية في توسيع رقعتها الجغرافية ونفوذها الإستراتيجي، كون سيطرتها على اليمن سيمنحها أهمية جيوسياسية، وسيجعل من اليمن نقطة مهمة لاستقرار الوضع في الجزيرة العربية، نلحظ ذلك من وصف أحد المؤرخين الأتراك الذي شبه أهمية اليمن للجزيرة العربية كأهمية مدينة بورصة[٣٠] لإسطنبول، ويضيف بالقول: " فمثلما استولى العثمانيون على أوروبا الشرقية بفضل سيطرتهم على بورصة واستغلال مواردها فإن استقرارهم في الجزيرة العربية منوط بإحكام السيطرة على اليمن واستغلال مواردها"[٣١].

وكيفما كان الأمر، فقد دخلت اليمن تحت السيادة الفعلية للدولة العثمانية في يونيو عام ١٥٣٨م، بمجرد دخول سليمان باشا الخادم[٣٢] عدن، واستيلائه عليها

[٣٠] بورصة أو بروسه/ بورسة: مدينة تركية تقع في الجزء الشمالي الغربي من بلاد الأناضول، أسسها بروسياس الثاني ملك بيثينيا. عظم شأنها أيام حكم الأباطرة البيزنطيين وصارت المستودع التجاري للقسطنطينية – إسطنبول حاليا-. فتحها السلطان العثماني أورخان بن عثمان عام ١٣٢٥م وجعلها عاصمة له، وقد توسعت وازدهرت وصارت أكبر مدن الأناضول حتى غزاها تيمورلنك وأحرقها في بدايات القرن الخامس عشر، ثم أعاد بناءها السلطان محمد الثاني(الفاتح). وتعتبر بورصة العمق الإستراتيجي لإسطنبول ومركز إمداد لها على مر العصور. حاليا مدينة بورصة تُشكل أحد أهم المراكز الصناعية في تركيا، ورابع أكبر المدن سكانيا. انظر: س. موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة: عصام محمد الشحات، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٢، ص١٥٧.

[٣١] ساحلي أوغلي، خليل، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني بحوث ووثائق وقوانين، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية – أرسيكا-، إسطنبول، ٢٠٠٠م، ص١٥٦. نقلا عن محمد أمين باشا ت ١٩٠١م من كتابه " تدابير لإعمار خطة اليمن ووسائل استتباب الأمن واستقراره فيها". وللمزيد عن أسباب دخول العثمانيين إلى اليمن انظر: صابان، سهيل، نظرة عامة في السياسة العثمانية لتثبيت الحكم في اليمن ٩٦٧ من واقع دفاتر المهمة -٩٩٩هـ/١٥٥٩-١٥٩١م، مجلة أبحاث الشرق الأوسط، جامعة الفرات، الأزيغ، العدد ١-٢، ج١٢، ص٧٩-٨١.

[٣٢] سليمان باشا الخادم: أحد خواص السلطان سليم الأول، وأحد المقربين منه، كان من الخصيان الذين تربوا في القصر السلطاني بين الحريم، وقد تولى حكم مصر عام ١٥٢٥م، وقبله كان والي ولاية الشام، وظل والي لمصر لحوالي عشر سنوات، شارك في فتح بغداد سنة ١٥٣٤م، ثم عاد لولاية مصر للمرة الثانية في يناير سنة ١٥٣٧م، واستمر بها حتى خرج في حملته المشهورة إلى اليمن والهند في يونيو عام ١٥٣٨م. وقد وصل إلى اليمن والهند، ثم عاد إلى إسطنبول، وبعد رجوعه من الهند تولى الوزارة سنة ١٥٣٨م، ثم الصدارة العظمى سنة ١٥٤٠م، وقد اعتزل السياسة بعد ذلك بناء على خلاف نشب بينه وبين أحد الوزراء في الديوان السلطاني يدعى (خسرو باشا)، وأكمل باقي حياته في تركيا وتوفى فيها. انظر: كاتب جلبي، مصطفى عبد الله المعروف بحاجي خليفة (ت١٦٥٨م)، فذلكة أقوال الأخيار في علم التاريخ والأخبار – تاريخ ملوك آل عثمان، تحقيق: د. سيد محمد السيد، أنقرة، مؤسسة تاريخ الأتراك للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٩م، ص ٤٠٣. سالم، مرجع سابق، ص ١٥٨-١٥٩.

ضمن حملته الشهيرة التي تم تجهيزها بناء على توجيه من السلطان سليمان القانوني في العام نفسه.

وبحسب ما أوردته المصادر؛ فإن للعثمانيين جهودا سابقة لحملة سليمان باشا الخادم، هدفت إلى الوصول إلى الهند، كما كان لهم علاقات مع الإمارات الإسلامية فيها، خصوصا مع حكومة ملبار التي استنجدت بالعثمانيين لحمايتهم من التوغل البرتغالي، الأمر الذي كان سببا رئيسا لانطلاق حملة سليمان باشا الخادم حسب ما أوردته المصادر العثمانية[٣٣].

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القوة البحرية العثمانية بلغت أوج قوتها في عهد السلاطين بايزيد الثاني[٣٤] وسليم الأول[٣٥] وسليمان القانوني، وأصبح للدولة العثمانية قوة بحرية منافسة بعد أن كان يغلب عليها الطابع البري في حروبها وتوسعها، وأصبح الأسطول العثماني في النصف الأول من القرن السادس عشر يجوب البحر الأبيض المتوسط، ووصل إلى المحيط الهندي في إطار ما يسميه بعض المؤرخين المعاصرين بعصر الاستكشافات العثمانية[٣٦].

---

[٣٣] جودت، أحمد باشا ت ١٨٩٥م، تاريخ جودت، مطبعة علي بك، إسطنبول، ١٢٩٢هـ، ج٣، ص٦٢. الكتاب باللغة العثمانية. تشير بعض المصادر المحسوبة على المذهب الزيدي أن ثمة سببا خفيا لحملة سليمان باشا الخادم، وهو أخذ اليمن تحت مسمى "محاربة البرتغاليين". انظر: شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، مرجع سابق، ص٢٥٩.

[٣٤] لتسليط الضوء أكثر على شخصية السلطان بايزيد الثاني وفتوحاته انظر: عاشق باشا زادة، تواريخ آل عثمان، مطبعة عامرة، إسطنبول، ١٣٣٢هـ، ص٢٢٠-٢٤٧. (الكتاب باللغة العثمانية وتم ترجمته إلى اللغة التركية، وصدر عن دار نشر كامر، إسطنبول، ٢٠١٣م).

[٣٥] للمزيد حول عصر السلطان سليم انظر: مؤلف مجهول، تواريخ آل عثمان، دراسة وتحقيق: نهات أزمات، منشورات دار كلية الآداب للطباعة والنشر، إسطنبول، ١٩٩٢، ص١٣٥-١٤٠. الكتاب باللغة التركية مترجم من اللغة العثمانية.

[٣٦] للمزيد عن البحرية العثمانية واستكشافاتها في المحيط الهندي في القرن السادس عشر انظر: جانكارلوا كازالي، رياس البحر الهندي عصر الاستكشافات العثمانية، ترجمة: مصطفى قاسم، إصدارات عالم المعرفة، الكويت، أغسطس ٢٠١٨م.

تكونت حملة سليمان باشا الخادم من ٢٠ ألف جندي و٧٠ سفينة مزوده بالمدافع الضخمة[٣٧]. خرج فيها من السويس إلى جدة ومنها إلى عدن، وكان حاكم عدن آنذاك عامر بن داوود الطاهري آخر ملوك بني طاهر في اليمن، و لم يكن يتبقى له من مملكة أسلافه غير عدن، وقد وصفه قطب الدين النهروالي– المؤرخ الرسمي للدولة العثمانية حينها– بأنه كان محسنا كريما حسن السيرة يعظّم الشرع الشريف والعلماء[٣٨]. وعند وصول سليمان باشا الخادم إلى عدن أكرم السلطان عامر وفادته، واستقبله وفتح له أبواب عدن ظنا منه أنه جاء لمقاتلة البرتغاليين، لكنه سرعان ما قام بالغدر به، وأمر بصلبه هو ومجموعة من كبار رجاله بعد أن جاء إليه إلى السفينة لاستقباله، وأمر جنوده بدخول عدن ونهبها[٣٩].

وقد تضاربت روايات المؤرخين حول قيام سليمان باشا الخادم بقتل عامر بن داوود الطاهري، فأورد الموزعي ما يفيد أن وشاية شرف الدين وابنه المطهر على عامر بن داوود كانت السبب الرئيس في مقتله، وأنهم عرضوا لسليمان باشا الخادم بتواطؤ السلطان عامر مع الإفرنج (البرتغاليين) وحرضوه عليه[٤٠]. بينما أورد عيسى بن لطف الله صاحب كتاب روح الروح، ويحيى بن الحسين صاحب كتاب غاية الأماني، ما يفيد أن عامر بن داوود الطاهري طمع في نصرة سليمان باشا الخادم على الإمام شرف الدين؛ فكاتبه بعد أن وصل إلى كمران ووعده بمناصرته ومعاونته

---

[٣٧] محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، بيروت، دار النفائس، ط١، ١٩٨١م، ص ٢٣٩–٢٤٠.

[٣٨] النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد ت ٩٩٠، غزوات الجراكسة والأتراك في جنوب الجزيرة العربية المسمى (البرق اليماني في الفتح العثماني)، الرياض، منشورات دار اليمامة، ط١، ص٨٠. الشلي، السيد محمد، السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر، تحقيق: إبراهيم بن أحمد المقحفي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ط١، ٢٠٠٤م، ص ٣٣٨.

[٣٩] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص٨٠.

[٤٠] الموزعي، شمس الدين عبد الصمد بن إسماعيل، دخول العثمانيين الأول إلى اليمن المسمى الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، بيروت– لبنان، منشورات المدينة، ط١، ١٩٨٦م، ص٢٥.

على حرب الإمام؛ فاغتر بذلك، وحين وصل سليمان باشا الخادم إلى عدن حدث ما حدث[41].

وكيفما كان الأمر، فتضارب الروايات يرجع إلى ميول المؤرخين واتجاهاتهم، ومن الصعب التحقق والتثبت من أخبار تلك الاتصالات، بسبب عدم وجود أدلة واضحه عليها، والراجح أنه عند وصول سليمان باشا الخادم إلى جزيرة كمران قام كل من عامر بن داوود الطاهري والإمام شرف الدين بالاتصال به، وطلب كل منهما معاونته ضد الأخر[42]. ومهما يكن، فإن ما أقدم عليه سليمان باشا الخادم يعدّ عملا ظالما وغير مبرر، وقد انعكس سلبا على صورة العثمانيين لدى اليمنيين والهنود في تلك المرحلة، وكان له أبلغ الأثر في عدم تحقيق أهداف الحملة كما سنرى لاحقا.

ويبدو أن سليمان باشا الخادم أقدم على هذا العمل لكي يُظهر أنه القائد الذي لا يقهر؛ فيحظى بالقرب من البلاط السلطاني أكثر، وهذا ما لمسناه من خلال تقريره الذي قدمه للسلطان بعد عودته[43]، وأظهر فيه أنه أخذ عدن بالقوة وفتحها واعتبر ذلك نصرا[44].

---

[41] عيسى بن لطف الله شرف الدين، روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، تحقيق: إبراهيم أحمد المقحفي، صنعاء، مركز عبادي للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٠٨. يحي بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي (ت ١٦٨٩م)، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ط١، ١٩٦٨م، مج١، ص٦٨٤.

[42] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص ١٦٠.

[43] كتب سليمان باشا الخادم التقرير في ٩ أغسطس سنة ١٥٣٨م أي بعد استيلائه على عدن، وأرسله إلى الباب العالي. تركز التقرير حول إيضاح أهمية عدن، وكيف سيطرت القوات العثمانية عليها، بالإضافة إلى اقتراحات بشأن اليمن، وكيفية إدخاله تحت الحكم العثماني سنة ١٥٣٨م. وبرأينا أنه بالغ فيه لما من شأنه إظهاره كقائد فاتح مهاب الجانب. والتقرير محفوظ في أرشيف طوب كابي سرايي (قصر الباب العالي) بإسطنبول برقم E٦٤٥٤، وقد أوردنا نسخة منه في ملحقات الكتاب نقلا عن: بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، ج١، ص١٣٠-١٣٩.

[44] أفرد المؤرخ التركي المعاصر محمد يعقوب مقهول في كتابه المعنون بـ (عصر القانوني – سياسة العثمانيين في المحيط الهندي وعلاقة العثمانيين بالمسلمين الهنود ١٥١٧-١٥٣٨م) فصلا بعنوان (حملة سليمان باشا الخادم بحسب المصادر التركية)، سلط الضوء فيه على آراء

ويشير أغلب المؤرخين إلى أن سليمان باشا الخادم كان شخص شديد وظالم، وقد كان يُعرف بتلك الصفات حتى قبل مجيئه إلى اليمن، فيُذكَر عنه أنه قتل بعض رجال مصر، مثل الأمير جانم الحمزاوي وولده يوسف أمير الحج[٤٥]. كما يشير البعض الى أن الباشا سليمان لم يكن جنديا في الإنكشارية[٤٦]، ولا يمهر كثيرا في الشؤون البحرية، وكل ما في الأمر أن قربه من البلاط السلطاني هيَّأ له ذلك[٤٧].

وفي اعتقادنا، إن القسوة الشديدة التي انتهجها الباشا، وأسلوبه السيّئ قد أفضيا بطريقة أو بأخرى إلى نتائج غير جيدة، شوهت سمعة الدولة العثمانية في اليمن والهند في تلك المرحلة، بل كانا سببا رئيسا في فشل حملته وأداء مهامها في الهند[٤٨].

المصادر التركية في الحملة وأسبابها، وأسباب فشلها، وانتقد المصادر التركية على تناولها الضعيف لأحداث تلك الجهات في النصف الأول من القرن السادس عشر كونها لم تسلط الضوء إلا على موقعة ديو. مقهول، محمد يعقوب، عصر القانوني – سياسة العثمانيين في المحيط الهندي وعلاقة العثمانيين بالمسلمين الهنود ١٥١٧-١٥٣٨م، دار الفاتح للطباعة والنشر، إسطنبول، ١٩٧٤م، ص١٥٦-١٥٩. الكتاب باللغة التركية.

[٤٥] ابن أبي السرور، محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، المنح الرحمانية في تاريخ الدولة العثمانية، مخطوط محفوظ بمكتبة جامعة إسطنبول – تركيا برقم (١١٠٥)، ص٣٠.

[٤٦] الإنكشارية (Yeniçeri): تعني القوات الجديدة، وهي فرق من المشاة، تشكلت في البداية في عهد السلطان أورخان بن عثمان(١٣٢٦-١٣٦٢)، وتذكر المصادر أنها فيالق عسكرية تكونت من أبناء رعايا الدولة الذين تم جمعهم ما بين السادسة والخامسة عشر من عمرهم من مختلف الولايات العثمانية في أوروبا، وهناك رأي مخالف، وهو أن أفراد الإنكشارية كانوا من أولاد المسلمين، وكيفما كان الأمر فقد قدمت قوات الإنكشارية خدمات جليلة للدولة العثمانية خصوصا في القرنيين السابع عشر والثامن عشر، ثم أصبحت عبئا ومشكلة على الدولة فيما بعد، بحيث تزعمت بعض الاضطرابات والعصيانات، أهمها التمرد على الدولة في فترة السلطان محمود الثاني، الأمر الذي جعل السلطان يقوم بإبادتهم في مذبحة في إسطنبول سنة ١٨٢٦م. انظر: صابان، سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ٢٠٠٠م، ص٤١.

[٤٧] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص ١٥٨.

[٤٨] للمزيد حول فشل حملة سليمان باشا الخادم على الهند انظر: البطريق، عبد الحميد، من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧-١٨٤٠م، مرجع سابق، ص٢٦ وما بعدها.

بعد استيلاء سليمان باشا الخادم على عدن توجه إلى الهند، وترك بهرام باشا أميرا عليها ومعه حامية صغيرة من العسكر وعدد من المدافع والسلاح. وبهذا يُعد الأمير بهرام أول أمير/ سنجق[٤٩] عثماني يُولى على عدن[٥٠].

لم تُدلِ المصادر العثمانية والعربية بمعلومات مفصلة عن الأمير بهرام غير أنه أحد القادة العثمانيين الذين كانوا في حملة سليمان باشا الخادم، وقد يعود ذلك إلى قصر الفترة التي قضاها في إمارة عدن، إضافة إلى أنه شخصية لا يوجد لها ثقل كبير؛ كونه لم يقلّد منصبا كبيرا بعد ذلك.

وقد تم تعيينه في البداية بناء على مرسوم من سليمان باشا الخادم، وبعد رجوع الأخير من الهند ووصوله إلى إسطنبول صدر فرمان من السلطان سليمان القانوني يقضي بتثبيت الأمير بهرام في إمارة عدن، والأمير مصطفى بك على زبيد كما سيأتي معنا لاحقا[٥١].

لم تزد فترة إمارة الأمير بهرام على سنتين، وبالرغم من محاولته لتثبيت الاستقرار في عدن خلال فترة إمارته؛ إلا أن الأوضاع لم تكن على ما يرام؛ فقد ارتفعت وتيرة السلب والنهب، وترافق ذلك مع سوء الوضع الاقتصادي[٥٢] الذي جعل

---

[٤٩] معناها اللغوي العلم (بفتح العين) واللواء الخاص بالدولة، ثم خص به اللواء الذي يمنحه السلطان للوالي أو للأمير تعبيرا عن ثقته فيه بأنه أهل للحكم والمنصب الذي أسند إليه، ثم تطور وأصبح يعني قسما إداريا من أقسام الدولة، وقد حلت محلها مؤخرا الكلمة العربية (لواء) بمعنى: قسم إداري أو محافظة بالمعنى المعاصر. انظر: صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مرجع سابق، ص١٣٦.

[٥٠] ابن داعر، عبد الله بن صلاح الدين (ت١٠٠٧)، الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية، مخطوط محفوظ بمكتبة راغب باشا – إسطنبول- تركيا برقم (٩٧٩)، ص٣٧٩.

[٥١] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص ١٧٢-١٧٣.

[٥٢] برأينا، إن أفضل ثلاثة كتب كُتبت حول الوضع الاقتصادي العام للدولة العثمانية ونظامها المالي هي: ١- قينش، محمد، الإمبراطورية العثمانية -الاقتصاد والدولة -، دار أوزتوكان للطباعة والنشر، إسطنبول، ٢٠٠٠م. كونه اعتمد على سجلات الأرشيف العثماني في استنباط ودراسة النظام الاقتصادي والمالي للدولة العثمانية. (الكتاب باللغة التركية). ٢- إينالجك، خليل، التاريخ الاقتصادي

العثمانيون يقومون باتخاذ بعض الخطوات من أجل معالجة الوضع الاقتصادي لكن دون جدوى، وذكرت بعض المصادر أنهم قاموا بعمل تعداد سكاني[٥٣] في مدينة عدن عام ٩٤٧هـ الموافق ١٥٤٠م، وإحصاء البيوت والدكاكين ورصد الأوقاف والأموال؛ لغرض فرض الضرائب وكسب المزيد من الأموال[٥٤].

الأمير مصطفى بك وإمارته على زبيد (١٥٣٨-١٥٤٠م):

بعد رجوع سليمان باشا الخادم من الهند، كانت أول محطاته ميناء الشحر[٥٥] ثم عدن ثم المخا. وفور وصوله المخا طلب من الناخوذة أحمد[٥٦]حاكم زبيد المملوكي أن يصل إليه، وأعطاه الأمان، وعرض عليه أن يكون نائبا تابعا للدولة العثمانية في اليمن، وبالرغم من أن مستشاريه أشاروا عليه بعدم اللقاء بسليمان باشا لما عُرف عنه من الشدة، فإنه أصر على اللقاء به، وما إن وصل إلى سليمان باشا في المخا حتى أمر بقتله على الفور، وذلك في شوال سنة ٩٤٥هـ الموافق ١٥٣٨م، وتذكر المصادر أن الناخوذة أحمد خرج من زبيد مع ما يقارب ٥٠٠ من خواصه؛ فقام

والإداري للدولة العثمانية، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، إسطنبول، ٢٠١١م. (الكتاب باللغة التركية). ٣- فاروقي، ثريا وآخرون، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٧م. تمت ترجمته من اللغة الإنجليزية وهو في مجلدين.

[٥٣] أسفر التعداد عن التالي: عدد الديار في المدينة ١٠٠٠دار منها مائة دار للديوان، عدد الدكاكين والحوانيت ١١٠٠، والمساجد ١٠٠ وبضع عشر مسجدا. انظر: بافقيه، محمد بن عمر ت١٠٠١هـ/١٥٩٢م، تاريخ حوادث السنين ووفاة العلماء العاملين والسادة المربين والأولياء والصالحين، تحقيق: أحمد صالح رابضة، إصدارات جامعة عدن، عدن، ٢٠١١م، ص XIII.

[٥٤] بافقيه، المصدر السابق، صXIII .

[٥٥] الشحر: اسم مدينة وميناء على ساحل اليمن الجنوبي مطلة على بحر العرب، سميت بالشحر نسبة إلى قوم كانوا يسكنونها، وقد كانت الشحر تلفظ بفتح الشين وسكون الحاء، ثم حرفت فحذف الألف وكسر الشين. ومن أسمائها الأحقاف، وسمعون، نسبة إلى وادي سمعون. أخذت أهمية عبر التاريخ كجزء من حضرموت. والشحر اليوم مديرية تتبع محافظة حضرموت. انظر: الحداد، علوي بن طاهر بن عبد الله بن طه، الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها، طبع الكتاب في سنغافورا، ١٩٤٠م، ص١٧٠-١٨٥.

[٥٦] الناخوذة أحمد: من بقايا المماليك في زبيد، كان أميرا على زبيد عند دخول العثمانيين اليمن، وقد وصفه المؤرخون بأنه كان من أعيان الأروام، وصاحب ثراء كبير، وأراء صائبة. (ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٣٧٧).

سليمان باشا بتصفيتهم جميعا، حيث أمر أن يُنادى فيهم لأخذ العلوفة[٥٧] بعد أن هربوا وتشتتوا بعد مقتل أميرهم، فاجتمعوا طمعا فيها ثم قتلوا جميعا[٥٨].

وثمة رواية بخصوص مقتل حاكم زبيد المملوكي السالف الذكر، تزعمها كل من عيسى بن لطف الله ويحيى بن الحسين والواسطي، تفيد أن سليمان باشا بعد وصوله إلى المخا راجعا من الهند أرسل مجموعة من دهاة رجاله إلى زبيد، وأناط بهم مسؤولية العمل على خلخلة الوضع فيها، فعملوا على ذلك حتى خرج الوضع، نوعا ما، عن سيطرة الناخوذة أحمد، وانشق عنه بعض عسكره، وهربوا إلى الباشا سليمان في المخا، وحين أدرك الناخوذة أحمد أنه أمام مأزق وأنه غير قادر على حماية زبيد طلب الأمان من سليمان باشا؛ فأمنه وأعطاه عهدا بذلك، وما إن خرج من زبيد حتى أرسل الباشا سليمان مجموعة من الجنود للقاء به في الطريق، وأمرهم بقتله مع رفاقه قبل أن يصلوا إليه[٥٩]. وهذه الرواية تتفق مع المصادر العثمانية، وهي برأينا أقرب إلى السياق التاريخي من سابقتها، ولهذا فقد سجل التاريخ حادثة مقتل الناخوذة أحمد كنهاية لعهد النفوذ المملوكي في اليمن، وأصبحت المنطقة الساحلية من عدن إلى زبيد وجازان تحت السيطرة المباشرة للعثمانيين.

بعد مقتل الناخوذة أحمد عيّن سليمان باشا الخادم الأمير مصطفى بك حاكما على زبيد؛ ويكون بذلك أول أمير عثماني يحكمها. وقد كان مصطفى بك أحد

---

[٥٧] العلوفة: الراتب الذي كان يدفع للعسكر وبعض الموظفين في الدولة العثمانية، وقد كان يُدفع مرة كل ثلاثة أشهر. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مرجع سابق، ص١٥٥-١٥٦.

[٥٨] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص٨٥-٨٦.

[٥٩] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص١٠٩. يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مرجع سابق، ص٦٨٤-٦٨٥. الواسطي، ضياء الدين أحمد بن موسى (ت بعد ١٠٧٥هـ)، نبذة في تاريخ ولاة اليمن في مديدة من الزمن، مخطوط محفوظ بمكتبة السليمانية – إسطنبول– تركيا، ص ٨. يؤيد هذه الرواية: مقهول، محمد يعقوب، عصر القانوني، مرجع سابق، ص١٦٨.

الأمراء في حملة سليمان باشا الخادم على اليمن والهند، ومن الضباط المحنكين الذين يعتمد عليهم الباشا سليمان في كثير من أموره. ويُذكر أنه كان شديد مع المخالفين، ويميل إلى الرعية وينصفهم ويسمع منهم. ولم يطلق عليه لقب بكلربكي[٦٠] ولا باشا؛ بل أطلق عليه لقب (بك) والتي تعني الأمير[٦١].

وبالرغم من قلة المعلومات التي أوردتها المصادر عن الأمير مصطفى؛ فإننا نستدل من خلال تعيينه على مدينة مهمة كزبيد وفي فترة تاريخية حرجة كتلك، أنه كان يتمتع بشخصية قوية، ولديه ما يؤهله لأن يحتل موقعا بارزا كإمارة زبيد.

تم تعيين الأمير مصطفى رسميا بعد عودة سليمان باشا الخادم إلى إسطنبول، بصدور فرمان من السلطان سليمان القانوني يقضي بتثبيته أميرا على زبيد[٦٢]. وكانت السيطرة على تعز وأخذها من آل شرف الدين أهم أهداف الأمير مصطفى أثناء فترة حكمه لزبيد[٦٣]، وذلك نظرا لما تشكّله تعز من أهمية إستراتيجية للوجود العثماني في اليمن آنذاك، كون السيطرة عليها وعلى مخاليفها يعنى الربط بين مناطق السيطرة العثمانية المتمثلة بعدن في الجهة الجنوبية وزبيد في الجهة الشمالية[٦٤].

وسعيا لسيطرة العثمانيين على تعز تحرك مصطفى بك نحوها في حملة عسكرية كبيرة سنة ٩٤٦هـ الموافق ١٥٣٩م، وما إن بلغ الإمام شرف الدين ذلك

---

٦٠ بكلربكي (Beylerbeği): من المناصب المرموقة في الدولة العثمانية ويعنى أمير الأمراء .

٦١ النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص٩٣.

٦٢ سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص ١٧٢-١٧٣.

٦٣ كامل باشا، محمد، التاريخ السياسي للدولة العثمانية العلية، مطبعة أحمد إحسان، إسطنبول، ١٣٢٧هـ، ج١، ص٢٥٨. الكتاب باللغة العثمانية.

٦٤ سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص١٦٦.

الأمر حتى قام بإرسال الفقيه يحيى بن إبراهيم النصيري مع مجموعة من العسكر؛ لتعزيز وجوده وموقفه فيها.

وقد خرج النصيري من صنعاء في رمضان من السنة المذكورة، وسار حتى وصل إلى جبل التعكر وتمركز فيه[٦٥]، وفي ذي القعدة لحق به شمس الدين بن الإمام شرف الدين، ثم تقدم النصيري نحو تعز، وتمركز بالقرب منها، في حين كان العساكر العثمانيون بقيادة مصطفى بك قد أحاطوا بها. وقد حاول الأمير مصطفى بكل ما أمكنه من قوة السيطرة على تعز، وحدثت حرب بين الفريقين انهزم على إثرها الجيش العثماني، وقتل منهم فوق العشرة؛ فانسحبوا بعد ذلك إلى زبيد دون تحقيق أي نجاح يُذكر[٦٦]. وكانت تلك هي المحاولة الوحيدة من جانب الأمير مصطفى لأخذ تعز، لكنه لم يوفق في مسعاه؛ فرجع مع جنوده إلى زبيد، واستقر فيها إلى أن تم عزله سنة ١٥٤٠م[٦٧].

وأخيرا، يمكننا القول إن الخارطة السياسية لليمن أثناء حكم الأميرين بهرام باشا ومصطفى بك، تمثلت في سيطرة العثمانيين على المناطق الساحلية من جازان في الشمال إلى عدن والشحر في الجنوب، أما الزيدية ممثلة بدولة الإمام شرف الدين؛ فكانت تسيطر على جميع الهضبة اليمنية من صعدة في الشمال إلى حدود عدن في الجنوب. وقد عمل كل طرف ما بوسعه في سبيل تثبيت دعائم حكمه وسيطرته

---

[٦٥] جبل التعكر: بتشديد التاء وسكون العين، جبل في العدين – في إب حاليا، يقع في سطحه الشمالي مدينة جبلة ومن جنوبه مدينة ذي السفال، ويبلغ ارتفاعه ٣٠٠٠ متر من مستوى سطح البحر، وفيه قلعة حصينة كانت من أهم معاقل الصليحيين، وهو من أشهر جبال اليمن وأمنعها. انظر: المقحفي، إبراهيم أحمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، صنعاء، دار الكلمة، ٢٠٠٢م، ج١، ص٢٣٣.

[٦٦] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص ١١٠.

[٦٧] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص ٩٣.

على الأقاليم التي تحت يده[٦٨]. وكانت محاولة مصطفى بك السيطرة على تعز بداية لسلسلة طويلة من الصراع والحروب بين أل شرف الدين والعثمانيين حتى انتهى الأمر بخروج العثمانيين من اليمن عام ١٦٣٥م كما سيأتي معنا لاحقا.

مصطفى باشا النشار:

هو مصطفى بك بن بيكلو محمد باشا أوغلو، وأبوه بيكلو محمد هو الذي فتح جنوب غرب الأناضول وديار بكر عن الصفويين[٦٩]. شغل مصطفى باشا منصب أمير أمراء ديار بكر، ثم أصبح نائبا على غزة قبل خروجه في حملة سليمان باشا الخادم إلى اليمن والهند.[٧٠] كما كان أحد الجنود في حملة السلطان سليم الأول على مصر سنة ١٥١٧م[٧١]، وأحد الذين اختاروا الإقامة بمصر عندما رجع السلطان سليم منها إلى الأناضول بعد الاستيلاء عليها، وقد ترقى في الوظائف إلى أن صار كاشفا بمصر، ثم ولي بعد ذلك إمرة الحاج المصري لسنوات متتالية.

أطلق عليه لقب (نشار)؛ لأنه عندما كان في طريق الحج إذا وقع بين يده سارق أو قاطع طريق ينشره نصفين كعقوبة على ما فعل[٧٢].

---

[٦٨] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص ١٧٥.

[٦٩] يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، إسطنبول، مؤسسة فيصل، ١٩٨٨، ج١، ص ٣٢٩.

[٧٠] بجوي، إبراهيم أفندي، التاريخ السياسي والعسكري للدولة العثمانية (المعروف بتاريخ بجوي)، ترجمة ناصر عبد الرحيم حسين، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٥م، ج١، ص٢٦٨. (الكتاب مترجم من الفارسية).

[٧١] محروس، صالح، ولاية مصطفى باشا النشار على اليمن وآثارها ١٥٥١-١٥٥٨م، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الأول عن اليمن في العهد العثماني الأول، جامعة أوشاك – تركيا، منشورات جامعة ٩ أيلول – أزمير- تركيا، ٢٠١٦م، ص ٣١٢.

[٧٢] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ٩٤.

ولايته الأولى على اليمن (١٥٤٠-١٥٤٥م):

نتيجة لقرب مصطفى باشا النشار من داوود باشا والي مصر آنذاك؛ فقد عرض له في سنة ٩٤٧هـ الموافق ١٥٤٠م أمام البلاط السلطاني في إسطنبول تولي ولاية اليمن، وكان داوود باشا من الشخصيات الموثوق بها لدى الباب العالي، فأعطي ما سأل، وتم إصدار فرمان سلطاني يقضي بتولي مصطفى النشار ولاية اليمن عوضا عن مصطفى بك، وهو أول من أطلق عليه لقب باشا وبكلربكي[٧٣] في ولاية اليمن، وولي على زبيد وما يليها[٧٤].

وصل الباشا مصطفى إلى زبيد عام ١٥٤٠م، وفور وصوله أظهر فيها العدل، وحاول ما أمكنه إصلاح أمورها، واتخذ النظام العسكري الإداري العثماني في مصر نموذجا له[٧٥]، ماعدا نظام الملكية الإقطاعية الصغيرة فإنه لم يعمل به، وعهد بمهمة حفظ النظام في الأرياف إلى وحدات عسكرية محلية مشكلة من الأهالي الأصليين[٧٦]، وكان أحد الولاة المشكورة سيرتهم في اليمن، وقد تولى ولاية اليمن مرتين، الأولى ما بين ١٥٤٠-١٥٤٥م، والثانية ما بين ١٥٥٥-١٥٥٦م، وكانت فترة ولايته الأولى أنجح من الثانية؛ فقد عم الهدوء النسبي في اليمن، وخفت حدة الصراع، نوعا ما، بين العثمانيين وآل شرف الدين. وبالرغم من أن أغلب المصادر

---

٧٣ البكلربكية/ Beylerbeylik: كانت عبارة عن وحدة إدارية كبرى في السلطنة العثمانية، يحكمها بكلربكي (والي) ويتبعه عدد من الالوية، ثم استخدمت كلمة إيالة Eyalet بدلا منها لبعض الوحدات، وأخيرا حلت كلمة ولاية Vilayet محل الاثنين. انظر: جانكارلوا كازالي، رياس البحر الهندي عصر الاستكشافات العثمانية، مرجع سابق، ص١٦٨.

٧٤ نيقولا إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، مرجع سابق، ص ١٣٣. النهروالي، المصدر نفسه، ص ٩٤.

٧٥ منذ دخول العثمانيين اليمن سنة ١٥٣٨م كان جهاز الدولة المحلي فيها تابعا لمصر إداريا، وفي عام ١٥٤٥م فصلت كل سناجق اليمن عن مصر، وأعيد تنظيمها كولاية مستقلة أو بكلربكية، وكان ذلك جزءا من صلاحيات الصدر الأعظم آنذاك رستم باشا التي استهدفت تعزيز سلطة الحكومة المركزية آنذاك. انظر: جانكارلوا كازالي، رياس البحر الهندي عصر الاستكشافات العثمانية، مرجع سابق، ص١٦٨.

٧٦ نيقولاي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، مرجع السابق، ص١٣٣.

أشارت إلى أن فترة حكمه الأولى اتسمت بالهدوء النسبي، فإننا نجد فيها حدوث بعض الأعمال الحربية الصغيرة ضد البرتغاليين، بالإضافة إلى مناوشات بسيطة بينه وبين آل شرف الدين.

دخل الباشا مصطفى في صراع مباشر مع البرتغاليين؛ نتيجة لاستنجاد مسلمي الحبشة به، بعد أن لحقهم الضرر بسبب وصول البرتغاليين إلى الحبشة، وتحالفهم مع ملكها المسيحي ضدهم، الأمر الذي جعلهم يطلبون المساعدة من النشار؛ كونه ممثل الدولة العثمانية في اليمن التي تعد القوة الإسلامية الأبرز في المنطقة آنذاك[٧٧]، وقد استجاب الباشا مصطفى لذلك الطلب، وأرسل قوة عسكرية تتراوح ما بين ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ جندي مع المدافع والبنادق الحديثة كمساعدة لزعيم الحبشة المسلم أحمد بن إبراهيم جران الذي تمكن بفضل تلك المساعدة من الصمود أمام قوات ملك الحبشة المتحالفة مع البرتغاليين، وأوقع الهزيمة بهم، وقد كان لهذا النصر أثره الكبير في تنبيه العثمانيين إلى ضرورة الاهتمام بالسواحل الإفريقية للبحر الأحمر وتحصينها من هجمات البرتغاليين[٧٨]، خصوصا بعد معرفة مخطط البرتغاليين الواسع الذي يهدف إلى الاستيلاء على المياه الإقليمية وتحويل طرق التجارة العالمية[٧٩].

وقد رسم الوالي العثماني مصطفى باشا النشار سياسة مضادة للتوسع البرتغالي، تركزت على تطهير السواحل العربية الجنوبية من البرتغاليين، وإغلاق البحر الأحمر ومنع السفن البرتغالية من الإبحار فيه، كما عمل على قطع الاتصال

---

[٧٧] محروس، ولاية مصطفى باشا النشار على اليمن وآثارها ١٥٥١-١٥٥٨م، مرجع سابق، ص٣١٦-٣١٧.

[٧٨] للمزيد انظر: سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص١٧٤.

[٧٩] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص١٧٤.

بين البرتغاليين والأحباش ما أمكنه ذلك، وشكّل قوة عسكرية عثمانية مهمتها أن تجوب بانتظام في البحر الأحمر للاستطلاع ومنع أي تقدم برتغالي محتمل نحو الداخل[٨٠].

أما بالنسبة للزيدية ممثلة بدولة آل شرف الدين؛ فقد حدثت مناوشات بينهم وبين العثمانيين أيام ولاية مصطفى باشا النشار بالقرب من جازان[٨١]، وذلك بعد أن استولى عليها مجموعة من العساكر العثمانيين سنة ٩٥٠هـ/١٥٤٣م، وما إن بلغ الخبر إلى عز الدين بن الإمام شرف الدين حتى خرج إليهم من صعدة، وجرت حرب بين الفريقين لم يظفر فيها أحد على الآخر، ثم عاد عز الدين إلى صعدة[٨٢].

كما حدثت حرب بين الفريقين في منطقة لعُسان[٨٣] سنة ٩٥١هـ / ١٥٤٤م، وذلك بعد أن خرجت مجموعة من العساكر العثمانيين بقيادة حسن البهلوان باتجاه صنعاء عن طريق سهام[٨٤]، فأرسل الإمام شرف الدين لصدهم أولاده مع مجموعة من العسكر، ووقع بين الفريقين مناوشات انهزم على إثرها العثمانيين وقتل عدد منهم[٨٥].

---

[٨٠] محروس، ولاية مصطفى باشا النشار على اليمن وآثارها ١٥٥١–١٥٥٨م، مرجع سابق، ص٣١٦–٣١٧.

[٨١] جازان/ جيزان: منطقة واسعة تقع جنوب غرب المملكة العربية السعودية حاليا، تطل على البحر الأحمر، كانت تعرف في السابق بمخلاف حكم، ومخلاف عثر، إلى أن وحدهما الأمير سليمان بن طرف في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري تحت مسمى المخلاف السليماني، واستمر ذلك الاسم حتى عهد الملك عبد العزيز آل سعود، ثم دمجت ضمن كيان المملكة العربية السعودية. انظر: دلال، عبد الواحد محمد راغب، البيان في تاريخ جازان وعسير ونجران، دار التعاون للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ج١، ص١٨.

[٨٢] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٦٨٨.

[٨٣] لعسان: بكسر فسكون ففتح، البطائح والأماكن الواقعة بين باجل وسهام وبرع وحراز. انظر: المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج٢، ص١٣٧٤.

[٨٤] واد مشهور من أودية تهامة، يقع ما بين وادي سردد في الشمال، وزبيد في الجنوب، يصب في البحر الأحمر جنوب مدينة الحديدة. انظر: الشيبة، عبد الله حسن، الموسوعة اليمنية، مادة سهام، مطبوعات مؤسسة العفيف، صنعاء، ط٢، ٢٠٠٣م، ج٣، ص١٦٣٢.

[٨٥] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص 690-689.

عانت دولة آل شرف الدين في فترة ولاية مصطفى باشا النشار الأولى لليمن من ضعف وتراجع كبيرين، وذلك بسبب خطأين ارتكبهما الإمام شرف الدين، ساهما بشكل مباشر في إضعاف دولته وتمزقها. تمثل الأول في قيامه بتقسيم ممتلكاته بين أبنائه بحجة ضعف صحته وكبر سنه، وقد أدى هذا التقسيم إلى إضعاف سلطته وتفككها، كما نتج عنه تنافس الإخوة على الحكم الأمر الذي أثار الخلاف والصراع فيما بينهم. أما الخطأ الثاني؛ فيتمثل في قيامه بتقليد ولاية العهد لابنه علي، واستبعاد ابنه الأكبر المطهر بحجة أن (علي) أكثر علما وأفضل خلقا من (المطهر) الذي كان يعاني من إعاقة في إحدى قدميه، الأمر الذي جعل المطهر يخرج عن طاعة أبيه، ويتحالف مع العثمانيين مسببا شرخا كبيرا في جبهة آل شرف الدين[٨٦].

وبالرغم من أن الأحداث التي حدثت أثناء فترة ولاية مصطفى باشا النشار الأولى (١٥٤٠-١٥٤٥م) لم تكن ذات مدى كبير؛ فإنها كانت كفيلة بلفت انتباه الدولة العثمانية بأهمية بلاد اليمن، وأنه يحتاج إلى اهتمام كبير؛ كون الخطر محدقا به من الداخل والخارج على حد وصف المصادر العثمانية، وهذا ما دفع بالسلطان سليمان القانوني إلى تعيين أويس باشا واليا جديدا على اليمن، وإرساله مع مجموعة كبيرة من الجنود والقادة العسكريين حاملين معهم ترسانة ضخمة من الأسلحة الحديثة والمدفعية.

---

[٨٦] للمزيد انظر: سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص٧٧.

وقد عُزل مصطفى باشا النشار عن ولاية اليمن للمرة الأولى سنة ٩٥٢هـ الموافق ١٥٤٥م[٨٧]، بعد أن استمرت فترة ولايته خمس سنوات، عمل فيها ما بوسعه في سبيل استقرار الأوضاع في الولاية، ليعود بعد ذلك إلى عمله السابق كأمير للحاج المصري.

حملة مصطفى باشا النشار على اليمن (٩٥٨هـ/ ١٥٥١م):

أخذ الصراع العثماني الزيدي منذ دخول العثمانيين اليمن أشكالا مختلفة ومتعددة من السلم والحرب[٨٨]، وكان كل من الطرفين يحاول الاستفادة قدر الإمكان من عثرات الآخر، فالعثمانيون استفادوا من الخلافات الداخلية التي نشبت بين أبناء شرف الدين ووظفوها لصالحهم، كما استفادوا من دعم الطائفة الإسماعيلية في اليمن؛ لأنها كانت على عدم توافق مع الإمام شرف الدين، أما الإمام شرف الدين فقد استفاد، هو وأبناؤه من بعده خصوصا المطهر، من الخلافات والصراعات التي كانت تنشب بين الولاة والقادة العثمانيين.

تُشير المصادر الى أن السبب الرئيس لحملة مصطفى باشا النشار على اليمن عام ١٥٥١م كان طلب والي اليمن آنذاك أوزدمير باشا من السلطان العثماني سليمان القانوني إرسال مدد عسكري لضبط الأمور في اليمن؛ كون الجيش العثماني الذي كان متواجدا في اليمن آنذاك قد توزع في أقاليم اليمن المختلفة بعد توسع رقعة

---

[٨٧] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص ٩٤.

[٨٨] للمزيد عن الصراع العثماني الزيدي في اليمن انظر: ١- باش ترك، سعد الدين، الصراع الزيدي -العثماني في اليمن "الأسباب والنتائج"، مجلة أبحاث الشرق الأوسط، جامعة الفرات، العدد ١، المجلد ٤، الأزيغ، ٢٠١٣م، الصفحات ١١-٢١. المقال باللغة التركية. ٢- الأكوع، القاضي إسماعيل بن علي، أسرار مقاومة اليمن للحكم العثماني، ورقة مقدمة إلى المؤتمر العالمي الرابع للدراسات العثمانية، زاغوان — تونس، ٢٦-٣٠ يناير ١٩٩٠م.

السيطرة العثمانية، والاستيلاء على كثير من المناطق أيام ولاية أويس باشا وأوزدمير باشا، إضافة إلى تزايد خسائر العثمانيين البشرية والمادية نتيجة لحروبهم المستمرة مع المطهر بن شرف الدين[٨٩]، وما إن وصل عرض الوالي أوزدمير باشا إلى إسطنبول حتى أصدر السلطان سليمان القانوني مرسوما سلطانيا إلى والي مصر آنذاك داوود باشا يقضي بتجهيز ٣٠٠٠ من المشاة و١٠٠٠ فارس مع أسلحتهم لإرسالهم إلى اليمن. وبحكم قرب مصطفى باشا النشار من داوود باشا وخبرته باليمن وأحوالها عيّنه قائدا للحملة، وأعطاه الحكم السلطاني، ورسالة من السلطان إلى المطهر بن شرف الدين[٩٠].

جهز الباشا مصطفى العسكر وأرسلهم على دفعات إلى اليمن، بينما خرج هو من مصر أميرا للحاج المصري كعادته، وبعد أن أدى مناسك الحج سنة ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م توجه إلى اليمن لأداء المهمة الموكلة إليه بعد أن كلف الأمير مراد بك ليعود بالحاج المصري. وقد وصل إلى اليمن في سنة٩٥٨هـ / ١٥٥١م[٩١] بصلاحيات كبيرة، منحه إياها داوود باشا؛ لغرض تعزيز السيادة العثمانية وتحقيق الاستقرار والهدوء في ولاية اليمن، وكان من ضمن الصلاحيات الممنوحة له حرية التفاوض المباشر مع المطهر دون الرجوع إلى أوزدمير باشا، الأمر الذي أدى إلى تصدع العلاقة بينهما؛ فيتطور الأمر إلى نشوب خلاف أفضى إلى فشلهم في تحقيق أهدافهم[٩٢].

---

[٨٩] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص ٢٠٠.

[٩٠] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص ١٠٧. ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٣٨٤.

[٩١] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص ١٠٧.

[٩٢] الأمير، أمة الغفور عبد الرحمن، خطاب السلطان سليمان القانوني إلى المطهر بن شرف الدين في اليمن ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م وجواب المطهر، ورقة بحث مقدمة للمؤتمر الدولي (اليمن في العهد العثماني الأول) جامعة أوشاك تركيا، منشورات جامعة ٩ أيلول-ازمير-تركيا، ٢٠١٦م، ص١٣٦. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص ٢٠١.

وصل مصطفى باشا النشار إلى زبيد ومنها إلى تعز، وفور وصوله تعز أرسل إلى المطهر بن شرف الدين برسالة السلطان سليمان القانوني التي سلمه إياها داوود باشا، وبعث معها رسالة منه شخصيا، يطلب من المطهر إرسال جماعة من أصحابه ليودعهم ما أودعه السلطان، فأرسل المطهر إليه الأمير الحسين بن محمد من بني الهادي، والفقيه صلاح بن داعر، وأرسل معهم جوابه على خطاب السلطان سليمان القانوني، وجوابا آخر على خطاب الباشا مصطفى[٩٣].

استقبل الباشا مصطفى رُسل المطهر بالإكرام والاحترام وسعى إلى حل الخلاف بالطرق السلمية لما من شأنه أن يؤدي إلى هدوء الاضطرابات، وأرسل الباشا مصطفى مع رُسل المطهر رجلا يُدعى الشيخ أحمد عثمان العمودي؛ لغرض التأكد ومعرفة طاعة المطهر للسلطان العثماني من عدمها، لكن أوزدمير باشا حال دون ذلك، ومنع العمودي من الوصول إلى المطهر، واعتبر ذلك تعديا على صلاحياته وعملا غير مرغوب فيه من قبل مصطفى باشا النشار[٩٤].

وبالعودة إلى مضمون خطاب السلطان سليمان القانوني إلى المطهر[٩٥]، نجد أنه يحمل في طياته المزج بين الترغيب والترهيب؛ فقد دعا المطهر إلى طاعة الدولة العثمانية، وذكّره بفضلها في دحر البرتغاليين الغزاة على حد تعبيره، كما أطلق على المطهر بعض الألقاب مثل: "نسل السلالة الهاشمية- الشجرة الزكية"، ولعله كان يقصد من ذلك استمالته للجنوح والخضوع للطاعة دون الدخول في صراع مسلح معه، كما ذكّره بقوة وعظمة الدولة العثمانية وإمكانياتها العسكرية كنوع من أنوع

---

[٩٣] يحي بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٠٨.

[٩٤] يحي بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٠٨-٧٠٩.

[٩٥] للمزيد عن خطاب السلطان سليمان القانوني إلى المطهر وجواب المطهر عليه، انظر: الأمير، خطاب السلطان سليمان القانوني إلى المطهر بن شرف الدين في اليمن ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م وجواب المطهر، مرجع سابق، ١٤٠-١٤٥.

الترهيب، واختتم خطابه بقوله: " وإن تكبرت واستأنفت أتيناك بجنود لا قبل لك بها، وأخرجناك من حكمك ذليلا وأخذناك أخذا وبيلا"[٩٦]. أما جواب المطهر فهو الآخر كان ردا سياسيا بامتياز، عكس المستوى العالي من الحنكة السياسية التي يتمتع بها، ففي البداية بالغ في مدح السلطان، واعتبره ظل الله في الأرض، واعترف في مضمون كتابه بالولاء والطاعة له مشيرا إلى وجوب تحري الدقة في كل ما ينقل إليه من أخبار، كما حمل جواب المطهر عتابا على الولاة والجنود العثمانيين في اليمن لمحاربتهم له في مناطق نفوذه، وأبدى استياءه من استخدام العثمانيين الأسلحة الحديثة ضد اليمنيين، موضحا أن مواجهته للعثمانيين والتصدي لهم ليس إلا من باب الدفاع عن النفس[٩٧].

وكيفما كان الأمر؛ فقد نجح الوالي أوزدمير باشا في جر مصطفى باشا النشار إلى الصدام مع المطهر بعد أن تمكن من إقناعه أن الأخير لا يمسك وعدا ولا عهدا، وخرج الباشا مصطفى من تعز متجها نحو الشمال صوب صنعاء[٩٨]، والتقى مع الوالي أوزدمير باشا في ذمار، وتقدما مع بعض لمحاصرة المطهر في ثلا[٩٩] وكوكبان، ومن صنعاء اتجهوا إلى المنقب[١٠٠] الذي وصلوا إليه في محرم سنة

---

[٩٦] الأمير، المرجع نفسه، ص ١٤٤.

[٩٧] الأمير، المرجع نفسه، ص١٤٥.

[٩٨] للمزيد من الدراسات المستقلة عن مدينة صنعاء وتاريخها انظر: الرازي– تاريخ مدينة صنعاء. الحداد، عبد الله عبد السلام، صنعاء تاريخها ومنازلها الأثرية، دار آلافاق العربية، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.

[٩٩] ثلا: قديما كانت تنطق بضم الثاء وحاليا بكسرها، مدينة وحصن بالشمال الغربي من مدينة صنعاء يبعد عنها حوالي٤٥ كيلومترا، سميت نسبة إلى ثُلا بن لُباخة بن أقيان بن حمير، اشتهرت كمدينة للعلم والعلماء، يحتضنها من جهة الغرب حصنها الشاهق الذي يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر بحدود ٣٠٠٠ متر، ويشتهر بمناعته وارتفاعه، ويتم الطلوع إليه عبر طريق مدرجة مبنية من الحجر أو منحوتة في أصل الجبل. اتخذه المطهر مقرا ومركزا له أثناء صراعه مع العثمانيين، فلم يستطيعوا الوصول إليه والسيطرة عليه بالقوة بالرغم من محاولاتهم الكثيرة والمستميتة. حاليا ثلا مديرية تتبع محافظة عمران، بعد أن كانت سابقا تابعة لمحافظة صنعاء. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص٢٥٨-٢٥٩.

[١٠٠] المنقب: بضم الميم وفتح النون وتشديد القاف، إحدى القرى التابعة لمديرية همدان محافظة صنعاء، وهي بلدة في عرض جبل أسود أصم، وفي أسفل الجبل قاع فسيح يقال له (قاع المنقب) يمتد من شرقي مدينة شبام كوكبان إلى أسفل مدينة ثلا. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج٢، ص١٦٦١.

٩٥٩هـ / ديسمبر ١٥٥٢م[١٠١]، ووصل الأتراك إلى ثلا، وحاصروا حصنها المنيع، وحدثت مناوشات بين الفريقين قتل على إثرها عدد من جنود المطهر[١٠٢]، لكن سرعان ما نشب الخلاف بين القائدين العثمانيين بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الحصن، وينتهي الأمر بعقد صلح مع المطهر[١٠٣].

وبعد عقد الصلح عاد مصطفى باشا النشار إلى إسطنبول، بينما أوزدمير باشا ذهب لإكمال السيطرة على بعض المناطق في اليمن الأسفل والتهائم. أما المطهر فركز جهوده لاستعادة نفوذه على بعض المناطق التي كانت قد خرجت عن سيطرته أثناء صراعه مع العثمانيين[١٠٤]. وتذكر بعض المصادر أن مصطفى باشا النشار عند عودته إلى إسطنبول عرض للمطهر عند السلطان عرضا قويا نفى فيه خروجه وعصيانه على الدولة العثمانية[١٠٥].

وكيفما كان الأمر؛ فإن حملة مصطفى باشا النشار على اليمن عام ١٥٥١م فشلت في أداء ما أوكل إليها، وقد أرجع المؤرخون ذلك الفشل إلى صمود اليمنيين وقدرتهم على الحرب وتحمل المشاق، وقد ساعدهم في ذلك تضاريس اليمن الجبلية الوعرة التي يصعب اختراقها في كثير من الأحيان[١٠٦]، كما أن ما قام به الباشا

---

[١٠١] يحي بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٠٨-٧٠٩.

[١٠٢] يوجد وثيقة عثمانية محفوظة في الأرشيف العثماني تعود إلى ٢٧ رجب سنة ٩٥٩هـ الموافق ١٩ تموز/ يوليو١٥٥٢م تتحدث عن فتح مصطفى باشا لقلعة "تولة". ومن خلال سياق معلومات الوثيقة فإن المقصود بها "ثلا" أو أحد القلاع المحيطة بها كونها وصفت حصانة ومناعة القلعة والأسوار المحيطة بها وصفا لا يكاد ينطبق إلا على ثلا. كما تحتوي الوثيقة على التوجيه بتكريم الجنود والقادة العسكريين ومنحهم مخصصات مالية لقاء ما قاموا به من مهام عظيمة. الأرشيف العثماني، طوب كابي سرايي، دفاتر المهمة ٣٣٣، ص٣٢٠أ. تم الاطلاع على الوثيقة من كتاب بيات، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، ج٢، ص٢٨٩-٢٩٢. نقلا عن الأرشيف.

[١٠٣] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص ١٠٧-١٠٨. حول الصلح انظر: القسم الخاص بأوزدمير باشا وعلاقته مع المطهر.

[١٠٤] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧١٢.

[١٠٥] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص ١٠٨.

[١٠٦] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص٢٠٤. للمزيد حول مقاومة اليمنيين للعثمانيين في القرن السادس عشر، ودور الطبيعة الجغرافية والبشرية لليمن في تصعيب الوضع على العثمانيين انظر: نصر، علي أحمد، المقاومة اليمنية ضد العثمانيين في القرن

مصطفى من تجاهل لأوزدمير باشا- والي اليمن آنذاك- في كثير من الأمور وعلى رأسها اتصاله بالمطهر دون الرجوع إليه والتشاور معه كان خطأ إستراتيجيا أدى في النهاية إلى فشل حملته، وحال بينها وبين ما رُسم لها من أهداف، وأخيرا، فلا يمكن إغفال دور المطهر وقوة شخصيته وبراعته السياسية والحربية التي جعلته يظهر ندا للعثمانيين في تلك الفترة التي كان يعاني فيها.

ولاية مصطفى باشا النشار للمرة الثانية على اليمن ١٥٥٥-١٥٥٦م:

تقلد مصطفى باشا النشار ولايته الثانية لليمن بعد عزل أوزدمير باشا عنها، وتذكر المصادر أن أوزدمير باشا طلب عزله بنفسه، بعد أن بلغه أن الباشا مصطفى يريد ولاية اليمن ويسعى لذلك في إسطنبول[١٠٧]. وبما أنه كان لدى السلطات العثمانية ميول إلى الحلول السلمية في اليمن، نظرا للخسائر البشرية والمالية التي تكبدها العثمانيون في فترة الولاة السابقين، خصوصا في فترة ولاية أويس باشا وأوزدمير باشا؛ فقد وافقوا على طلب الباشا مصطفى بعد ادعاءاته بأنه أقدر على التعامل مع الوضع في اليمن بحكم خبرته السابقة فيه[١٠٨].

بعد أن عُزل أوزدمير باشا بناء على طلبه ولي مكانه مصطفى باشا النشار، وقد وصل إلى مكة في موسم الحج سنة ٩٦٢هـ/١٥٥٥م أميرا للحاج المصري كعادته[١٠٩]. وبعد أداء فريضة الحج ذهب برا إلى اليمن ودخل زبيد في ٢٠ صفر

السادس عشر الميلادي دراسة تاريخية في الأسباب، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية – المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، غزة، العدد الخامس، المجلد الثالث، مايو ٢٠١٩م، ص٤٩-٦١.

[١٠٧] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص ١١٨.

[١٠٨] للمزيد انظر: سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص ٢١٠.

[١٠٩] الضمدي، عبد الله بن علي ت بعد ١٠٦٨هـ، العقيق اليماني في حوادث ووفيات المخلاف السليماني، مخطوط موجود في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء تحت رقم ٧١/٠، وموجوده كذلك في مكتبة جامعة الملك سعود- قسم المخطوطات- تحت رقم ٧٧٠٨ق ٢٠/١٤٨٨، ص٢٤٦.

سنة٩٦٣هـ/١٥٥٥م ، وتم استقباله بحفاوة وترحيب، وأقام في زبيد عدة أيام، ثم ذهب إلى تعز ولم يطل به المقام فيها، فبعد حوالي خمسة أشهر من وصوله تعز اعتراه مرض؛ فقرر النزول إلى زبيد، وفيها اشتد به المرض الذي أدى إلى وفاته في العاشر من شعبان سنة ٩٦٣هـ/١٥٥٥م، وهي السنة نفسها التي وصل فيها إلى اليمن[١١٠]. وقد شُهد له بأنه كان يعامل اليمنيين بالعدل والإنصاف، وكان أحد الولاة المشكورين عند أهل اليمن[١١١].

وبعد وفاته قام بالأمر - بناء على وصية منه - أحد الأمراء يُدعى سليمان، كان يشغل منصب دفتر دار[١١٢] زبيد، ولم يستقم الأمر للأمير سليمان، حيث عارضه كاشف تعز آنذاك أرمزة بن نصوح، ومنعه من التصرف في شؤون البلاد، وكان أرمزة، كما وصفه المؤرخون، صاحب دهاية وإقدام لا تسمح نفسه بالرئاسة لغيره[١١٣]، وقد بقي أميرا على تعز وأعمالها حتى قدم الوالي الجديد مصطفى شاهين الذي خلف النشار في ولاية اليمن[١١٤].

وعلى كل حال؛ فإن فترة ولاية مصطفى باشا النشار الثانية على اليمن لم تدم أكثر من ستة أشهر[١١٥]، وإذا كان قد نجح في ولايته الأولى لليمن؛ فإنه لم يحقق

---

[١١٠] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص٣٣. (يذكر ابن داعر في مخطوطه الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية أن مصطفى باشا النشار توفي في الجند وحُمل ميتا إلى زبيد ودفن بها في مدرسته المعروفة سنة ٩٦٤هـ. (ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٣٨٨.)

[١١١] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص١٢١.

[١١٢] الدفتر دار: من الوظائف المرموقة في الدولة العثمانية وتعني المسؤول المالي، وهو لا شك يتمتع بصلاحيات كبيرة تلي صلاحيات الوالي مباشرة، ووظيفة الدفتر دار في مركز الدولة تعادل وزير المالية في الوقت الحالي.

[١١٣] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص٣٣.

[١١٤] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧١٧.

[١١٥] يُذكر أن الصدر الأعظم آنذاك رستم باشا كان وراء عزل مصطفى باشا النشار، نكاية بوالي مصر آنذاك داوود باشا، لأن مصطفى باشا كان مقربا منه، وسبق أن عمل على تعيينه واليا على اليمن. انظر: جانكارلوا كازالي، رياس البحر الهندي عصر الاستكشافات العثمانية، مرجع سابق، ص١٦٨.

شيئا يذكر في ولايته الثانية، وقد يعود ذلك إلى قصر الفترة التي قضاها، ومجمل ما حدث في تلك الفترة هو نشوب بعض الاضطرابات بين صفوف الجنود والأمراء العثمانيين وتمرد جنود حامية صنعاء على أميرهم حاكم المدينة ومحاولة قتله. وأخيرا فمن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن فترة ولاية مصطفى باشا النشار الثانية كانت خاتمة لمرحلة مهمة وقوية من مراحل الوجود العثماني في اليمن؛ كون الذي تولى حكم اليمن بعد ذلك- لما يقارب عقد من الزمن- عدد من الولاة الضعفاء، استغلوا نفوذهم في اليمن لتحقيق مصالحهم الخاصة[١١٦].

أعمال مصطفى باشا النشار في اليمن:

لمصطفى باشا النشار أعمال ومآثر أهمها: قيامه بإنشاء وتأسيس محمل للحاج اليمني[١١٧]، مثله مثل محمل الحاج المصري والشامي، وعيّن له أميرا وقاضيا، وخصص له أموالا كانت تصرف من الخزانة السلطانية في ولاية اليمن، وقد ساعده في ذلك خبرته السابقة؛ كونه كان أميرا لمحمل الحاج المصري لسنوات عديدة[١١٨]. ومن مآثره أيضا في اليمن مدرسة تقع شرق مدينة زبيد ما تزال عامرة، ومدرسة أخرى كانت بالقرب من باب السبح في صنعاء لم يبق لها أثر[١١٩].

---

[١١٦] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص٢١٩-٢٢١.

[١١٧] محمل الحاج:

[١١٨] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص١٢٢.

[١١٩] الثور، أمة الملك إسماعيل قاسم، الولاة العثمانيون وأبرز أعمالهم الإنشائية في فترتي الحكم العثماني الأول والثاني لليمن (٩٤٥-١٠٤٥هـ / ١٥٣٨-١٦٣٥م، ١٢٨٩-١٣٣٦هـ / ١٨٧٢-١٩١٨م)، الرياض، مجلة جامعة الملك سعود، العدد ٢٢، السياحة والآثار(٢)، ٢٠١٠م، ص١٢٧.

أويس باشا ١٥٤٦-١٥٤٧م:

هو أويس بن سليم بن أبي يزيد[١٢٠]، أحد مماليك السلطان سليم الأول، عمل في خدمته طويلا وترقى في المناصب إلى أن ولي ولاية اليمن[١٢١]. وقد استفاد أويس باشا من نفوذ أخيه الذي كان يشغل منصب والي ديار بكر أيام السلطان سليم[١٢٢]. تقلد ولاية اليمن بعد عزل مصطفى باشا النشار، ووصل إليها في جنود عظيمة وكثيفة ومدافع وأسلحة[١٢٣]، وكانت أولى محطاته مدينة زبيد التي استقر فيها فترة بسيطة قبل أن يتوجه إلى المناطق الجبلية للاستيلاء عليها وتقويض نفوذ الإمام شرف الدين الذي كان قد بسط نفوذه على أغلب مناطق اليمن، واستقل بها وعمل على تحصين قلاعها وحصونها لصد أي هجوم محتمل من العثمانيين.

وقد استفاد أويس باشا من الخلاف الذي حدث بين المطهر وأبيه الإمام شرف الدين في تلك الفترة بسبب قيام الأخير بتنصيب ابنه علي وليا للعهد وتقديمه على جميع أولاده بما فيهم المطهر[١٢٤]، الأمر الذي دفع بالمطهر إلى مراسلة أويس باشا فور وصوله إلى اليمن، وحثه وشجعه وطمعه في التقدم إلى المناطق الجبلية والسيطرة عليها، ووعده بمناصرته ومساعدته بالمال والرجال[١٢٥]، وقد سُر أويس باشا

---

[١٢٠] الكبسي، محمد بن إسماعيل، اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، تحقيق: خالد الأذرعي، صنعاء، مكتبة الجيل الجديد، ط١، ٢٠٠٥م، ص٢٤٠.

[١٢١] عاطف باشا، تاريخ اليمن، مطبعة منظومة آلافكار (دار سعادة)، إسطنبول، ١٣٢٦م، ج١، ص٥٣. الكتاب باللغة العثمانية.

[١٢٢] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٣٧٩. النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص٩٥.

[١٢٣] ابن داعر، الفتوحات المرادية، ، مصدر سابق، ص٣٧٩.

[١٢٤] يُذكرأن سبب عدم اختيار الإمام شرف الدين لابنه المطهر وليا للعهد هو وجود تشوه خُلقي في إحدى قدميه، بالإضافة إلى أنه كان اقل علما من أخيه علي، وهذا بدوره ينافي شروط الزيدية فيمن يتولى منصب الإمامة، كونها تشترط في تولى الإمامة مجموعة من الشروط من بينها ألا يكون ذا عاهة بدنية ولا جاهلا بالأمور الدينية. للمزيد انظر: النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص٩٥.

[١٢٥] الحداد، محمد يحيى التاريخ العام لليمن (التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي منذ بداية تاريخ اليمن القديم وحتى العصر الراهن)، منشورات المدينة، ط١، ١٩٨٦م، ج٤، ص٤٢-٤٤.

لمراسلة المطهر، واستجاب له وعدها فرصة يجب ألّا تفوته، وجهز ما يلزمه من الجند والسلاح وتحرك صوب تعز في فبراير سنة ١٥٤٦م، وكان يحكمها آنذاك أمير يتبع الإمام شرف الدين يُقال له النصيري، فما إن علم النصيري بتحرك أويس باشا باتجاه تعز حتى عزز تحصيناتها، وقام ببناء سور منيع عليها، واستعد بمن معه من الجنود للمواجهة.

أبدى النصيري مع أتباعه ثباتا منقطع النضير، واستماتوا في حماية مدينة تعز، لكن القوة العثمانية التي كانت مزودة بأسلحة حديثة لم يعرفها اليمنيون آنذاك تمكنت من الاستيلاء على تعز بعد قتال وحصار دام لأيام، قتل فيه مجموعة من أتباع الإمام شرف الدين، بينما تمكنت مجموعة أخرى من الهروب إلى القلعة[١٢٦]، وقاوموا العثمانيين عدة أيام أخر، لكن الجيش العثماني ضرب القلعة بالمدافع، وهدم أجزاء كثيرة منها، الأمر الذي أجبرهم على الاستسلام، وبالاستيلاء على القلعة سقطت مدينة تعز بالكامل في أيدي العثمانيين في يوم النحر[١٢٧] سنة ٩٥٣هـ الموافق ١٥٤٦م[١٢٨].

بعد أن أحكم أويس باشا سيطرته على تعز، قرر التوسع في أقاليم اليمن الأعلى والسيطرة على صنعاء، وأخذها من يد آل شرف الدين، ويبدو أنه لم يكن يراهن كثيرا على وعود المطهر له بالنصر والمساعدة، والدليل على ذلك التحرك الذي انتهجه نحو الشمال، فلم يستعجل بالذهاب بناء على طلب المطهر؛ بل عمل

---

١٢٦ قلعة القاهرة: قلعة حصينة تُشرف على مدينة تعز، يرجع عمرانها إلى القرن الخامس الهجري، قيل أن من بناها هو الأمير عبد الله بن محمد الصليحي، وقد لعبت دورا مهما على مر التاريخ في حماية مدينة تعز، وكان من يسيطر عليها يتحكم في مدينة تعز بسهولة. انظر: المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج٢، ص١٢٤٢.

١٢٧ يوم النحر: اليوم الذي يسبق يوم عيد الأضحى.

١٢٨ ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٣٧٩.

على تثبيت الحكم في تعز والمناطق الجنوبية أولا، وبعدها تحرك نحو الشمال ضمن إستراتيجية خاصة به. وقد اتجه إلى شمال اليمن عن طريق تعز – قعطبة– ذمار، وسلك طريق وادي خبان[١٢٩] نظرا لسهولته مقارنة بالطرق الأخرى[١٣٠]، وعند وصوله إلى وادي خبان قرر مجموعة بقيادة شخص يدعى حسن البهلوان[١٣١] اغتياله، وأضمروا ذلك، واتفقوا أن يهجموا عليه في حالة سكره ليقتلوه، ويتولى حسن البهلوان بدلا عنه، وعندما نزل الوادي أعجبه جمال طبيعته؛ فأمر بنصب مجلس للشراب، وبعد سكرته الشديدة كما يصفها النهروالي نام؛ فدخل عليه حسن البهلوان وقتله في خيمته في أواخر ربيع الآخر سنة ٩٥٤هـ الموافق ١٥٤٧م[١٣٢].

يوجد اختلاف بين المؤرخين حول ملابسات مقتل الوالي أويس باشا، وتختلف رواياتهم حسب ميول وتبعية كل منهم؛ فالمؤرخ يحيى بن الحسين يذكر أنه قُتل بتواطؤ من العثمانيين أنفسهم، وعلى رأسهم الأمير أوزدمير باشا أمير أمراء الجيش العثماني الذي يقوده أويس باشا نفسه[١٣٣]، بينما يذكر الموزعي أن مقتله كان على

---

[١٢٩] وادي خبان: وادي مشهور فيه مزارع وقرى وعيون جارية، وبه سميت ناحية خبان من أعمال يريم. انظر: الحجري، محمد بن أحمد، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق: إسماعيل بن علي الأكوع، دار الحكمة اليمانية للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٦م، ج١، ص٣٠٤.

[١٣٠] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص١٨٤.

[١٣١] حسن البهلوان: أحد المماليك الذين كانوا في اليمن قبل مجيء العثمانيين، وبعد دخول العثمانيين اليمن دخل في خدمتهم، وهو من الأشخاص الذين أقرهم سليمان باشا الخادم في زبيد بعد مقتل الناخوذة أحمد، ويُذكر أنه كان ذا تحامل كبير على الإمام شرف الدين وأولاده. ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٣٨١. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ١٨٦.

[١٣٢] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص٩٦–٧٩. يذكر عاطف باشا في مصنفه (يمن تاريخي) ما يفيد "أن من قام بقتل أويس باشا هو الأمير حيدر، أحد الأمراء الباقين من الجراكسة في زبيد" وهذا يخالف جمهور المؤرخين الذين أجمعوا أن حسن البهلوان هو من قام بقتله، وقد اعتمدنا على رواية النهروالي، لأنها أقرب إلى الصحة والى السياق التاريخي، كون أويس باشا قتل في ذمار وعند مقتله كان حيدر باشا متواجدا في زبيد حينها. عاطف باشا، تاريخ اليمن، مصدر سابق، ج١، ص٥٣.

[١٣٣] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٦٩٨.

يد مجموعة من أهل اليمن الأعلى/الشمالي انضمت للجيش العثماني، وكانوا على تواصل مع الأمير مصطفى بن شرف الدين[١٣٤].

ويرى البعض- وهو الأرجح برأينا- أن سبب مقتل أويس باشا هو سياسته القاسية التي انتهجها؛ فعمقت الخلاف بينه وبين اليمنيين من جهة، وبينه وبين بقايا المماليك المتواجدين في اليمن من جهة أخرى، ولعل حرمان أويس باشا للمماليك من بعض حقوقهم ولّد لديهم قناعة بضرورة التخلص منه، ومحاولة التخلص من الوجود العثماني ككل، إذا ما علمنا أنه بعد مقتل أويس باشا مباشرة حدث تمرد في زبيد؛ قام به بعض بقايا المماليك هناك[١٣٥].

وكيفما كان الأمر؛ فقد حدث ارتباك كبير في صفوف العثمانيين بعد مقتل الوالي أويس باشا، كما أحدث مقتله فراغا سياسيا كاد أن يصل إلى مآلات خطيرة، لولا براعة الأمير أوزدمير وحنكته الحربية والسياسية التي مكنته من سد الفراغ السياسي وضبط أمور الجند، ولم يقف الأمر عند ذلك فقط؛ بل قرر مواصلة السير نحو صنعاء لإكمال الخطة التي بدأها أويس باشا، ونجح باقتدار في بسط السيطرة والتحكم في الوضع، وأخمد تمردا لبقايا المماليك في زبيد تزامنا مع تلك الأحداث. ولا شك في أن ما قام به أوزدمير قد جعله يحظى بالتقدير الكبير لدى البلاط السلطاني في إسطنبول، الأمر الذي ترتب عليه تعيينه واليا على اليمن مكافئة لما صنع.

---

[١٣٤] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص٣٠.

[١٣٥] سالم، الفتح العثماني لليمن، مرجع سابق، ص١٨٧.

أما حسن البهلون فقد تمكن من الهروب مع مجموعة من أتباعه بعد فعلته تلك، لكنه ما لبث أن وقع هو وجماعته في أيدي رجال قبيلة بني غصين[١٣٦]؛ فقتلوه وأرسلوا برأسه إلى المطهر في صنعاء[١٣٧].

اتّبع أويس باشا سياسة اتسمت بالقوة والغلظة في ضبط الأمور، وكان غالبا ما يُضيّق على الناس بشدته، وتشير أغلب المصادر إلى أنه كان محبا لشرب الخمور، ودائما ما يقيم مجالس لها، الأمر الذي ينكره المجتمع اليمني ويجرّمه، ويبدوا لنا أنه كان أحد أسباب مقتله.

وأرجع بعض المؤرخين عدم استغلال أويس باشا للخلاف القائم بين المطهر ووالده إلى تقديره الخاطئ للتهديد الزيدي الذي كان يتزعمه الإمام شرف الدين، واتهمته بعض المصادر بارتكاب أخطاء سياسية على رأسها التورط في خلافات مع عناصر ضمن السلك العثماني، وأعزت ذلك إلى افتقاره للحنكة السياسية والخبرة العسكرية التي نتج عنها تدهور الوضع في اليمن مما أدى إلى مقتله.

وبالرغم من قصر فترة ولاية أويس باشا ١٥٤٦-١٥٤٧م واضطرابها؛ فإنها كانت من أهم الفترات التاريخية للوجود العثماني في اليمن، ففيها دخلت معظم مناطق اليمن تحت السيطرة العثمانية من عدن جنوبا حتى ذمار في الشمال، وقد أرجع أغلب المؤرخين ذلك التوسع وتلك النجاحات إلى استخدام العثمانيين للأسلحة الحديثة المتمثلة في المدفعية والبنادق، والتي لم تكن يومها معروفة لدى اليمنيين.

---

[١٣٦] بنو غصين: تنطق بضم الغين وفتح الصاد وسكون الياء، إحدى العزل التابعة لمديرية عتمة محافظة ذمار، وتقع بالقرب من بلدة سماه وتشتهر بخامات الفضة. انظر: المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج٢، ص١١٧٩.

[١٣٧] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص٣١. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص١٨٦.

فرهاد باشا ١٥٤٧ـ١٥٤٩م:

يلقب بصولق فرهاد ويعني الأعسر، أرسله السلطان سليمان القانوني إلى اليمن قبل وصول خبر مقتل أويس باشا إلى إسطنبول، وقد تم تعيينه واليا على اليمن في أواخر سنة ٩٥٣هـ/١٥٤٦م[١٣٨]، ووصلها في شوال سنة ٩٥٤هـ/١٥٤٧م. وعند وصوله ضبط المناطق التهامية، وأحكم السيطرة عليها، وجهز حملة عسكرية لغرض استعادة عدن بعد أن كانت قد سقطت في يد صاحب خنفر علي بن سليمان البدوي عام ١٥٤٨م[١٣٩] ، الذي كان على تواصل بالبرتغاليين، وسبق له أن طلب منهم المساعدة ضد العثمانيين[١٤٠].

ونظرا لما تمثله عدن من أهمية إستراتيجية للوجود العثماني في اليمن؛ فقد استعان فرهاد باشا بوالي مصر آنذاك داوود باشا لمساعدته في استعادتها؛ فأرسل إليه حملة عسكرية مدربة تدريبا عاليا، وأوكل قيادتها إلى بيري باشا، وبفضل تلك المساعدة تمكن فرهاد باشا من السيطرة على عدن في ١٤ محرم سنة ٩٥٥هـ الموافق ٢٤ فبراير ١٥٤٨م، وأعادها إلى حظيرة الدولة العثمانية وقتل علي بن سليمان البدوي. وتعزو المصادر ذلك النجاح الى الخطة الحربية المُحكمة التي اتبعها فرهاد باشا المتمثلة في محاصرة المدينة من جهتي البر والبحر ووضعها بين فكي كماشة.

---

[١٣٨] يمن سالنامه سي، طبع في مطابع صنعاء، محفوظ في المكتبة الوطنية العامة، إسطنبول، ١٣٠٤هـ، القسم: A.E.Salname، رقم ٥٣٨، ص١٢٧. باللغة العثمانية.

[١٣٩] العبدلي، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، مصدر سابق، ص ٩٩. خنفر: مدينة اكتسبت شهرة تاريخية كبيرة، كانت قائمة في سفح جبل خنفر الواقع وسط سهل أبين بين وادي بنا- بتشديد النون- ووادي حسان. كانت قبل الإسلام مركزا عسكريا يسيطر على مساحات شاسعة، تعرضت على مر التاريخ للخراب والتدمير جراء الحروب التي كانت تقوم بين حين وآخر في سبيل السيطرة على أبين. حاليا قامت في مكان خنفر مدينة جعار، وأصبح اسم خنفر يطلق على مديرية من مديريات محافظة أبين. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص٥٨٣.

[١٤٠] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص١٩٥-١٩٦.

أما في الشمال فقد خرج على العثمانيين صاحب جازان المدعو ابن مهدي وبعض قبائل صبيا[١٤١] الموالية له، فراسله فرهاد باشا، وحذّره من مخاطر الخروج على الدولة العثمانية، لكن تلك المراسلة لم تجدِ معه نفعا؛ فأرسل إليه قوة عسكرية اصطدمت به في (أبو عريش) في شعبان سنة ٩٥٥هـ الموافق أيلول ١٥٤٨م، قتل على إثرها ابن مهدي ومجموعة كبيرة من أتباعه[١٤٢].

تشير المصادر إلى أن فرهاد باشا سلك في أهل اليمن المسلك الحسن، وكانت أيامه من أفضل الأيام وسيرته من أحسن السير في العدل والانتظام[١٤٣]، ووصفه المؤرخون بأنه كان رجلا كاملا عاقلا فاضلا على علم بالأمور الشرعية والأدبية ومطّلعا على التاريخ ومحبا له[١٤٤]، كما كان ذا رأى سديد وتدبير ناجح، ويتصف بالسخاء والكرم[١٤٥]. وبالرغم من أن ولايته لم تتجاوز ثلاث سنوات؛ فإنها كانت مليئة بالأحداث المهمة، ففيها تم استعادة عدن، وتحطيم الحلم البرتغالي بالسيطرة عليها، كما تم إحكام السيطرة على كامل الساحل اليمني الغربي من جازان في الشمال إلى عدن في الجنوب، بالإضافة إلى محاولات التوسع في المنطقة الجبلية[١٤٦].

وقد عُزل فرهاد باشا عن ولاية اليمن سنة ١٥٤٩م، ليس بسبب قصور في إدارته وكفائته الشخصية؛ بل ليتولى بدلا عنه أوزدمير باشا اعترافا بفضله وبجهوده

---

[١٤١] صبيا: من مدن تهامة، ولها أعمال كثيرة، تتبع جازان وتقع شمالهما بنحو ٦٥كم. انظر. الحجري، ج ١، ص٤٦٢.

[١٤٢] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ١٠٢-١٠٤. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مصدر سابق، ص١٩٦.

[١٤٣] النهراوالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص١٠٤.

[١٤٤] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص١٠٤-١٠٢.

[١٤٥] عاطف باشا، تاريخ اليمن، مصدر سابق، ج١، ص٥٤.

[١٤٦] محمود، سيد محمد السيد، تاريخ الدولة العثمانية (النشأة والازدهار) وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م، ص٢٨٤.

التي بذلها في لم شمل القوات العثمانية بعد مقتل الوالي السابق أويس باشا[١٤٧]، وبعد عزله عن اليمن ولي على بغداد، وتوفى فيها في بضعة وستين وتسعمائة من الهجرة[١٤٨].

أوزدمير باشا[١٤٩] ١٥٤٩-١٥٥٤م:

تتفق المصادر على أن أوزدمير باشا جركسي- مملوكي- الأصل دخل في خدمة الدولة العثمانية بعد دخول السلطان سليم الأول مصر عام ١٥١٧م[١٥٠] مقدما خدمات جليلة للدولة العثمانية حتى قيل إنه "لا يوجد جركسي نصح للدولة العثمانية وخدمها مثل أوزدمير باشا"[١٥١].

وقد تنقل بين الوظائف إلى أن أصبح كاشفا بمصر، وكان واحدا من أهم الأمراء المشاركين في حملة سليمان باشا الخادم على اليمن والهند سنة ١٥٣٨م[١٥٢]. اشتهر بشجاعته وحكمته، فكان ذا رأي صائب يضع الأمور في موازينها الصحيحة، كما كان محاربا محنكا ومتفانيا في أداء واجباته، الأمر الذي جعله يحتل مكانة مرموقة في السلك العسكري العثماني[١٥٣]. وكان قد سبق له أن تقلد منصب أول أمير

---

[١٤٧] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص١٠٢.

[١٤٨] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص١٠٦.

[١٤٩] وردت تسمية أوزدمر و يزدمر في المصادر العربية، وورد في المصادر التركية باسم Özdemir – أوزدمير. وأوزدمير باللغة التركية اسم مكون من كلمتين Öz وتعني جوهر الشيء أو لُب الشيء، و demir وتعني الحديد، أما في المصادر العثمانية فقد وردت تسميته بـ أوزدمرعند عاطف باشا و أوزتيمور عند كامل باشا. انظر: عاطف باشا، تاريخ اليمن، ج١، ص٥٤-٥٥. انظر: كامل باشا، التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية مصدر سابق، ج١، ص٢٥٨-٢٥٩.

[١٥٠] جين هاثواي وكارل بربير، الأراضي العربية تحت الحكم العثماني، ترجمه إلى التركية: قول تشالي قوفن، دار بنك العمل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط١، ٢٠١٦م، ص٥٦. (الكتاب باللغة التركية)

[١٥١] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٣٨١.

[١٥٢] عاطف باشا، يمن تاريخي، مصدر سابق، ج١، ص٥٤.

[١٥٣] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص٩٨.

أمير عثماني لميناء جازان اليمني بعد أن استولى عليه سليمان باشا الخادم أثناء عودته من الهند[١٥٤]، وتنقل بين الوظائف إلى أن أصبح أمير الأمراء أيام ولاية أويس باشا[١٥٥].

قيام أوزدمير باشا بالأمر بعد مقتل الوالي أويس باشا:

مَثل حادث اغتيال الولي العثماني أويس باشا سنة ٩٥٤هـ الموافق ١٥٤٧م مرحلة فارقة في تاريخ العثمانيين في اليمن؛ فبمقتله عمت الفتنة، وتدهور الوضع، واختل الأمر في كل الولاية، ودخل العثمانيون في مرحلة صعبة وحرجة بعد أن كانوا قد سيطروا على أغلب الأراضي والأقاليم اليمنية، وكانوا حينها متجهين إلى صنعاء؛ لأخذها من آل شرف الدين.

لم يكن أمام الأمير أوزدمير بعد تلك الحادثة مفر من القيام بالمهمة، ولملمة أوضاع الجيش وسد الفراغ السياسي الذي تركه أويس باشا، وأصبحت تلك المسؤولية من صميم عمله، إذا ما علمنا أنه كان يشغل منصب أمير الأمراء حينها؛ فكانت أول تحركاته في إطار إصلاح الأمور أن قام بنصب علم الدولة العثمانية، ونادى في الجنود بقوله: " من أطاع السلطنة الشريفة، وانقاد لأوامرها المنيفة، فليقف تحت هذا اللواء الشريف السلطاني، ومن خان وسعى في الأرض بالفساد قاتلناه وجاهدنا في قتاله أعظم جهاد"؛ فانحاز أكثر العسكر إليه، وأعاد ترتيب صفوفهم، ثم قام بتشكيل جماعة من العسكر لغرض مطاردة حسن البهلوان، وأخذ الثأر منه[١٥٦]، ولم

---

[١٥٤] سالم، الفتح العثماني لليمن، مرجع سابق، ص١٧٨.

[١٥٥] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٦٩٨.

[١٥٦] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص٩٩. يوجد اختلاف بين المؤرخين في موضوع مقتل حسن البهلوان، فيذكر النهروالي أن من قام بقتل حسن البهلوان هم جماعة من عسكر أوزدمير باشا، وأنهم أدركوه في اليوم السابع من قتله لأويس باشا، وقطعوا رأسه،

تمر أيام قليلة حتى هدأت الأوضاع، واستعادت الدولة العثمانية بعض هيبتها التي كانت قد فقدتها بمقتل رجل الدولة الأول وممثل السلطان في اليمن.

وبعد مقتل البهلوان وإعادة ترتيب صفوف الجيش العثماني قرر أوزدمير باشا مواصلة السير نحو صنعاء؛ لاستكمال الخطة التي بدأها أويس باشا، وعندما كان يستعد لحصار صنعاء تمرد في زبيد أحد أمراء المماليك المقربين من حسن البهلوان يدعى الأمير حيدر، ولمواجهة ذلك الخطر جهز أوزدمير باشا مجموعة من عساكره بقيادة أحد أمرائه يدعى موسى، وأمرهم بالتوجه إلى زبيد وإعادتها إلى السيطرة العثمانية وضبط أمورها، وفور وصول الأمير موسى إليها، خرج لقتاله حيدر وجماعته؛ فاشتبك الفريقان في ملحمة قتالية، انتصر فيها الأمير موسى، وتمكّن من استعادة زبيد، وقتل الأمير حيدر مع مجموعة من أتباعه. وما إن وصل الخبر إلى أوزدمير باشا حتى سُر له كثيرا، وعيّن على الفور الأمير موسى حاكما على زبيد، بينما واصل عزمه باتجاه صنعاء[١٥٧].

ولا شك أن هذه الأحداث والانتصارات ساهمت في ظهور عبقرية أوزدمير باشا، وأبرزت حنكته الحربية والسياسية؛ كونه استطاع في فترة وجيزة أن يعيد الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل مقتل أويس باشا، ومن ثم الشروع بإستراتيجية توسعية جديدة في شمال اليمن، ونتيجة لاتساع رقعة النفوذ العثماني الذي توجب

وأحضروه إلى أوزدمير باشا، ويضيف بأن أوزدمير باشا طاف برأس حسن البهلوان في البلاد معلنا أن هذا جزاء من سعى في الأرض بالفساد. (النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص٩٩). أما الرواية الأخرى فهي التي ذكرناها سابقا عند الحديث عن مقتل أويس باشا، وتفيد أن مجموعة من أصحاب المطهر هي من قامت بقتل حسن البهلوان، وأنه قتل في بلاد آنس في مكان يقال له (بنوغصين) وأن أهل تلك البلاد قاموا بإرسال رأسه إلى المطهر في صنعاء. (يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٦٩٨). ويؤيد هذا الرأي بعض المؤرخين المعاصرين مشيرين إلى أن المطهر استفاد من الحادثة في رفع معنويات جنوده، ومضيفين أن هذه الرواية هي أقرب إلى سياق الأحداث. (سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص١٨٧).

[١٥٧] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٣٨٢. يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٦٩٩.

عليه تخصيص عساكر لحفظ الأمن في المناطق التي تم السيطرة عليها، بالإضافة إلى ارتفاع عدد القتلى في صفوف الجنود العثمانيين اضطر أوزدمير باشا إلى طلب المساعدة من إسطنبول؛ فتم إرسال حملة عسكرية ضخمة من مصر بقيادة مصطفى باشا النشار[١٥٨].

سقوط صنعاء بيد أوزدمير باشا ١٥٤٧م:

عندما عزم أوزدمير باشا على الاستيلاء على صنعاء لم يكن حينها واليا رسميا على اليمن، وإنما كان قائما بأعمال الولي، ومما لا شك فيه أن استيلاءه على صنعاء في مثل تلك الظروف يُعد مكسبا شخصيا له قبل أن يكون نصرا عاما للدولة العثمانية.

عسكر الباشا أوزدمير بالقرب من صنعاء في أول رجب سنة ٩٥٤هـ الموافق ١٧ أغسطس ١٥٤٧م[١٥٩]، وما إن شعر المطهر بتحرك العثمانيين تجاهها حتى خرج مع مجموعة من رجاله إلى قرية غرب صنعاء تسمى السنينات[١٦٠]، وترك فيها ابن أخيه صلاح بن شمس الدين مع مجموعة من الأعيان والعسكر، يقدر عددهم بحوالي ٢٥٠ شخصا، وقد وقع بين الطرفين قتال ونزال ومعارك كان أهمها معركة الصافية ومعركة باب المنجل بضواحي صنعاء[١٦١]، بعدها قام أوزدمير باشا بضرب صنعاء بالمدفعية من جهة باب السبح، الأمر الذي جعل المطهر يأمر أخاه شمس الدين بالتقدم مع مجموعة لقتال العثمانيين ومحاولة إشغالهم؛ لتخفيف الضرب

---

١٥٨ تحدثنا عن تفاصيل الحملة سابقا عند الحديث عن ولاية مصطفى باشا النشار.

١٥٩ سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص١٨٩.

١٦٠ ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٣٨١. (السنينات هي ما يسمى اليوم بـ السنينة في صنعاء)

١٦١ الثور، عبد الله محمد أحمد، هذه هي اليمن، مطبعة المدني، صنعاء، ط١، ١٩٦٩م، ص٣٢٢.

المدفعي على المدينة، لكن ذلك لم يجدِ نفعا أمام الجيش الجرار والقوة العسكرية العثمانية المتمثلة بالمدفعية التي يفتقدها المطهر؛ فلم يكن أمامه سوى الانسحاب إلى ثلا[١٦٢].

حاصر أوزدمير باشا صنعاء لمدة سبعة أيام، وبعد حصار شديد دخل العثمانيون من جهة باب شعوب بعد أن ضربوا أسوار المدينة بالمدفعية. وتذكر بعض المصادر أن دخول العثمانيين تم بتواطؤ من قبل شخص من أهل الرحبة يقال له العنجري، كان قائد الحامية المسؤولة عن باب شعوب.

وكيفما كان الأمر؛ فلم يشعر أهل صنعاء في صباح اليوم السابع من الحصار إلا والرايات العثمانية مرفوعة داخلها، وبدخول العثمانيين اضطربت الأمور، وعظم الخطب على الناس، وكان يوما عصيبا قُتل فيه الكثير من أهل صنعاء[١٦٣]، وحدثت أعمال سلب منكرة. ويبدو أن أوزدمير باشا كان قد وعد جنوده بإباحة المدينة ثلاثة أيام كتحفيز لهم على القتال، لكنه سرعان ما قام بإيقاف أعمال السلب والنهب وضبط الأمور فيها[١٦٤].

أما عساكر المطهر التي كانت في صنعاء عند دخول العثمانيين؛ فقد حاولوا الاشتباك معهم في السائلة، لكنهم سرعان ما انهزموا وهربوا خارج صنعاء مع قائدهم صلاح بن شمس الدين، والتحقوا بالمطهر إلى ثلا مستفيدين من انشغال الجنود

١٦٢ يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٦٩٩.

١٦٣ العرشي، حسين بن أحمد، بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دون ت. ط.، ص٦١.

١٦٤ الثور، أمة الملك إسماعيل قاسم، اليمن في عهد القائدين أوزدمير باشا والوزير سنان باشا (دراسة مقارنة)، ورقة بحث مقدمة إلى المؤتمر الدولي عن اليمن في العهد العثماني الأول، جامعة أوشاك، تركيا، ٢٠١٥م، منشورات جامعة ٩ أيلول، أزمير، تركيا، ٢٠١٦م، ص١٦١.

العثمانيين بأعمال السلب والنهب[١٦٥].بهذا يكون العثمانيون بقيادة أوزدمير باشا قد سيطروا على صنعاء بالقوة، وكان دخولهم إليها في أواخر أغسطس سنة ١٥٤٧م.

وصل خبر سقوط صنعاء بأيدي العثمانيين إلى عزالدين بن الإمام شرف الدين الذي كان حينها في صعدة؛ فحشد جنوده، وخرج منها بعد أن استخلف عليها محمد بن أحمد الحمزي وحسين بن عزالدين المؤيد، واتجه صوب صنعاء؛ لغرض استعادتها من العثمانيين[١٦٦]، ولما وصل إلى بلاد الظاهر[١٦٧]، خيّم بجبل صبيح بعدد كبير من الجنود، وطلب المساعدة من أبيه وإخوانه إلا أنهم لم يستجيبوا له[١٦٨]. وقد توجه لقتاله مجموعة من العساكر العثمانيين بمساعدة بعض أشراف الجوف، ووقعت بين الطرفين معارك ومناوشات كادت كفة عزالدين أن ترجح وينتصر لولا نجاح أشراف الجوف في خذلان قبائل الظاهر من مناصرته، الأمر الذي ترتب عليه هزيمته وانسحابه إلى حصن ظفار[١٦٩].

ويبدو أن أوزدمير باشا كان يعي خطورة عزالدين، فلم تمضِ فترة قصيرة على انسحاب الأخير إلى حصن ظفار[١٧٠] حتى خرج إليه من صنعاء ومعه قوة عسكرية مزودة بالمدافع، وفور وصوله قرر عزالدين الخروج من ظفار، لكنه لم يظفر بذلك؛ لانكشاف أمره عن طريق بعض أتباعه الذين أذاعوا نيته للخروج[١٧١].

---

[١٦٥] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٠٠.

[١٦٦] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٠١-٧٠٢

[١٦٧] الظاهر: مركز إداري يتبع مديرية خمر وأعمال محافظة عمران، ويشمل مدينة خمر والقرى المجاورة لها مثل العرمزة، يشيع، العيانة، بيت البصلاني، العقيلي، بيت العنز وغيرها من ديار بني صريم الحاشدية. المقحفي، مرجع سابق، ج١، ص٩٧١-٩٧٢.

[١٦٨] عاطف باشا، تاريخ اليمن، ج١، ص٥٧-٥٨.

[١٦٩] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٣٨٢.

[١٧٠] حصن ظفار: ويسمى حصن ظفار الظاهر تمييزا له عن ظفار حمير الواقع في جنوب يريم بمسافة ١٧كيلومترا. وحصن ظفار هو حصن أثري في الجهة الشمالية الشرقية من مدينة ذي بين على بُعد ٨٥ كيلومترا شمال صنعاء يقع في منطقة الظاهر بجوار قرية بيت أبي هدسة إحدى قرى مديرية خمر التابعة لمحافظة عمران. انظر: المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١ ص٩٧٤.

[١٧١] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٠٢.

ويبدو أن عزالدين كان يريد أن يخرج ويترك أصحابه فريسة سهلة للعثمانيين مما جعلهم يفسدون خطته للهروب، وما إن يئس من النجاة، وعلم أنه محاط به لا محالة، خرج فتم إلقاء القبض عليه وأسره، واقتاده أوزدمير باشا إلى صنعاء، ثم أرسله إلى إسطنبول، وأرسل معه رسالة شرح فيها ما آلت إليه الأوضاع في اليمن من مقتل أويس باشا وسقوط صنعاء، وطلب إرسال إمدادات عسكرية، يستعين بها على مواصلة قتال المطهر، واستكمال السيطرة على الأقاليم المتبقية من اليمن، وتذكر أغلب المصادر أن عزالدين توفي في ينبع[١٧٢] وهو في طريقه إلى إسطنبول[١٧٣].

كانت إستراتيجية أوزدمير باشا بعد أخذه لصنعاء تتمثل في استكمال السيطرة على ثلا والمناطق الشمالية حتى صعدة وجازان. ويُذكر أن الباشا أوزدمير كتب إلى المطهر يطلب منه تسليم ما في يده من البلاد أو يدفع مالا بدلا عنها، وكان المبلغ الذي طلبه يقدر بخمسين ألف من النقد المتداول حينها[١٧٤]، وقد استجاب المطهر لطلب الباشا، وأبدى استعداده لتسليم ما طُلب منه من المال، وفطن أوزدمير أن المطهر عاجز عن حربه؛ فأخذه الغرور؛ وأعرض عن ذلك المطلب؛ وقرر مواصلة القتال حتى الاستيلاء على ثلا[١٧٥].

---

[١٧٢] ينبع: من الموانئ الحجازية المطلة على البحر الأحمر، يقع إلى الغرب من المدينة المنورة. يُذكر أن ازدهاره كميناء بدا منذ القرن الثالث عشر الميلادي، بعد أن حل محل ميناء الجار، ليحتل المكانة الثانية في الأهمية بعد ميناء جدة، أشتهر ينبع كميناء ومدخل بحري للمدينة المنورة، وكان محطة برية وبحرية لتجمع الحجاج، وسوقا هاما للبيع والشراء على مر العصور الوسطى، ، وقد حافظ على مكانته كأحد أهم موانئ تجارة العبور في البحر الأحمر، حاليا احد أهم موانئ المملكة العربية السعودية.

[١٧٣] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٠٢.

[١٧٤] الكبسي، اللطائف السنية، مصدر سابق، ص٢٤٣.

[١٧٥] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٠٢.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن أسرة آل شرف الدين كانت حينها تعاني من انقسام وصراع داخلي أثر إيجابيا على سرعة توسع أوزدمير باشا في الأقاليم الشمالية؛ فتخاذل شمس الدين عن نصرة أخيه المطهر كان له أكبر الأثر في هزيمته أمام أوزدمير باشا[١٧٦]، كما قام الأمير علي بن الإمام شرف الدين بالاتصال بالعثمانيين والتعاون معهم نكاية بأخيه المطهر الذي أضاع عليه فرصة ترشحه للإمامة، وقام بالانسحاب إلى حصن ذي مرمر عندما علم بزحف العثمانيين إلى صنعاء بحجة زيارة أبنائه، ثم رفض العودة إلى صنعاء، وترك المطهر يلاقي مصيره أمام العثمانيين، أما عزالدين أمير صعدة آنذاك فهو الآخر رفض أمر أبيه عندما طلب منه مساعدة أخيه المطهر في حربه ضد العثمانيين[١٧٧]، ولم نرَ له أي تحرك ضد العثمانيين إلا بعد سقوط صنعاء.

علاقة أوزدمير باشا بآل شرف الدين:

بالرغم من أن المطهر بن شرف الدين وافق على دفع المبالغ المالية التي طلبها أوزدمير باشا كما ذكرنا سابقا، فإن الأخير قرر محاربته حتى النهاية والسيطرة الكاملة على اليمن، ولم يترك للمطهر خيارا غير المواجهة، وكان قد سبق أن أرسل أوزدمير باشا إلى الباب العالي يطلب المساعدة، ويبدو أنه قد بالغ في رسالته التي أرسلها إلى إسطنبول، لاحظنا ذلك من خلال حجم وضخامة الحملة

---

[١٧٦] تظهر وثيقة من وثائق الأرشيف العثماني يعود تاريخها إلى ٢٧ رجب سنة ٩٥٩هـ الموافق ١٩ يوليو/تموز ١٥٥٢م أن شمس الدين قدم خدمات للعثمانيين ونتيجة لذلك عرض له أوزدمير باشا إلى الباب العالي، أظهر في العرض كفاءته ومساهمته بمساعدة العثمانيين، الأمر الذي ترتب عليه إصدار حكم سلطاني بمنحه مكافئة مقدارها ٥٠ ألف أقجة – عملة عثمانية– لقاء خدماته. الوثيقة محفوظة في أرشيف طوب كابي سرايي– إسطنبول، ضمن دفاتر المهمة برقم ٨٨٨، ص٣٢١أ.

[١٧٧] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص١٩٢-١٩٣.

التي أُرسلت إلى اليمن نتيجة لذلك الطلب، وهذا، برأينا، من الأخطاء التي ارتكبها أوزدمير باشا؛ فقد نقل صورة غير صحيحة عن الوضع، والحقيقة هي أن المطهر كان مستقلا في أراضيه، ولم يعتدِ على الأراضي التي كانت تحت سيطرة العثمانيين حتى يتم وصفه بأنه خارج على السيادة العثمانية، وقد جنى أوزدمير نتيجة خطأه هذا؛ حيث انعكس طلبه سلبا عليه، ووصل إليه مصطفى باشا النشار على رأس حملة عسكرية ضخمة، وعمل ندا له، وليس قائدا يأتمر بأمره، الأمر الذي سرعان ما أشعل الخلاف والمنافسة بين القائدين، وانتهى بعقد صلح مع المطهر وظهوره كند للعثمانيين بعد أن كان في وضع لا يحسد عليه[١٧٨].

بموجب الصلح دخل المطهر في طاعة العثمانيين على أن تكون الخطبة والسكة باسم السلطان العثماني مقابل احتفاظه بأملاكه الخاصة ماعدا مدينة الطويلة[١٧٩]، وعدّ هذا الصلح صلحا مؤقتا؛ كونه لم ينظّم العلاقات العثمانية اليمنية تنظيما نهائيا[١٨٠]؛ بل كان أشبه بخطة تسمح للطرفين بحفظ ماء الوجه - إن صح التعبير - بعد أن كانا في أمس الحاجة إليه، فأوزدمير باشا يرغب في ترتيب أوضاعه والتفرغ للسيطرة على باقي المناطق التي لم تدخل بعد تحت النفوذ العثماني، أما المطهر فهو الآخر يحتاج إلى فترة هدوء؛ لإعادة ترتيب أوضاعه وإرجاع بعض المناطق التي كانت قد خرجت عن سيطرته أثناء صراعه مع العثمانيين، بالإضافة إلى إعادة ترتيب علاقاته بأخوته التي كانت قد بلغت من التوتر مبلغا كبيرا.

---

١٧٨ النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص١٠٦.

١٧٩ سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص٢٠٥.

١٨٠ للمزيد: انظر سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص٢٠٦.

استقلال أوزدمير باشا بولاية اليمن:

استقل أوزدمير باشا بحكم اليمن اعتبارا من جمادى الأولى سنة ٩٥٦هـ الموافق يونيو ١٥٤٩م[١٨١]، وقد ساعده في ذلك بقاء العسكر الذين جاءوا من مصر في حملة مصطفى النشار. وبما أن الصلح الذي عُقد مع المطهر لا يشمل باقي المناطق أو الفئات اليمنية الأخرى ولا يتعارض مع توسع أوزدمير في باقي الأقاليم اليمنية التي لم ينص عليها الصلح؛ فقد واصل أوزدمير إخضاع بقية المناطق الأخرى[١٨٢]؛ فتوسع في اليمن الأسفل والتهائم، وأخذ ريمة ووصاب وعتمة في بداية سنة ٩٦٠هـ الموافق ١٥٥٣/٢م، ثم عاد واستقر في صنعاء، ولم يمكث كثيرا حتى اتخذ قرارا يقضي بضرورة السيطرة على صعدة، وجهز لتلك المهمة الأمير الإسكندر مع مجموعة من الجنود، ولما وصلوا إلى أطراف بلاد صعدة خرج إليهم الأشراف، ووقعت حرب بين الطرفين، انهزم على إثرها الأشراف.

وخلال تلك الأحداث خرج أوزدمير باشا بنفسه قاصدا صعدة، ودخلها وأمن أهلها، ولبث فيها فترة قصيرة، ثم استعمل عليها الأمير إسكندر وعاد إلى صنعاء[١٨٣]. كما قضى على الاضطرابات في إقليم كحلان[١٨٤] وحبيش[١٨٥]

[١٨١] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص١٩٧.

[١٨٢] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص٢٠٧.

[١٨٣] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧١٤.

[١٨٤] كحلان: يوجد في اليمن عدد من الأماكن والحصون يحملون هذا الاسم منها كحلان الشرف، كحلان ذي رعين، كحلان بلاد البستان- بني مطر، كحلان الطويلة، كحلان بيحان وغيرها. والمقصود بها هنا كحلان ذي رعين: وهي مركز إداري يتبع مديرية الرضمة، إحدى مديريات محافظة إب، على بُعد ٢٣ كيلومترا شرق مدينة يريم، سمي نسبة إلى كحلان بن نمران بن هفان الرعيني. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج٢، ص١٣٣٠-١٣٣١.

والشوافي[186] وخنفر[187]، وطاف بالبلاد جميعها حتى وصل إلى (أبو عريش) في ٢٢ صفر ٩٦٠هـ/ ٧ فبراير ١٥٥٣م. وبهذا يعدّ أول والٍ عثماني يُخضع أقاليم اليمن جميعها وصولا إلى صعدة في أقصى الشمال؛ لذلك يطلق عليه أغلب المؤرخين فاتح اليمن الأول.

سياسة أوزدمير باشا في ولاية اليمن:

كان أوزدمير باشا إداريا مقتدرا ومفاوضا ماهرا ومخططا إستراتيجيا وعسكريا[188]، والدليل على ذلك حنكته السياسية والعسكرية التي جعلته يضبط الأمور بعد مقتل أويس باشا بعد أن مرت ولاية اليمن بظروف صعبة كادت أن تُنهي السيادة العثمانية فيها، ومما يُذكر عنه أنه كان يتعامل بالصدق مع أصدقائه وأعدائه، وكان يفي بقوله ووعده، الأمر الذي قربه من الناس وفرض عليهم حبه واحترامه[189].

ومما يروى عنه كذلك أنه كان غير متكلف في مأكله وملبسه، وكان يحرص على ترتيب أمور البلاد التي يسيطر عليها، ويضع فيها مجموعة من عساكره؛

---

[185] حبيش: بضم ففتح فسكون، مديرية في الشمال الغربي من مدينة إب بمسافة ٤٢ كيلومترا، مركزها ظلمة، وتشكل منطقة جبلية يتبعها عدد من المراكز الإدارية منها: جبل عمقة، بني الضاحتين، صائر، جبل خضراء، نقيل العقاب، الفراعي، السلق، وادي المعقاب، الجعافر، سباعة، كومان، التفادي، الوطئة، قحزة، المشيرق، الصدر، بني شبيب وغيرها. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص٤١٢.

[186] الشوافي: قرية في جبل خضراء يتبع مديرية حُبيش وأعمال محافظة إب. نسبت إلى الشوافي بن علقمة من آل ذي جدن ثم من سبأ الصغرى، كان اسم القرية يطلق على منطقة واسعة، تشمل المرتفعات الغربية لمنطقة السحول، وحاليا تتبع مركز مدينة إب، وتشمل: جبل معود، شعب يافع(بكسر الشين)، الروس، بني محرم، البحريين، ثوب(بضم الثاء وفتح الواو) أعلى وأسفل. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص٨٨٣.

[187] الواسطي، مخطوط، ص٩٦/١١. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص٢٠٧.

[188] جانكارلوا كازالي، رياس البحر الهندي عصر الاستكشافات العثمانية، مرجع سابق، ص١٧٢.

[189] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص١٠٦.

لضبطها وضمان عدم عودة التمرد إليها، كما يُحسب له انتهاجه لسياسة التصالح والمعاهدات مع القبائل لما من شأنه أن يبعث الهدوء والاستقرار في الولاية[١٩٠].

كان لأوزدمير باشا- مثله مثل معظم الولاة العثمانيين- بعض الأخطاء السياسية، صبت بشكل أو بآخر في صالح خصومه، منها ما فعله مع أهل شمات[١٩١] الذين نكّل بهم عندما خرجوا إليه وطلبوا منه الأمان بعد أن كانوا تابعين للمطهر وأخيه شمس الدين، الأمر الذي جعل بعض القبائل تتمنع وتخاف أن تتصالح مع العثمانيين، مثلما حدث مع قبائل جبل تيس والحيمة الذين أرادوا الدخول في طاعة العثمانيين؛ فلما بلغهم ما فعل بأهل شمات تراجعوا خوفا من بطشه[١٩٢].

أعمال أوزدمير باشا في ولاية اليمن وعزله عنها:

أولى أوزدمير باشا أهمية كبيرة لتأمين الطرقات؛ كونها تمثل الشريان الرئيس الذي يربط بين أطراف الولاية؛ فعمل على بناء الحصون والقلاع على الطرقات؛ لغرض المحافظة على أمنها، منها إنشاؤه لحصن في مدينة خنفر بالقرب من عدن.

ومن الأعمال الإنشائية التي تُحسب له بناء جامع في صنعاء ما يزال موجودا إلى وقتنا الحاضر باسمه يدعى جامع الزمر[١٩٣]، كما أنشأ مدرسة في صنعاء في حي باب شعوب، وأعيد بناؤها فيما بعد، وأطلق عليها مدرسة ابن الأمير الصنعاني[١٩٤]، وعمّر قبة في المنقب من بلاد همدان بقيت إلى أزمان متأخرة[١٩٥].

---

[١٩٠] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص١١٨.

[١٩١] شمات: عزلة معروفة تتبع مديرية الطويلة محافظة المحويت.

[١٩٢] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٠٥.

[١٩٣] الثور، اليمن في عهد القائدين أوزدمير باشا والوزير سنان باشا (دراسة مقارنة)، مرجع سابق، ص١٦٤. الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص٣٢.

[١٩٤] الثور، المرجع نفسه، ص١٢٨.

[١٩٥] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٠٦.

وفي الأخير، فقد عُزل أوزدمير باشا عن ولاية اليمن بناء على طلب منه، وكانت مدة ولايته في اليمن ٧ سنوات و ٦ أشهر، وبعد أن صدر قرار عزله خرج من زبيد يوم الأحد ١٠ ذي الحجة سنة ٩٦١هـ الموافق ٥ نوفمبر ١٥٥٤م[١٩٦]، واختار أن يجعل طريق عودته إلى مصر عن طريق سواكن[١٩٧] والساحل الإفريقي، ولم يمر بمكة كما هو متعارف عليه لدى الولاة الآخرين، لسبب أرجعه المؤرخون إلى سوء العلاقة بينه وبين شريف مكة آنذاك الذي كان يتهمه أوزدمير باشا بأنه يوالي المطهر بن شرف الدين ويكاتبه.

ثم توجه عن طريق البر من سواكن إلى مصر، ومنها إلى العاصمة العثمانية إسطنبول، وبعد وصوله إسطنبول التقى بالسلطان سليمان القانوني الذي بدوره أظهر له كل الاحترام والتقدير لقاء ما عمله من خدمات جليلة وصادقة للدولة العثمانية، وتحدث إلى السلطان كثيرا، وعرض عليه أن يفتح له مملكة الحبشة بعد أن أوضح أهميتها الإستراتيجية لتأمين الحدود الجنوبية للإمبراطورية العثمانية وضرورة السيطرة عليها؛ كونها لا تقل أهمية عن اليمن وباب المندب، وقد قبل السلطان عرضه وسُر له[١٩٨].

ويبدو أن خبرة أوزدمير باشا الحربية بعد أن خاض حروبا كثيرة في اليمن، بالإضافة إلى معرفته بطبيعة جغرافية اليمن وسواحل البحر الأحمر وتشابهها مع سواحل الحبشة. هو ما جعله يفكر بفتح الحبشة، علاوة على رغبته في أن يسجل له

---

[١٩٦] الواسطي، مخطوط، ص١٩٧/ ١٢.

[١٩٧] سواكن: ميناء على الشاطىء الغربي للبحر الأحمر بالقرب من عيذاب، شمال شرق السودان، ترفأ إليه السفن القادمة من جدة واليمن، احتل مكانة تجارية وإستراتيجية مهمة على مر التاريخ بسبب موقعه الجغرافي، وكان يضاهي في أهميته ميناء جدة والمخا. انظر: الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ج٣، ص٢٧٦.

[١٩٨] أورهونلو، جنكيز، السياسة الجنوبية للإمبراطورية العثمانية (إيالة الحبشة)، مؤسسة التاريخ التركي، أنقرة، ١٩٩٦م، ص٣٤-٣٥. (الكتاب باللغة التركية) النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص١١٩.

التاريخ سيطرته على سواحل البحر الأحمر الشرقية والغربية، وينسب إليه السيطرة على أهم المناطق في الجزء الجنوبي من الإمبراطورية العثمانية.

وكيفما كان الأمر؛ فقد تم الموافقة على طلبه، وأمر له السلطان سليمان القانوني بعسكر تم تجهيزه من مصر، و يقدر عددهم بـ ٣٠٠٠ جندي؛ ليتوجه بهم إلى الحبشة[١٩٩]. وقد غزا أوزدمير باشا أرض الحبشة عدة مرات، انتصر في بعضها وأخفق في بعضها الآخر، واستمر فيها إلى أن توفاه الله عام ٩٦٧هـ، ودفن فيها، ثم نُقلت جثته إلى مصوع، وبُني عليه قبة من قبل ولده عثمان باشا عندما ولي بعد والده على الحبشة[٢٠٠].

مصطفى باشا قره شاهين (١٥٥٦-١٥٦٠م):

مصطفى باشا قره شاهين هو أحد مماليك السلطان سليمان القانوني، تربى في القصر السلطاني، وتقلد المناصب، وترقى فيها حتى تولى ولاية اليمن عام ١٥٥٦م[٢٠١] بعد أن كان نائبا على غزة.

لُقب بـ قره شاهين[٢٠٢] لحذقه ونجابته في صغره وسمرة لونه[٢٠٣]، وهو والد رضوان باشا الذي تولى ولاية اليمن فيما بعد، ويُعرف أحيانا بـ مصطفى عزت[٢٠٤]. ومما لا شك فيه أن تقلد منصب ولاية اليمن في تلك الظروف كان أمرا في غاية

---

[١٩٩] للمزيد: عاطف باشا، تاريخ اليمن، مصدر سابق، ج١، ص ٦٨-٦٩.

[٢٠٠] أورهونلو جنكيز، السياسة الجنوبية للإمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ص ٤٧. النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص١١٩-١٢٠.

[٢٠١] خلوصي ياووز، الإدارة العثمانية في اليمن وتاريخ رموزي، مؤسسة التاريخ التركي للطباعة والنشر، أنقرة، ٢٠٠٣م، ج١، ص CX. (الكتاب باللغة التركية).

[٢٠٢] قره شاهين تعني الصقر الاسود.

[٢٠٣] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص١٢٣.

[٢٠٤] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص١٥١.

الأهمية، نظرا لكثرة الحروب والاضطرابات فيها بحيث كان يستلزم فيمن يتولى أمر اليمن أن يكون شخصية تتصف بالشجاعة والحنكة السياسية والخبرة في إدارة الأزمات.

وما إن صدر الفرمان السلطاني القاضي بتعيين الباشا مصطفى واليا على اليمن حتى حزم أمره، وعزم من غزة إلى مصر ومنها إلى جدة في مجموعة من الأغربة[٢٠٥]، وبعد أن اعتمر ذهب بحرا إلى اليمن، وكان بصحبته ابنه بهرام الذي صار بكلربكيا على اليمن فيما بعد[٢٠٦]. وقد وصل إلى اليمن في أواخر سنة ٩٦٨هـ الموافق ١٥٥٦م[٢٠٧]، وحكم لفترة تزيد على أربع سنوات، لكنه كما ذكر أغلب المؤرخين لم يكن يعبأ بشيء سوى تكوين ثروة شخصية وجمع الأموال وتخزينها؛ لهذا يعدّ مصطفى باشا قره شاهين من الولاة الذين استغلوا وجودهم على رأس هرم الولاية لتحقيق مصالحهم الخاصة[٢٠٨].

هذا وقد كانت الأوضاع في فترة ولايته تتسم بالهدوء نوعا ما، ولم تحدث حروب واضطرابات كبيرة مقارنة بفترات من سبقه من الولاة، الأمر الذي جعل بعض المؤرخين يذهب إلى القول بأنه سلك في الناس مسلكا وسطا[٢٠٩]، بينما الحقيقة برأينا هي أن الهدوء كان عائدا إلى عدم قيام المطهر بأي تحرك ضد العثمانيين في تلك الفترة.

---

[٢٠٥] الأغربة:- مفردها غراب وتعني مركب أو قارب بحري، يُذكر أن أول من استعمله هم القرطاجيون والرومان، وأخذه العرب عنهم، واستعملوه للأغراض الحربية والتجارية، وسمى بذلك لأن مقدمته تشبه رأس الغراب. الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مرجع سابق، ص٣٣٠.

[٢٠٦] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص١٢٣.

[٢٠٧] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص٣٣.

[٢٠٨] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص٢٢١.

[٢٠٩] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٣٨٨.

لم يؤثر عن مصطفى باشا قره شاهين أي أعمال مهمة في اليمن سوى شغفه بجمع الأموال كما مر معنا، حتى قيل إنه عندما عُزل عن ولاية اليمن أخذ معه من الخزائن والهدايا مالا حدود ولا وصف له[٢١٠]. وقد جاء قرار عزله من إسطنبول سنة ٩٦٧هـ الموافق ١٥٦٠م، فحزم أمتعته وأمواله- التي أخذ في تجميعها مدى أربع سنوات-وذهب برا إلى مكة المكرمة، وكان حينذاك موسم الحج؛ فأدى فريضة الحج ثم ذهب إلى مصر ووصلها في أوائل سنة ٩٦٨هـ، بعدها تم تعيينه بكلربكيا في مصر خلفا لـ علي باشا الخادم بعد وفاته[٢١١].

محمود باشا ١٥٦٠ـ١٥٦٥م:

تعود أقدم المعلومات عن محمود باشا إلى الأعوام ٩٤٣/٤٢هـ، وتفيد أن داوود باشا التقى به في بلاد الشام عندما كان متجها من إسطنبول إلى ولاية مصر؛ فأخذه معه إلى مصر وقربه منه حتى صار كتخداه[٢١٢]، ثم عينه أميرا للحاج المصري عامي ٩٥٨/٥٧هـ، واعتنى به كذلك الوزير علي باشا، وجعله من الأمراء المحافظين بمصر، وترقى في المناصب حتى أصبح واليا على اليمن بعد عزل مصطفى باشا قره شاهين[٢١٣].

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن المؤرخين مجمعون على أن محمود باشا ذو صفات غير جيدة؛ فقد كان كثير القتل والنهب وكثير السخط والغضب، بالإضافة إلى طمعه الشديد في جمع المال وتخزينه.

---

[٢١٠] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص٢٢١-٢٢٢.

[٢١١] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص ١٢٤-١٢٥.

[٢١٢] الكتخدا: مصطلح مأخوذ من اللغة الفارسية ويعني النائب أو القائم بالأعمال. انظر: صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مرجع سابق، ص١٨٨.

[٢١٣] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص١٢٦

عندما كُلف محمود باشا من قبل الباب العالي أن يكون واليا على اليمن كان حينها في مصر، ومنها توجه بحرا إلى جدة في أوائل محرم سنة ٩٦٨هـ/أيلول ١٥٦٠م[٢١٤]، ولما اقترب منها أقدم على إغراق ثلاثة من أتباعه في البحر بعد أن أمر برميهم من السفينة؛ لتوهمه أنهم يريدون الهروب وعدم مصاحبته، وقد نجا أحدهم بأعجوبة؛ فتعلق ليلة كاملة في سكان السفينة ولم يشعر به أحد، وعندما قربت السفينة من البر خرج هاربا إلى العرب، وكان يمهر السباحة فنجاه الله[٢١٥].

ويُذكر أن محمود باشا عندما وصل إلى جدة لم يستقبله أحد بسبب سوابقه غير المحمودة عندما كان أميرا للحاج المصري[٢١٦]. وقد وصل إلى اليمن في صفر سنة ٩٦٨هـ/أكتوبر ١٥٦٠م، وحظي باستقبال وترحيب كبير من قبل الأمراء والعساكر والأمناء والكشاف. وكان أول عمل له بأرض اليمن أن قام بصلب أمين دار الضرب[٢١٧] الفقيه عبد الملك اليمني بحجة اختلال العملة وزيادة النحاس على الفضة[٢١٨]. وفي الحقيقة، إنه لم يكن ذنبه، ولم يكن السبب في ذلك، وإنما كان نتيجة تراكمية لسوء إدارة بعض الولاة السابقين، على حسب تعبير – مؤرخ الدولة العثمانية في اليمن آنذاك– النهروالي[٢١٩].

وقد أثنى المؤرخون على عبد الملك اليمني، ووصفوه أنه رجل ذو سيرة حسنة، وكان ثريا ذا أموال طائلة، وقد استولى محمود باشا على جميع أمواله بعد صلبه، ويبدو أن ذلك كان السبب الحقيقي وراء فعله هذا.

---

[٢١٤] يمن سالنامه سي، رقم ٥٣٨، ص١٢٨. باللغة العثمانية

[٢١٥] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص١٢٧.

[٢١٦] للمزيد انظر: النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص١٢٧-١٢٨.

[٢١٧] دار الضرب تعني دار سك العملة.

[٢١٨] خلوصي ياووز، الإدارة العثمانية في اليمن وتاريخ رموزي، مرجع سابق، صCXI.

[٢١٩] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ١٢٨.

وبمقتل عبد الملك اليمني تلفت العملة أكثر وأكثر، وارتفعت الأسعار، وظلمت الرعية، وانتشر الفساد خصوصا بين أوساط العسكر؛ لأن رواتبهم أصبحت غير كافية لمعيشتهم، ووصل بهم الحال إلى بيع أسلحتهم وبعضهم هرب إلى المطهر، فضعف الجيش، وتوسع المطهر على حساب مناطق السيطرة العثمانية.

أقام محمود باشا في زبيد فترة قصيرة، ثم انتقل إلى تعز؛ ليجعل منها مقرا له ولحكومته[٢٢٠]، أما صنعاء فقد ترك عليها نائبا عنه، يقال له الأمير محمد بن حسن قزلباش، وأرسل إلى المطهر في جمادى الأخرى سنة ٩٦٨ هـ الموافق مارس ١٥٦١م رجلا من خواصه؛ لغرض إقرار قواعد الصلح السابق بين المطهر والعثمانيين الذي عُقد أيام الوالي أوزدمير باشا، الأمر الذي سرّ له المطهر ووافق عليه[٢٢١]، كما عمل محمود باشا جاهدا على إبقاء الأوضاع القائمة في اليمن على ماهي عليه، وحرص على عدم التصادم مع المطهر بأي شكل من الأشكال، ولم يسجل لنا المؤرخون أي حروب بين الطرفين إلا ما كان بينه وبين النظاري صاحب إقليم بعدان. ويبدو أن محمود باشا كان يبذل كل جهده في استقرار الأوضاع؛ لغرض تسجيل مجد وإنجاز شخصي يحظى من خلاله باحترام وثقة السلطان العثماني[٢٢٢].

---

[٢٢٠] كامل باشا، التاريخ السياسي للدولة العثمانية العلية، مصدر سابق، ج١، ص٢٥٩.

[٢٢١] يحي بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٢٠.

[٢٢٢] للمزيد انظر: سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص٢٢٢-٢٢٣.

صراع محمود باشا مع النظاري صاحب إقليم بعدان[٢٢٣]:

كان الفقيه نور الدين علي بن عبد الرحمن محمد النظاري صاحب إقليم بعدان يتمركز في حصن حب[٢٢٤] الذي يُضرب به المثل في الارتفاع والمنعة، وكان من الشخصيات المشهود لها بالنبل والاعتدال وعلو الأخلاق[٢٢٥]، وقد ورث الحكم عن أبيه، وورثه أبوه عن جده الذي كان أحد أمراء السلطان عامر بن عبد الوهاب[٢٢٦].

عمل النظاري وأجداده من قبله على مهادنة الولاة العثمانيين السابقين، وسلكوا معهم كل الطرق التي تضمن لهم الاستمرار بالحكم في حصنهم[٢٢٧]. وبالرغم من أن النظاري كان قد أرسل هدايا لمحمود باشا فور وصوله تعز طالبا وده؛ فإن الباشا لم يقبل ذلك، وصمم على أخذ الحصن منه معلنا الحرب عليه بذريعة خروجه على طاعة السلطة العثمانية[٢٢٨].

لم يجد النظاري وسيلة- بعد أن عجز عن استرضاء محمود باشا- غير المقاومة، فقام بتحصين قلعته، وسد كل الطرق المؤدية إليها، وتجهّز للقتال والدفاع عن نفسه.

---

٢٢٣ بعدان: مخلاف كبير من مخاليف إب، يشتمل على عدد من العزل والقرى، حاليا مديرية تابعة لمحافظة إب. انظر: الأكوع، إسماعيل بن علي، مخاليف اليمن، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ط٣، ٢٠٠٩، ص١٥٦.

٢٢٤ حب: بالفتح ثم تشديد، حصن مشهور في جبل بعدان، وصفه الهمداني بقوله: "حصن حب من أمنع معاقل اليمن، وأصعبها مرتقى، وأبعدها صيتا، وأنظرها منظرا، وأذكرها شهرة لكثرة ما يدور حوله من أحداث التاريخ، وهو منتصب في سرة جبل بعدان كأنه خطيب قوم التفت حوله القرى الزاهية والهضاب النظرة المكسوة بالأشجار والثمار اليانعة، وهو مناوح (مجاور) لجبل التعكر من الشرق، وكان مقل القيل يريم ذي رعين". الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب ت بعد ٩٤٧م، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٩٩٠م، ص٢٠٠.

٢٢٥ النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص ١٢٩.

٢٢٦ أحد سلاطين الدولة الطاهرية ١٤٥٤-١٥٣٨م.

٢٢٧ الشلي، السنا الباهر بتكميل النور السافر، مصدر سابق، ص ٤٦٢.

٢٢٨ سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٢٢٤-٢٢٥.

وقد لقي محمود باشا معارضة كبيرة من بعض الأمراء العثمانيين الذين أدركوا حقيقة أغراضه، ويدركون في الوقت نفسه براءة النظاري من التهمة الملصقة به، ومن هؤلاء الأمراء الأمير إسكندر الكردي، الذي عُرف عنه أنه ذو رأي صائب وذو شجاعة وإقدام؛ فأشار على محمود باشا بعدم الدخول في حرب مع النظاري؛ كونه لم يحدث منه أي مخالفة أو عصيان يستحق قتاله عليه، وذكّره بمناعة حصنه، وأنه لم يُعهد فيما مضى من الزمن أن فُتح بالسيف، لكنه ما إن أتم كلامه حتى أمر محمود باشا بضرب عنقه بدون ذنب يوجب ذلك[٢٢٩]. كما يُذكر أن محمود باشا كان يتهم أميرا آخر يدعى ميرزابك بموافقته رأى إسكندر الكردي؛ فطلبه وأمر بقتله.

وكيفما كان الأمر؛ فلم تجدِ النصائح لدى محمود باشا نفعا، ولم يستمع لرأي أحد، وأصر على أخذ الحصن من النظاري مهما كلفه الثمن؛ فخرج من تعز مع مجموعة من جنوده، واتجه إلى حصن حب وحاصره من كل الجهات ورماه بالمدفعية، لكن مناعة الحصن وقوة استحكاماته بالإضافة إلى الترتيبات الجيدة التي رتب لها النظاري جعلته يصمد أمام حصار ونيران المدفعية العثمانية لما يقارب ٨ أشهر، وقد سئم محمود باشا وعسكره من طول الحصار وعدم تحقيق أي نتيجة، الأمر الذي جعله يطلب من الأمير محمد عبد الله الداعي- أحد أمراء اليمن المنطوين تحت لواء الدولة العثمانية وينتمي إلى الطائفة الإسماعيلية- التفاوض مع النظاري الذي كان هو الآخر كان قد ملّ من طول الحصار.

ذهب الداعي إلى النظاري وأعطاه الأمان، وتفاوض معه على إمكانية تسليم الحصن؛ فوافق النظاري أن ينزل هو وأهله ومن يعز عليه وجميع خزائنه، ويسلم الحصن مقابل أن يُعطى سنجقا/لواء آخر يختاره، كما اتفقوا على ألا يتعرض له

---

[٢٢٩] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص١٣٠.

محمود باشا في شيء مما معه، وقد وقع الاتفاق على ذلك ،وأبدى محمود باشا استعداده لتنفيذ ما تم الاتفاق عليه.

تم تحديد موعد نزول النظاري في يوم ٢٤ رجب سنة ٩٦٩هـ/٣٠مارس ١٥٦٢م، ونزل بصحبة ابنه عبدالرحمن، وكاتبه الفقيه إدريس ومدير خزائنه ابن الرصاص ومعه جميع خزائنه وحوالي ٢٠٠ جندي وفي رواية أخرى ٥٠٠ جندي[٢٣٠]، وبعد أن نزل ذهب إلى محمود باشا ودخل عليه؛ فقام له وأكرمه وحادثه قريب الساعة، وفور خروجه من عنده بعد أن أخذ الإذن بالمغادرة أشار محمود باشا إلى أحد خواصه، كان قد كلّفه بقتل النظاري، فسلّ خنجره وضربه بين كتفيه فأرداه قتيلا، كما تم تصفية كل من نزل معه، بعدها أمر الباشا بالهجوم على الحصن والسيطرة عليه، وتصفيه من بقى فيه من أتباع النظاري [٢٣١].

ولا شك ان محمود باشا بفعلته تلك؛ قد أثر بشكل كبير على نظرة اليمنيين للأتراك آنذاك، ونُقلت صورة غير جيدة عن الدولة العثمانية مما دفع الناس إلى التذمر من الحكم العثماني وترجيح الانطواء تحت لواء المطهر بن شرف الدين. وقد تركت اعمال محمود باشا تلك وصمة غير جيده على صفحات التاريخ، حتى صار من ينقض وعده وعهده تسميه العرب "وعود محمودية".

بعد أن سيطر محمود باشا على حصن حب وقتل النظاري أرسل تقريرا إلى إسطنبول، يشرح فيه- زيفا- تمرد النظاري وخروجه عن طاعة الدولة العثمانية، كما أوضح أنه افتتح الحصن عنوة، وقد قوبل بالترقيات هو وأصحابه الذين عرض لهم معه[٢٣٢].

---

[٢٣٠] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٣٨٨-٣٨٩.

[٢٣١] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص١٣١-١٣٢.

[٢٣٢] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ١٣٤.

وهذا التقرير يذكرنا بتقرير سليمان باشا الخادم عندما دخل عدن وقتل عامر بن داود الطاهري، ثم أرسل تقريرا يشرح فيه تمرد الأخير وأنه أخذ عدن عنوة. ومثل هذه التقارير المغلوطة نلاحظ أنه كان يتم التعاطي معها بكل جدية من قبل البلاط السلطاني في أسطنبول، وكان يتدخل السلطان شخصيا في أمرها، لما تشكله ولاية اليمن من اهميه لديه، ويتم أخذها على أنها صحيحة، الأمر الذي كان غالبا ما يؤدي إلى نتائج غير محمودة؛ فغالبا ما كان يتم اتخاذ قرارات بناء على تلك التقارير، ويترتب عليها إرسال جيوش لا حاجه للولاية بها؛ بل كانت تزيد الأعباء عليها، وتسهم في تدني وتردي الوضع فيها، كما كانت تلك التقارير تؤدي ترقية أشخاص لا يستحقون تلك الترقيات، الأمر الذي كان يؤدي إلى استمرار وتيرة الظلم والأوضاع المضطربة.

عزل محمود باشا عن ولاية اليمن:

طلب محمود باشا عزله عن ولاية اليمن على أمل أن يتولى مصر التي كان توليها حلما وهدفا أساسيا له، وقد كانت أعماله في اليمن خير دليل على ذلك؛ فحاول جاهدا المحافظة والإبقاء على هدوء الأوضاع واستقرارها بأي شكل كان، إلا ما كان من صراعه مع النظاري ويبدو أنه كان واثقا أنه سيكسب اللعبة، وسيجعلها ورقة نجاح أمام الباب العالي، أما مع المطهر بن شرف الدين فقد كان متوددا له، وتحاشى وقوع أي صدام معه لعلمه بقوته ومكانته بين أتباعه.

وكيفما كان الأمر؛ فقد أرسل محمود باشا إلى الباب العالي مرسوما، يطلب فيه عزله عن ولاية اليمن متذرعا بمرض في رجله منعه من الحركة، وأنه يريد العلاج

في مصر[٢٣٣]. وقد أجيب طلبه، وتم عزله سنة ١٥٦٥م، وولي مكانه رضوان باشا، وخرج من زبيد إلى جازان ومنها برا إلى مكة وجدة، وعند وصوله مصر كان في استقباله حاكمها علي باشا الذي كان قد تلقى أمرا سلطانيا يقضي بعمل الواجب معه ومساعدته بما يلزمه أثناء توجهه إلى إسطنبول[٢٣٤]، وقد أنكر عليه الباشا علي الموكب الكبير الذي وصل به وفارقه عند دخوله مصر، ولم يهتم لأمره كثيرا، ولم يقم محمود باشا في مصر؛ بل توجه بعد أيام قليلة إلى إسطنبول[٢٣٥]، وتم استقباله استقبالا كبيرا في البلاط السلطاني، وقدّم للسلطان هدايا نفيسة وعظيمة كان قد جلبها معه، ثم أخذ يشرح فتوحاته وحروبه في بلاد اليمن، لعله يكسب ثقة السلطان لإعطائه ولاية مصر بعد أن قدّم طلبا بذلك، وقد حصل على مراده، وأعطي مسألته، وصدر فرمان سلطاني يقضي بتوليه مصر.

وفاة محمود باشا:

في يوم الأربعاء آخر جمادى الأولى سنة ٩٧٥هـ/ديسمبر ١٥٦٧م، وبينما كان الباشا محمود نازلا من موكبه المعتاد فعله كل أربعاء من قبل نواب مصر، وأثناء نزوله من القلعة على بركة الناصرية، ظهر له شخص مجهول لم يُعرف حتى الان، وكأنه كان له ثأر عنده؛ فثقب ثقبا في الجدار المطل على ممر الباشا ووضع فيه بندقيته، وحين مر محمود باشا من أمام ذلك الثقب صوب عليه تلك البندقية الصغيرة، ورماه بطلقة واحدة فما أخطأته، وأصابته تحت كتفه الأيسر فعقرته.

[٢٣٣] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص١٣٥.
[٢٣٤] الأرشيف العثماني، دفاتر المهمة: دفتر رقم ٦، وثيقة/حكم رقم ٨٩٤.
[٢٣٥] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص١٥١.

ويُذكر أن الرصاصة لم تنفذ من جسده؛ بل توقفت تحت ثديه الأيمن لكبر جثته وسمنه وغلظة بدنه[٢٣٦]، أما الرامي؛ فترك تلك البندقية الصغيرة في مكانها وهرب واختلط بالناس فما عُرف.

وقيل أن محمود باشا استنكر صوت الرصاصة وقال: هو أنا المضروب، واستمر متجلدا على فرسه أربع خطوات ثم أنزلوه، وذهب الجنود إلى مكان الرمي؛ فوجدوا بندقية صغيره متروكة، بعدها نُقل إلى القصر، ولفظ أنفاسه الأخيرة هناك بعد أن أوصى بعتق مماليكه، وأن جميع ما بحوزة زوجته ملك لها، وأن خزائن السلطنة تحت يد أهل الديوان. وقد اهتزت مصر لخبر موته وحدث ارتباك كبير، وكادت الأسواق أن تُنهب[٢٣٧].

رضوان باشا ١٥٦٥-١٥٦٧م:

هو رضوان بن مصطفى باشا قره شاهين، كان يشغل منصب أمير في غزة قبل تكليفه بولاية اليمن، وقد تولى اليمن وهو شاب يافع، لم تصقله تجارب الزمن بعد، ولم يكن يتمتع بالخبرة الكافية لشغل مثل هذا المنصب الذي كان أول منصب له كوالٍ. وقد تم تعيينه واليا على اليمن أثناء ولاية أبيه على مصر سنة ٩٧٣هـ/١٥٦٥م[٢٣٨].

وبعد صدور الفرمان السلطاني القاضي بتوليه اليمن خرج من غزة إلى مصر، ونزل في السويس في سفينتين صغيرتين، ومنها توجه إلى جدة، ووصل إليها في

---

٢٣٦ النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص١٥٤-١٥٥.
٢٣٧ النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ١٥٤-١٥٥.
٢٣٨ عاطف باشا، تاريخ اليمن، مصدر سابق، ج١، ص٦٤.

أوائل ذي الحجة، وبعد أن أتم فريضة الحج، اتجه إلى أرض اليمن؛ فوصل إلى زبيد في ٨ محرم سنة ٩٧٢هـ/١٦ أغسطس ١٥٦٤م، وأقام فيها أياما، ثم توجه إلى تعز ومنها إلى محطته الأخيرة صنعاء التي دخلها في ربيع الآخر من سنة ٩٧٣هـ/ ٢ نوفمبر ١٥٦٥م[٢٣٩].

كانت الأوضاع في اليمن عند وصول الباشا رضوان تتصف بعدم الاستقرار نوعا ما بسبب السياسات الخاطئة التي اتبعها أغلب الولاة السابقين، وبتعيينه زاد الوضع سوءا؛ لأنه كان حديث السن وقليل الخبرة كما أسلفنا، ولم تكن له مقدرة على مواجهة الانهيار الذي أصاب الحكم العثماني في اليمن في تلك الفترة، ولهذا فقد فشل في احتواء الوضع ودخل في عداوات ومشاكل مع المطهر لم يكن مستعدا لها، وكان الأحرى به إعادة ترتيب أوضاع العثمانيين في اليمن وإصلاح ما اختل منها.

ومن خلال ما أوردناه، يمكننا القول أن فترة الوالي رضوان باشا كانت نقطة من نقاط ضعف الوجود العثماني في اليمن، واستمرارا لسلسلة من السياسات الخاطئة التي أدت في النهاية إلى انفجار ثورة المطهر التي بموجبها استولى على معظم أراضي اليمن، وانكمش بسببها الوجود العثماني حتى زبيد كما سيأتي معنا لاحقا.

تقسيم اليمن إلى ولايتين:

عندما وصل رضوان باشا إلى أرض اليمن جعل من أولوياته تتبع عثرات الوالي السابق محمود باشا وأخطائه وتقصيره والرفع بها إلى إسطنبول، ولا نعرف ما هو السبب الذي جعله يقوم بذلك. على كل حال؛ فقد كان هذا هو السبب الجوهري في تقسيم ولاية اليمن إلى ولايتين، وذلك أنه لما عرف محمود باشا بأن رضوان باشا

---

[٢٣٩] يحي بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٢٢.

يتتبع تقصيره وأخطاءه سعى بكل ثقله عند الباب العالي لتقسم اليمن إلى ولايتين بحجة أن اليمن ولاية كبيرة مترامية الأطراف ومن الصعب ضبطها من قبل والٍ واحد، وأخذ يهتم بالأمر، ويحسنه عند أركان الدولة العثمانية ويكاتبهم، وكان حينها واليا على مصر[٢٤٠]، وكان يتظاهر بأن لديه خبرة ببلاد اليمن، وأن اقتراحه هذا من باب المحافظة على سيادة الدولة العثمانية واستتباب الأمر فيها، كما عرض للبلاط السلطاني أن اليمن لن تهدأ مالم يُؤخذ بمقترحه، وهو في الحقيقة لا يقصد به صلاح البلاد، وإنما فعل ذلك نكاية برضوان باشا. وكيفما كان الأمر، فقد استجاب الباب العالي لطلبه، وتم تقسيم اليمن إلى ولايتين سنة ٩٧٣هـ الموافق سنة ١٥٦٥م[٢٤١]، حيث جعلوا من التهائم كلها نصف وعاصمتها زبيد، و تتبعها تعز وجبلة، وولوا عليها أحد أمراء غزة، ويدعى مراد باشا، ووضعوها تحت مسمى ولاية اليمن، وتتكون من ١٢ سنجقا/ لواء. كما جعلوا صنعاء وما والاها من المناطق الجبلية نصفا ثانيا، وجعلوا عاصمتها صنعاء، وأبقوها تحت إدارة الوالي رضوان باشا، وأطلقوا عليها ولاية صنعاء، وتتكون من١٧ سنجقا[٢٤٢].

وبعد النظر إلى التقسيم فمن المؤكد أنه كان تقسيما غير متكافئ، وفيه إجحاف كبير لرضوان باشا؛ لأن الموارد والاستقرار كان في إقليم التهائم، أما إقليم الجبل فلا يوجد فيه سوى القتل والاحتراب، بالإضافة إلى أن اهتمام الباب العالي بولاية مراد باشا كان أكبر، لمسنا ذلك من واقع الوثائق العثمانية حيث يوجد فرمانان موجهان

---

[٢٤٠] كامل باشا، مصدر سابق، ج١، ص٢٥٩.

[٢٤١] كامل باشا، مصدر سابق، ج١، ص٢٥٩.

[٢٤٢] الأرشيف العثماني، دفاتر المهمة: دفتر رقم ٥، وثيقة/حكم رقم ٧١٠، ص٢٧٧. الوثيقة مسجلة بتاريخ ٥جمادى الأخرى سنة ٩٧٣هـ الموافق ٢٨ ديسمبر سنة ١٥٦٥م.

إلى والي مصر آنذاك، يقضيان بضرورة القيام بتهيئة مستلزمات واحتياجات ولاية مراد باشا والأمر بإرسال ٣٠٠ جندي من إنكشارية مصر إليه[٢٤٣].

ومن الملاحظ أن العثمانيين دفعوا ثمن هذا التقسيم الخاطئ الذي لم يكن له لازمة، فتدهور الوضع أكثر وأكثر، وضعفت قبضتهم جراء ذلك التقسيم، واختلف الواليان، وانقسم الجيش، وخسروا أكثر من ثلاثة أرباع ولاية اليمن لصالح المطهر بن شرف الدين، كما تفرق الموالون للدولة العثمانية من أهل اليمن بين موالاة رضوان باشا ومراد باشا، الأمر الذي قوّى جانب المطهر وأتباعه، وجعلهم ينتهزون الفرصة، ويدخلون في حروب وصراعات مع العثمانيين انتهت بحصار صنعاء نفسها[٢٤٤].

وعلى كل حال؛ فلم تدم ولاية رضوان باشا على اليمن كثيرا؛ فقد تم عزله في شوال سنة ٩٧٤هـ الموافق أبريل/مايو ١٥٦٧م، وانفرد بالحكم بعده مراد باشا- بناء على أوامر سلطانية- حتى جاء حسن باشا واليا جديدا على اليمن.

وتذكر المصادر أن رضوان باشا فرح بقرار عزله، وجمع الأمراء والأغوات الذين كانوا بصنعاء، وكتب محضرا يفيد بأنه خرج من صنعاء بإذن مراد باشا، وأنه سلم صنعاء إلى محمد بك قزلباش[٢٤٥]، وقد خرج من صنعاء في أواسط ذي القعدة سنة ٩٤٧هـ/ مارس ١٥٤١م، مارا بتعز ولم يجتمع بمراد باشا لسوء العلاقة بينهما، ومن تعز توجه إلى زبيد، وخرج منها في ذي الحجة من السنة المذكورة متجها إلى

---

[٢٤٣] الأرشيف العثماني، دفاتر المهمة: دفتر رقم ٥، وثائق/أحكام رقم ٧٢٠ و٧٥٢، ص ٢٨٠ و٢٩٠. والوثيقتان مسجلتان بتاريخ ٥ جمادى الأخرى و٩ جمادى الأخرى سنة ٩٧٣ الموافق ١٥٦٥م.

[٢٤٤] بجوي، إبراهيم باشا ت ١٦٥٠م، تاريخ بجوي، المطبعة العامرة، إسطنبول، ١٢٨٣هـ، ج١، ص٤٧٦. الكتاب باللغة العثمانية

[٢٤٥] أحد الأمراء الأتراك في صنعاء آنذاك.

مكة المكرمة، ثم إلى إسطنبول، ولم يدخل مصر كما هو متعارف عليه عند الولاة، وذلك لوجود محمود باشا فيها[٢٤٦].

وعند وصوله إسطنبول أُستقبل بالغضب من قبل الباب العالي؛ لأنه خرج من اليمن وهي متخبطة في مشاكلها، وتم سجنه لأعوام ثم أُفرج عنه عندما اتضحت حقيقة أمره، وأن ما حدث باليمن ليس ذنبه لوحده، وأن ثمة مكائد حدثت ضده. فتم تبرئته وصدر فرمان سلطاني بالإفراج عنه، وتم تعيينه بعد ذلك أميرا في غزة ثم ولي على الحبشة[٢٤٧].

وختاما فقد كانت فترة ولاية رضوان باشا(١٥٦٥-١٥٦٧م) ومن قبله محمود باشا(١٥٦٠-١٥٦٥م) فترات ضعف وانهيار متسارع للوجود العثماني في اليمن؛ فخسر العثمانيون خلال عام واحد كل اليمن باستثناء زبيد.

وتعود أسباب انهيار السيطرة العثمانية في اليمن في فترة ولاية رضوان باشا إلى مجموعة من الاعتبارات أهمها: تراكم المشاكل الاقتصادية والعسكرية في الولاية نتيجة لسوء إدارة بعض الولاة السابقين له[٢٤٨]، وتقسيم اليمن إلى ولايتين الأمر الذي أضعف الوجود العثماني وأثر عليه، كما أن نجاح المطهر في توحيد الجبهة الزيدية واستمالة الطائفة الإسماعيلية كان له أثر كبير في المساهمة في انهيار السيطرة العثمانية كذلك.

---

[٢٤٦] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ١٧٤.

[٢٤٧] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ١٧٥.

[٢٤٨] لعجه، ماجد يحي مجاهد، التاريخ الاقتصادي لليمن والحجاز في القرن السادس عشر، دار ليبرا للطباعة والنشر، إسطنبول، ٢٠٢٠م، ص٦١. (الكتاب باللغة التركية)

وأخيرا؛ فلا شك في أن تخبط رضوان باشا في إدارته للبلاد، وعدم نضجه السياسي، أثر بشكل كبير في تردي الأوضاع، فقد قام برفع الضرائب في زمن يحتاج إلى معالجة الوضع المتردي، واصطدم بالمطهر ومحمود باشا الذين كانا يعدان من دهاة عصرهما، كما اصطدم بالطائفة الإسماعيلية التي كانت دائما ما تقف مع العثمانيين ضد الزيدية. وعلى أية حال؛ فقد صبت كل تلك المشاكل في قالب واحد أسهم في تلاشي السيطرة العثمانية على اليمن في بدايات النصف الثاني من القرن السادس عشر[٢٤٩].

مراد باشا ١٥٦٦ـ١٥٦٧م:

لم تجُد المصادر بالكثير من المعلومات عن حياة وولاية مراد باشا سوى أنه تربى وخدم في القصر السلطاني، وتنقل في المناصب إلى أن صار سنجقا في غزة، بعد أن كان يعمل أميرا للحاج الشامي، ثم شريكا مع رضوان باشا في حكم ولاية اليمن. وقد حكم إقليم تهامة في إطار ما سمى بولاية اليمن بعد تقسيمها كما مر معنا، ثم حكم اليمن كاملا في الفترة التي تلت عزل رضوان باشا إلى أن جاء الوالي الجديد حسن باشا سنة ١٥٦٧م، وقتل في ذمار من أرض اليمن من قبل قوات مواليه للمطهر بن شرف الدين من العام نفسه[٢٥٠].

ثورة المطهر بن شرف الدين وأخذه صنعاء:

يُذكر أن بذرة الخلاف بين المطهر ورضوان باشا تعود إلى البدايات الأولى لحكم الأخير في اليمن، فبعد وصول الباشا إلى صنعاء لم يقم بالتواصل مع

---

[٢٤٩] للمزيد انظر: سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٢٣٦.
[٢٥٠] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ١٦٣-١٦٧.

المطهر، ولم يقم بإقرار قواعد الصلح القائم معه منذ أيام أوزدمير باشا كما هي عادة الولاة السابقين[٢٥١]، لذلك أخذها المطهر بحساسية ضد رضوان باشا، وبعد وصول مراد باشا إلى اليمن واستقراره في تعز قام المطهر بمراسلته مستغلا فرصة خلافه مع رضوان باشا، وكانت الأوضاع بين المطهر ورضوان باشا قد زادت سوءا عندما أقدم الأخير على زيادة فرض الضرائب على أراضٍ تابعه للمطهر.

كانت الحادثة التي فجرت الوضع بين الفريقين، حين قام رضوان باشا برفع نسبة الخراج على أراضي وادي السر[٢٥٢]- الذي كان تحت سيطرة علي بن الإمام شرف الدين- متجاهلا الصلح الذي وقع بين المطهر والعثمانيين أيام أوزدمير باشا.

وبالرغم من أن المطهر وأخاه علي كانا قد أرسلا إلى رضوان باشا رسولا أوضحا له من خلاله بأن بلاد السر ضعيفة وقليلة الخراج، وأنه سبق لهم أن شرحوا الوضع للوالي السابق محمود باشا، فخفض عشرة ألاف عثماني، كما أشاروا عليه أنه من المناسب إبقاء هذه البلاد على ما كانت عليه، لكن رضوان باشا لم يلقِ لذلك أهمية، واستمر في إصراره على جباية الخراج بالزيادة[٢٥٣]؛ نتيجة لذلك اشتكى المطهر إلى مراد باشا- الذي كان حينها في تعز يتولى إدارة إقليم التهائم- جور وظلم رضوان باشا وإصراره على زيادة نسبة الخراج موضحا له أن ذلك يخالف القواعد التي تم الاتفاق عليها مسبقا، ولم يكن من مراد باشا إلا أن استغل الموقف، ووظفه ضد رضوان باشا، وأرسل إلى البلاط السلطاني رسالة يوضح فيها سوء

---

[٢٥١] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص ٢٣٤.

[٢٥٢] وادي السر: وادي معروف يقع على مسافة تقدر بحوالي ٣٠ كيلومتر شمال شرق صنعاء، يتبع ناحية بني حشيش، يحتوي على العديد من القرى، يُذكر عنه أنه وداي كثير الخير وكانت تكثر فيه زراعة العنب والفواكه قبل أن تنتشر فيه زراعة القات. انظر: العمري، حسين عبد الله، الموسوعة اليمنية، مرجع سابق، مادة السر، ج٣، ص١٥٨٤.

[٢٥٣] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص١٦٦.

إدارته واختلاقه للمشاكل، كما أوضح أن المطهر لم يخرج حينها عن طاعة الدولة العثمانية، مرفقا بذلك الرسالة التي سبق وأن أرسلها له المطهر.

وكيفما كان الأمر؛ فقد أرسل رضوان باشا أحد كشافه لأخذ الخراج من جهات وادي السر، الأمر الذي ترتب عليه قتل الكاشف بأوامر من علي بن الإمام شرف الدين[٢٥٤]، وبهذه الحادثة ظهر العصيان واضطربت البلاد، وبدل من أن يقوم رضوان باشا باحتواء الأوضاع وتلافي الأمر واتباع الطرق السلمية لإصلاح الأمور أقدم على اتخاذ خطوة حربية؛ فجمع جيشه وقرر الخروج لقتال المطهر؛ وخرج من صنعاء في ذي القعدة سنة ٩٧٣هـ، الموافق مايو/ يونيو ١٥٦٦م متجها إلى عمران، وطلب النجدة من مراد باشا الذي تقاعس عن نصرته لسوء العلاقة بينهما.

وبعد خروج رضوان باشا إلى عمران كان المطهر على استعداد لقتاله، وجهز جيشا لتلك المهمة، أوكل قيادته إلى ابن أخيه شمس الدين محمد بن الحسين صاحب كوكبان، واستمرت الحرب بين الفريقين في حدود شهرين، بعدها أدرك رضوان باشا الخطر المحدق به وجنح للمصالحة[٢٥٥]، فعُقد الصلح في شهر رجب من سنة ٩٧٤هـ/فبراير ١٥٦٧م، على أن يأخذ المطهر عمران وجهاتها، وقد دخل تحت المطهر بموجب هذا الصلح (نهم- خولان- الحدا- قيفة- بلاد ذي مرمر- الظواهر- حراز- حفاش)[٢٥٦].

وللسبب نفسه الذي اصطدم به رضوان باشا مع المطهر اصطدم به كذلك مع الطائفة الإسماعيلية، حيث أجبرهم على دفع الضرائب المقررة على إقليمهم بالرغم

[٢٥٤] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٢٤.
[٢٥٥] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٤٠٣.
[٢٥٦] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٢٥.

من أن الولاة السابقين كانوا يعفونهم من الضرائب باعتبارهم جنودا في الجيش العثماني[٢٥٧]. الأمر الذي أدى إلى تذمرهم وعدم مناصرتهم للعثمانيين آنذاك. وفي الحقيقة فإن خسارة رضوان باشا للطائفة الإسماعيلية في مثل هذا الظرف الصعب دليل على الأسلوب السيئ لإدارته، مع العلم أن الطائفة الإسماعيلية كانت دائما تقف إلى جانب الدولة العثمانية، وتُظهر العداء للزيدية عموما وآل شرف الدين على وجه الخصوص، وبخسارتهم خسر رضوان باشا أحد الحلفاء الدائمين للدولة العثمانية في اليمن.

أثمرت مراسلات مراد باشا للباب العالي ومساعدة محمود باشا له؛ فتحرر فرمان سلطاني في ذي القعدة من سنة ٩٧٤هـ/حزيران ١٥٦٧م يقضي بعزل رضوان باشا؛ لتخلوا الساحة لمراد باشا الذي أصبح على عاتقه مسؤولية مواجهة المطهر بن شرف الدين الذي أصبح يتوسع على حساب الدولة العثمانية يوما بعد آخر إلى أن وصل به الأمر لمحاصرة صنعاء، وقطع الميرة عنها. عندها لم يجد مراد باشا بدا من المواجهة مع المطهر والتحرك لإنقاذها، وقد دخل الصديقان اللذان طالما اتحدت وجهات نظرهما ضد رضوان باشا في صراعات وحرب أودت بحياة مراد باشا.

وفي إطار إنقاذ صنعاء من حصار المطهر، خرج مراد باشا من تعز في جيش يقدر بـ ٧٠٠ فارس وما يزيد عن ١٠٠٠ من المشاة، ووصل إلى ذمار في ذي القعدة سنة٩٧٤هـ ، وخيم فيها لما يقارب ثلاثة أيام. وكرد فعل على ذلك كلّف

[٢٥٧] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٢٣٥.

المطهر لملاقاته علي بن الشويع ومعه حسين بن شمس الدين[٢٥٨]. وتذكر المصادر أن الأمير علي بن الشويع قطع الطريق على مراد باشا في يريم في مكان يقال له الشلالة[٢٥٩]، وحال بينه وبين وصوله إلى صنعاء، ووقعت حرب بين الفريقين في مكان يقال له ذراع الكلب[٢٦٠]، قتل فيها قائد جيش مراد باشا، عندها لم يجد مراد باشا حلا سوى الفرار تاركا أشياء كثيرة من خزائنه وأحماله[٢٦١].

وقد نجا هذه المرة إلا أنه تلقى ضربة أخرى في وادي خبان ونجا منها كذلك؛ ليتلقى الضربة الاخيرة على يد قبائل المضرح التي لم تترك له فرصه أخرى للهروب؛ فقبضت عليه وقتلته هو ومن معه، وأرسلوا برأسه إلى المطهر فما كان منه إلا أن أرسله إلى المحاصرين في صنعاء[٢٦٢]، الأمر الذي ترتب عليه خوف وهلع الحامية العثمانية في صنعاء، ولم يكن منها إلا أن سلمت للمطهر في يوم الإثنين ١٩ صفر سنة ٩٧٥هـ/ ٢٥ أغسطس ١٥٦٧م[٢٦٣].

وبهذا سقطت صنعاء بيد المطهر وخرجت عن إطار سيطرة الدولة العثمانية، وبعد السيطرة على صنعاء أخذ المطهر يعد العدة للاستيلاء على ما تبقى من أراضي اليمن؛ فكتب إلى السيد أحمد بن الحسين المؤيدي والأمير محمد بن ناصر الحمزي يأمرهما بالتقدم على صعدة، وكان فيها الأمير الشيخ علي ممثلا للدولة

---

[٢٥٨] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ١٧٢-١٧٣.

[٢٥٩] الشلالة: قرية تتبع مديرية عنس وأعمال محافظة ذمار. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص٨٧٤.

[٢٦٠] ذراع الكلب: من بلاد الحداء وأعمال محافظة ذمار. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص٦٤٦.

[٢٦١] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٢٦-٧٢٧.

[٢٦٢] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٢٦-٧٢٧. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص ٢٤٤. الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص ٣٧-٣٨.

[٢٦٣] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٤٠٧.

العثمانية، فخرج منها إلى الجوف ثم إلى صنعاء[٢٦٤]، وبهذا تكون صعدة هي الأخرى قد خرجت من أيدي العثمانيين، ودخلت تحت سيطرة المطهر، ثم شرع المطهر في أخذ المناطق واحدة تلو الأخرى؛ فأخذ تعز ثم حب وإقليم إب ثم عدن[٢٦٥]، ولم يتبق في قبضة الدولة العثمانية سوى زبيد. وفي التهائم خرج صاحب جازان عيسى بن المهدي عن طاعة الدولة العثمانية، فأرسل إليه مراد باشا عسكرا تمكنوا من استرداد جازان منه.

وقد ترافق مع تلك الاضطرابات حدث كبير، زلزل أركان الدولة العثمانية وهو وفاة السلطان سليمان القانوني رحمة الله عليه، وتولي ابنه السلطان سليم الثاني للحكم، الأمر الذي شجع المطهر على مواصلة تقدمه على حساب الأراضي التابعة للسيطرة العثمانية مستفيدا من الارتباك الذي حصل في صفوف العثمانيين.

حسن باشا ١٥٦٧ـ١٥٦٨:

هو حسن باشا المعروف بأرمن باشا[٢٦٦]، وهو غير حسن باشا الوزير الذي حكم اليمن في الفترة ١٥٨٠- ١٦٠٤م والذي سيأتي تفصيل الحديث عنه لاحقا. كان كما وصفه المؤرخون يتمتع بشخصية مترددة نوعا ما، ويوجد تناقض كبير بين شخصيته الضعيفة وبين المسؤولية الكبيرة التي أوكلت إليه بتوليه ولاية اليمن التي كانت تعج بالصراعات والمشاكل آنذاك[٢٦٧].

---

[٢٦٤] يحي بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٢٥.

[٢٦٥] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص٣٨.

[٢٦٦] يحي بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٢٩.

[٢٦٧] للمزيد انظر: سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٢٤٦.

تم تعيينه بدلا عن رضوان باشا بعد عزله عن ولاية صنعاء، ووصل إلى اليمن في أواخر صفر سنة ٩٧٥هـ، وعند وصوله فوجئ بخبر مقتل مراد باشا مما تحتم عليه المكوث في زبيد، وبعد فترة قصيرة من مكوثه في زبيد، وتحديدا في أواخر رمضان سنة ٩٧٥هـ الموافق ١٥٦٧م، وصله مرسوم سلطاني يقضي بأن يقوم بمهام الوالي على اليمن كاملا، وقد شدد السلطان العثماني في هذا المرسوم على حسن باشا بضرورة ضبط العساكر وحفظ الأمن في ولاية اليمن حتى يتم إرسال تعزيزات عثمانية من مصر وبلاد الشام مع الوزير مصطفى باشا اللالا[٢٦٨].

عند وصول حسن باشا إلى اليمن كان المطهر بن شرف الدين وقتها قد سيطر على معظم اليمن، ولم يتبق مع العثمانيين إلا زبيد التي كان يحكمها شخص عثماني يدعى شهلا محمد[٢٦٩]. وقد كانت زبيد محطته الأولى والأخيرة، ولم يقم بأي تحرك يذكر؛ بل أخذ المطهر ما تبقى من أراضي اليمن من أمام ناضريه، وفرط في تعز وعدن وحصن حب، وأصبحت هذه المناطق لقمة سائغة التهمها المطهر واحدة بعد الأخرى وبدون عناء يذكر؛ بل على العكس من ذلك، أوردت المصادر أن حسن باشا قام بالانشغال بمشاكل داخلية كان هو في غنى عنها، سببت له سخط العثمانيين أنفسهم، منها قيامه بإهانة متعمدة لحاكم زبيد العثماني شهلا محمد بعد أن رأى شعبيته الواسعة بين الجنود العثمانيين وحبهم له، بالرغم من أن الأمير شهلا

---

[٢٦٨] الأرشيف العثماني، دفاتر المهمة: دفتر رقم ٧، وثيقة/حكم رقم ١٤٦٥، ص١٣٦. الأرشيف العثماني، دفاتر المهمة: دفتر رقم ٧، وثيقة/حكم رقم ١٢٥٣، ص٣١.

[٢٦٩] يدعى أيضا بسهلا ممي/ شهلا ممي، وهو في الأصل جاويش (رتبه عسكرية تعادل رتبه الرقيب بالجيش العربي)، وترقى في المناصب حتى وصل إلى رتبة سنجق/ لواء، أُرسل إلى اليمن أيام ولاية مراد باشا، فولاه على زبيد، وكان شخصية تتصف بالكرم والشجاعة كما كان ملجأ لكل العثمانيين الهاربين من حروب المطهر. انظر: ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٤٠٨. النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص١٨٦.

كان مخلصا للدولة العثمانية، وأبدى استعداده للذهاب إلى تعز لنجدة الحامية العثمانية التي كانت فيها، ويذكر أن حسن باشا هزأه عند إبداء مقترحه هذا بالقول:" اجلس في حالك، وإن كنت رجلا فاحفظ زبيد"[٢٧٠]، بالرغم من أن الحامية العثمانية التي كانت في تعز قد طلبت النجدة منه، وبتقاعسه هذا سقطت تعز بيد المطهر كما سيأتي معنا.

سقوط تعز بيد المطهر بن شرف الدين:

لا شك أن مدينة تعز من المدن اليمنية ذات الطابع الإستراتيجي المهم الذي يجعل من السيطرة عليها أولوية قصوى لأي قوة تريد أن تحكم اليمن. ولهذا فقد تطلع المطهر للسيطرة عليها بعد أن أخذ صنعاء في صفر سنة ٩٧٥هـ/ أغسطس ١٥٦٧م، وقد كان الوضع فيها أيام ولاية حسن باشا مضطربا جدا، وكانت الحامية العثمانية فيها ترى أنها مسالة وقت وسيصل المطهر الذي أخذ يستولى على المناطق واحدة تلو الأخرى، ولن يكون أمامها إلا التسليم أو الدخول في حرب غير متكافئة ستنتهي حتما بانتصار المطهر، الأمر الذي حدا بتلك الحامية إلى طلب المساعدة العاجلة من الوالي حسن باشا- الذي كان آنذاك في زبيد- لتستطيع الصمود أمام المطهر.

أصدر المطهر بن شرف الدين أوامره إلى قائده علي بن الشويع بضرورة الاستيلاء على تعز، وأرسله في جيش لم يرد في المصادر عدده، وإنما اكتفت بالإشارة إلى كثرته، وقد وصل ابن الشويع إلى تعز وطوّقها، ولم يستطع العثمانيون الموجودون فيها الصمود أمامه، إذ سرعان ما سقطت، ودخلها ابن الشويع في ١٣

---

[٢٧٠] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص١٨٦.

ربيع الثاني سنة ٩٧٥هـ الموافق ١٩ أكتوبر ١٥٦٧م، وتم أسر قائد الحامية العثمانية قاسم الهلالي وعدد من أتباعه، وأُرسلوه إلى المطهر، وتذكر المصادر أن الهلالي توفي في الطريق قبل أن يصل إلى صنعاء، بعد أن سقى نفسه السم، بينما بعضهم قال إنه مات هما وكمدا والله أعلم بالحقيقة[٢٧١].

وكيفما كان الأمر، فلا شك في أن المسؤول الأول عن سقوط تعز بهذه الكيفية هو الوالي حسن باشا الذي تقاعس عن نصرة الحامية العثمانية فيها بالرغم من استنجادها به[٢٧٢].

سقوط عدن بيد المطهر بن شرف الدين:

كان الاستيلاء على عدن ضرورة حتمية بالنسبة للمطهر، فوجود العثمانيين في عدن وزبيد يجعله في خطر كبير في حال وصول تعزيزات لهم، وفي حال تم ذلك فإن وضعه سيصبح في تعز بين فكي كماشة، زبيد من الشمال وعدن من الجنوب؛ لذلك أدرك تماما أهمية الاستيلاء على عدن وبأسرع وقت ممكن، وكانت الفرصة مواتية له بسبب ضعف الوجود العثماني آنذاك. وما أن استتب الأمر في تعز، ورتبت أوضاعها حتى جاءت التوجيهات للقائد علي بن الشويع بالتوجه صوب عدن، فحمل على عاتقه تنفيذ تلك المهمة، وبدأ بترتيب أموره وإعداد جيشه. أما الوالي حسن باشا فكان في زبيد يكتفي بدور المتفرج على ما يجري في البلاد، بالرغم من أن صلاحياته كوالٍ تخول له عمل الكثير من التحركات- أقلها طلب المدد من إسطنبول- لإنقاذ ما تبقى من الوجود العثماني.

---

[٢٧١] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٤٠٨.

[٢٧٢] للمزيد انظر: سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٢٤٦.

توجهت قوات المطهر إلى عدن، وكان يوجد فيها حامية عثمانية يقدر عددها بـ ٢٠٠ جندي، يقودهم أمير يدعى مصطفى أغا، وقد كانوا في وضع لا يحسد عليه تنقصهم المؤنة والمعونة. وقد حاصرهم ابن الشويع، ومنع وصول أي شيء إليهم حتى اضطروا إلى أكل الجيف والأشجار على حسب ما ذكرت معظم المصادر المعاصرة[٢٧٣]. ونكاية بالمطهر بن شرف الدين قام السلطان بدر صاحب الشحر وحضرموت بإصدار أوامر لأهل الشحر بأن يجلبوا المساعدات والمعونات والميرة إلى عدن عن طريق البحر، ويبدو أن السلطان بدر قام بذلك لخوفه من التوسع السريع للمطهر ولعدائه المذهبي معه، إذا ما علمنا أنه كان شافعي المذهب.

ونتيجة للحصار الشديد الذي فرضه ابن الشويع على العثمانيين في عدن، ولعدم وصول أي إمدادات عسكرية لهم اضطروا إلى طلب الأمان منه مقابل تسليم المدينة، لتسقط كما سقطت تعز من قبلها.

وبعد الاستيلاء عليها ضبط ابن الشويع أمورها، وأمر ببناء مدرسة للزيدية فيها، تحمل اسم المطهر- تم هدمها بعد أن عاد العثمانيون إليها فيما بعد-. وقد عاد علي بن الشويع إلى تعز وترك في عدن أخاه قاسم بن الشويع حاكما عليها ومعه مجموعة من العساكر[٢٧٤].

سقوط حصن حب بيد المطهر بن شرف الدين:

يعد حصن حب من أمنع القلاع والحصون في بلاد اليمن، ويبدو أن تأخير المطهر للاستيلاء عليه إلى ما بعد تعز وعدن هو إدراكه أن الاستيلاء عليه بالقوة

---

[٢٧٣] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص١٩٠-١٩١.

[٢٧٤] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص١٩١.

أمر في غاية الصعوبة، وفي حال تم الاستيلاء على تعز وعدن فمن المؤكد أن معنويات الجنود العثمانيين الموجودين فيه ستنهار مما يسهل السيطرة عليه دون حرب وهذا ما حدث بالفعل.

وكيفما كان الأمر؛ فقد أوكل المطهر مهمة الاستيلاء عليه إلى أخيه علي بن شرف الدين، الذي قام بدوره بمحاصرة الحصن ومنع عنه المدد والميرة، وما إن نفدت مؤنة العساكر العثمانية المتواجدة فيه حتى طلبوا الأمان وأعلنوا الاستسلام، وتم تسليم الحصن إلى علي بن شرف الدين، وهرب الجنود العثمانيون إلى زبيد[٢٧٥].

سيطرة المطهر على موزع وحيس والوصول إلى زبيد:

مثلت زبيد المعقل الأخير والآمن للعثمانيين، كما كانت ملاذا للهاربين من المواجهات مع المطهر في المناطق الشمالية والجنوبية. وقد كانت السيطرة عليها هدفا أساسيا للمطهر؛ كونه باستيلائه عليها ينهي الوجود العثماني في اليمن. ولا شك في أن الاستيلاء على زبيد يتطلب من المطهر أولا: إحكام السيطرة على موزع[٢٧٦] وحيس نظرا لموقعهما الإستراتيجي بالنسبة لها، ولهذا فقد استطاع علي بن الشويع أن يستولي على موزع في ٧ ذي الحجة سنة ٩٧٥هـ/ ٣ حزيران ١٥٦٨م، الأمر الذي أشعر حسن باشا باقتراب الخطر منه ما جعله يرسل مجموعة من العساكر بقيادة شهلا محمد لمواجهة ابن الشويع، لكنهم لم يصمدوا أمامه، وهربوا وتفرقوا إلى المخا ودهلك وزيلع، وقيل أن الأمير شهلا باع خيله وذهب إلى دهلك

---

[٢٧٥] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص١٩٣-١٩٤.

[٢٧٦] موزع: من مدن تهامة المعروفة، تقع شمال شرق مدينة المخا على بعد حوالي ٣٠كيلومتر تقريبا، سميت موزع نسبة إلى موزع بن عبد شمس بن وائل الذي يصل نسبه إلى حمير، احتلت مكانه هامة عبر التاريخ في الربط بين موانئ اليمن ومدنه التهامية، لديها ساحل مطل على البحر الأحمر يقدر طوله بحوالي أربعين كيلومتر، ينتسب إليها كثير من العلماء والفقهاء والمؤرخين، حاليا موزع أحد مديريات محافظة تعز. انظر: العروسي، محمد علي وآخرون، الموسوعة اليمنية، مرجع سابق، مادة موزع، ج٤، ص٢٩٠٠.

ثم إلى جدة[٢٧٧]. وبعد أن سيطر ابن الشويع على موزع قصد الذهاب إلى حيس[٢٧٨] التي كان فيها حامية عثمانية صغيرة، ووقعت بينهما اشتباكات مكنت ابن الشويع من الاستيلاء على حيس دون عناء كبير، وذلك في صفر سنة ٩٧٦هـ/ تموز ١٥٦٨م[٢٧٩]، وبعد حيس استولى على المخا، وأمّر عليها الأمير الحاج محمد جلبي[٢٨٠]، وباستيلاء ابن الشويع على المخا صفا له الجو للإجهاض على زبيد.

وبالرغم من نصيحة المطهر لابن الشويع بالاكتفاء بما قد تم الاستيلاء عليه، وأن ما ينبغي فعله هو محاصرة زبيد حتى الاستسلام؛ فإن علي بن الشويع عارض تلك الفكرة، وشدد بضرورة الهجوم عليها وأخذها عنوة.

ونشير هنا إلى أن من أورد هذه الرواية هم المؤرخون المحسوبون على آل شرف الدين، وكأنهم أرادوا بتثبيتهم هذا تبرئة المطهر من الفشل والهزيمة التي لحقت بجيشه على أبواب زبيد، وتحميل ابن الشويع مسؤولية ذلك الإخفاق[٢٨١]. وإن زعمنا بصحة تلك الرواية؛ فيمكن تفسيرها بأنه تصرف شخصي من ابن الشويع، أراد به إكمال مجده البطولي الذي بدأه بالاستيلاء على تعز وعدن، لكي يظهر بأنه البطل الذي كان على عاتقه إخراج العثمانيين من اليمن، وهذا برأينا تصرف طبيعي ممكن لأي قائد عسكري- حقق مثلما حققه ابن الشويع- أن يفعله.

---

[٢٧٧] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص١٩٥.

[٢٧٨] حيس: بلدة من أقدم بلدان تهامة، تقع جنوب زبيد بحوالي ٣٥ كيلومتر، وصفها ياقوت الحموي بأنها "بلد من نواحي زبيد في اليمن بينها وبين زبيد مسافة يوم، وهي كورة واسعة"، تشتهر بصناعة الأواني الحرفية مثل الفنجان الحيسي فهو نسبة إلى حيس، حاليا تشكل واحدة من مديريات محافظة الحديدة ومركزها مدينة حيس. الأكوع، إسماعيل بن علي، البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، مؤسسة الرسالة للنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م، ص١٠٧.

[٢٧٩] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٤٠٩.

[٢٨٠] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص١٩٥.

[٢٨١] للمزيد انظر: عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص١٧٥.

وعلى أية حال؛ فقد خرج ابن الشويع صوب زبيد، وخيم بالقرب منها في مكان يقال له تربة الخليقي، وكان معه ما يزيد على ٢٠ ألف مقاتل[٢٨٢]، بينما لم يبقَ في زبيد من الجنود العثمانيين إلا ما يقارب ٢٠٠خيال[٢٨٣]. وأثناء ما كان يعسكر بالقرب من زبيد أرسل مندوبا إلى حسن باشا يعرض عليه تسليم البلاد مقابل إعطائه الأمان لنفسه وماله، الأمر الذي لم يقبله الأخير؛ بل يُذكر أن بعض العساكر العثمانيين اجتمعوا على الرسول وقتلوه، وقرر بعدها حسن باشا الخروج لملاقاة ابن الشويع.

وقد تواجه الفريقان في معركة شرسة، انهزم فيها أتباع المطهر، وقتل ما يقارب ٣٠٠ شخص من أتباعه[٢٨٤]، وجرح ابن الشويع نفسه، وكاد أن يُقتل أو يقع في الأسر لولا نجدته بخيل من أحد أتباعه مكنته من الهرب والنجاة بروحه بعد أن عُقرت خيله[٢٨٥].

وقد برزت لنا مبالغات مؤرخي الطرفين في هذا الحادث بشكل واضح وجلي، فالمؤرخون التابعون للمطهر أوردوا أن سبب الهزيمة هو مخالفة ابن الشويع لنصائح وأوامر المطهر، وكأنهم يريدون تحميل ابن الشويع مسؤولية الخسارة التي حلت به، والمحافظة على شخصية المطهر كقائد لا يهزم. بينما وصل الأمر ببعض المؤرخون المؤيدون للدولة العثمانية إلى القول: إنه تم سماع أصوات مدافع من داخل مقابر زبيد دون أن يُرى أي شخص[٢٨٦]، وكأنهم يريدون أن يصوروا لنا أن الأموات اشتركوا في هذه المعركة.

---

[٢٨٢] أورد الموزعي صاحب كتاب الإحسان أنهم كانوا حوالي ٥٠ ألف مقاتل ونرى أنه رقم مبالغ فيه.

[٢٨٣] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص١٩٦

[٢٨٤] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص١٧٥.

[٢٨٥] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص١٩٦-١٩٧.

[٢٨٦] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ٣٩.

وكيفما كان الأمر، فإن التحليل الأقرب إلى الحقيقة وإلى السياق التاريخي، هو أن زبيد كانت، كما هو معروف، آخر معاقل العثمانيين في اليمن، وبهذا يتوجب عليهم الدفاع المستميت عنها، في مقابل غرور ابن الشويع واستهانته بعدوه وعدم تخطيطه المحكم لتلك الحرب، كل ذلك أدى إلى فشل قوات المطهر بإسقاط زبيد.

وتشير المصادر إلى أنه لم يكن السلطان العثماني على علم بمستجدات ما يحدث بأرض اليمن، وتؤكد بأنه كان هناك إخفاء متعمد لتلك الأحداث من قبل والي مصر محمود باشا لكيلا يُلام على مقترحه بتقسيم اليمن، إذا ما علمنا أن ما وصلت إليه السيادة العثمانية في اليمن من ضعف كان يعود إلى مقترحه بتقسيم اليمن إلى ولايتين، وقد انكشفت تلك الأمور للباب العالي خصوصا بعد مقتل محمود باشا.

وفور وصول الخبر إلى السلطان ومعرفة أنه لم يتبقَ تحت سيادة الدولة العثمانية سوى مدينة زبيد تم إصدار فرمان سلطاني على الفور يقضي بتكليف الباشا مصطفى اللالا[٢٨٧]- وكان حينها وزيرا في الديوان السلطاني- للذهاب إلى بلاد اليمن وإطفاء نار الفتن فيها، بحيث تذكر إحدى الوثائق العثمانية أنه في ذي القعدة من سنة ٩٧٥هـ الموافق سنة ١٥٦٧م تم إرسال التعزيزات من إسطنبول تقدر بـ ٦٠٠ نفر مع التوجيه بإكمال العدد بـ ١٦٠٠ نفر أخرين من مصر وإرسالهم على وجه السرعة إلى الجهات اليمانية[٢٨٨]. كما تم إصدار فرمان سلطاني آخر إلى والي مصر آنذاك يقضي بضرورة الاهتمام بأمر اليمن وتزويدها بكل ما من شأنه أن يخمد الاضطرابات فيها[٢٨٩].

---

٢٨٧ اللالا: تعني مربي ابن السلطان.

٢٨٨ الأرشيف العثماني، دفاتر المهمة: دفتر رقم ٧، وثيقة/حكم رقم ١٣٣٥.

٢٨٩ الأرشيف العثماني، دفاتر المهمة: دفتر رقم ٧، وثيقة/حكم رقم ١٢٥٥، ص٣٢.

وقد أبدى الباشا مصطفى تذمره للأمر، واختلق أعذارا من شأنها أن تثنيه عن الذهاب إلى بلاد اليمن، وحاول إقناع الديوان السلطاني لإرسال غيره، ومن الملاحظ أن تخوفه من الذهاب إلى اليمن كان نظرا لما اشتهرت به من حروب ومشاكل، لكن سعي الباشا مصطفى كله باء بالفشل، وأصرت القيادة السلطانية على ذهابه، ولم يكن أمامه غير القبول والإذعان لتلك الأوامر[٢٩٠].

خرج الباشا مصطفى من إسطنبول إلى مصر مع مجموعة كبيرة من الجنود والأمراء، وفي مصر قام بتجهيز الجيش والسفن الحربية وركب عليها المدافع، ثم طلب تزويده بمجموعة من الجنود للانضمام إلى حملته، لكنهم اختلقوا أعذارا تثنيهم عن الذهاب إلى اليمن.

وتذكر المصادر أن الباشا مصطفى عندما رأى تخاذل جند مصر، وعرف أن أغلب من ذهبوا إلى اليمن قبل ذلك الحين لم يعودوا، وأن المطهر أصبح هو الحاكم الفعلي لليمن، أرسل إليه رسالة يعرض عليه الصلح، ويدعوه للدخول في طاعة الدولة العثمانية[٢٩١]. وقد كلف بإيصال تلك الرسالة شخصين من الجنود العثمانيين بمصر هما مصطفى جاويش و قولاق سليمان جاويش، كانت الرسالة تحمل في طياتها تذكير المطهر بقوة الدولة العثمانية وترغيبه في الصلح وكف الاقتتال، وكأن الباشا مصطفى يهدف إلى تحقيق سلام دون الدخول في صراع أو حتى دون الذهاب إلى اليمن إن أمكن، وسعى لذلك كثيرا، وقدّم بعض التنازلات، يتضح ذلك

[٢٩٠] يذكر أن من سعى إلى إرسال مصطفى باشا شخص يدعى محمد باشا الصوقللي لغرض إبعاده من جوار السلطان سليم الثاني الذي كان يحظى باحترام شديد منه؛ لأنه كان من أشرف على تربيته منذ طفولته بالإضافة إلى وقوفه معه في فتنته مع أخيه بايزيد أثناء خلافهما على ولاية العهد، وبإرساله إلى اليمن سيخلو الجو لمحمد باشا الصوقللي في البلاط السلطاني. النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص١٩٨. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٢٥٥.

[٢٩١] السنا الباهر بتكميل النور السافر، ص٥١٥.

من طلبه من شريف مكة إرسال رسالة أخرى إلى المطهر تحمل في طياتها الهدف نفسه الذي حملته رسالته، وقد استجاب الشريف له وقام بتحرير رسالة في يوم الخميس ١١ رمضان سنة ٩٧٥هـ/ ١٠ مارس ١٥٦٨م، أرسلها مع شخص يدعى عثمان أغا الذي ذهب برفقة رسولي الباشا مصطفى، وقد وصلت إلى المطهر الرسالتان في وقت واحد، وكلا الرسالتين تؤكدان على أهمية إحلال الصلح وترك الاحتراب، بالإضافة إلى تخويف مبطن، نلحظ ذلك في تذكير شريف مكة للمطهر في رسالته بأن مصطفى باشا قادم بجيوش جرارة إلى اليمن، وأن الأوامر السلطانية قضت بإرسال ٥ ألف إنكشاري و٥ ألف سباهي[٢٩٢] غير الذين سينضمون إليهم من قرمان وديار بكر وحلب ومصر، كما أفاد شريف مكة للمطهر أنه على استعداد أن يحرر رسالة إلى إسطنبول، يوضح فيها إن ما حدث في بلاد اليمن لم يكن سببه المطهر، وأن من قاموا بها هم غوغاء الناس والبدو[٢٩٣].

وقد وصل الرسل الثلاثة إلى تعز، وكان فيها علي بن الشويع الذي بدوره أخذ الرسائل وأرسلها للمطهر إلى صنعاء، وردا على ذلك؛ فقد كتب المطهر جوابا على تلك الرسائل، يمكن أن يقال عنه أنه ليس فيه طاعة ولا استمرار على العصيان[٢٩٤]. وقد فهم الباشا مصطفى من ذلك الرد أنه لابد من مواجهة المطهر؛ فبحث عن شخص يذهب إلى اليمن بدلا عنه، الأمر الذي ترتب عليه تكليف عثمان باشا بقيادة الحملة، وسيأتي تفصيل ذلك عند الحديث عن الوالي عثمان باشا.

---

[٢٩٢] سباهي: بكسر ثم فتح، مصطلح يطلق على الفارس في الدولة العثمانية، والسباهية تعني فرق الجيش من الفرسان. المصري، معجم الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٨٣.

[٢٩٣] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص٢٠٢-٢٠٣.نص الرسالة ورد المطهر أوردها النهروالي في مصنفه الصفحات ص٢٠٢-٢٠٣

[٢٩٤] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص٢٠٤.

يذكر بعض المؤرخين أن خلافا كان بين مصطفى باشا اللالا وبين سنان باشا حاكم مصر آنذاك ساهم في عدم نجاح الحملة، وعلى إثر ذلك الخلاف لم يحظَ الباشا مصطفى بأي دعم من سنان باشا؛ بل على العكس من ذلك، حاول إعاقة سير الحملة، وحرض الجنود المصريين على العصيان وعدم الانضمام إليها.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن العداء بين القائدين كان قديما، لأن سنان باشا كان يتهم مصطفى باشا بالسعي وراء قتل أخيه الذي كان يقف إلى جانب بايزيد ضد سليم الثاني أثناء فتنة ولاية العهد بينهما. وقد ترجم سنان باشا عداوته لمصطفى باشا عندما أرسل إلى الباب العالي يعرض له تقاعس الأخير وتخوفه من الذهاب إلى اليمن، وزاد على ذلك أن مصطفى باشا ينوي المكوث في مصر والاستقلال بها عن الدولة العثمانية، وحكمها باسم السلطان قانصوه الغوري[٢٩٥].

ومن المؤكد أن سنان باشا بالغ في عرضه هذا؛ فتلكؤ مصطفى باشا ومحاولاته لاختلاق أعذار تثنيه عن الذهاب لليمن[٢٩٦] ظهرت منذ أن كان في إسطنبول، مما يجعلنا نجزم بأن ما دفعه لمحاولة عدم الذهاب إلى اليمن هو ما أوضحناه سابقا من تخوفه من اليمن ومشاكلها بالإضافة إلى تفضيله البقاء في إسطنبول؛ لينعم بالخيرات بالقرب من السلطان سليم الثاني، ولكي يجني ثمرة علاقته به ومساعدته له قبل توليه الحكم.

---

[٢٩٥] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٢٥٦. للمزيد عن السلطان قانصوه الغوري انظر ترجمته في: الشوكاني، محمد بن علي بن محمد ت١٢٥٠هـ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق: محمد حسن حلاق، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط١، ٢٠٠٦م، ج١، ص٦٠٨-٦٠٩.

[٢٩٦] الأرشيف العثماني، دفاتر المهمة: دفتر رقم ٧، وثيقة/حكم رقم ١٥٠٨، ص١٥٨. (الوثيقة تفيد بتقاعس مصطفى باشا عن الذهاب إلى اليمن بعد تعيينه).

وبالعودة إلى سياسة الوالي حسن باشا في اليمن؛ فمن المؤكد أنها ساهمت في إضعاف قبضة الدولة العثمانية وتفككها أكثر مما كانت عليه من قبل[٢٩٧]؛ فبدلا من أن يعمل على محاربة المطهر، عمل على التفرقة بين صفوف العثمانيين أنفسهم، كما ارتكب أخطاء كثيرة تمس حال الرعية بشكل أو بآخر[٢٩٨]. وكانت أيام وجوده في زبيد أياما صعبة على أهلها، ، وقد ذكر مؤرخ الدولة العثمانية في اليمن آنذاك انه وصل به الأمر أنه إذا رأى شخصا ميسور الحال يقوم بالافتراء عليه بأنه يكاتب جماعة المطهر حتى يضفي شرعية على أخذه لأمواله وممتلكاته، ومن الأشخاص الذين قتلوا ونهبت أموالهم بهذه الطريقة، الفقيه عبد الوهاب المحرقي، الذي كان من أعيان اليمن وفضلائها في زمانه، حيث ألصق به تهمة التخابر مع المطهر، الأمر الذي أتاح لحسن باشا أخذ أمواله وقتله في ٢٢ ربيع الأول سنة ٩٧٥هـ/ ٢٦ أيلول ١٥٦٧م[٢٩٩].

وكرد على تلك الاخطاء في التعامل؛ فإن عثمان باشا حين وصل إلى اليمن في حملته الشهيرة سنة ١٥٦٨م– وبعد مشاهدته لما فعله حسن باشا بالناس من ظلم ومصادرة أموالهم ووضعهم في السجون،– أمر بالتفتيش على حسن باشا، وحاسبه ورد الحقوق لأصحابها، وضيق عليه حتى جعله يقرر العودة إلى مصر،

---

[٢٩٧] في وثيقة عثمانية رقم ١٧٣١ من وثائق دفاتر المهمة رقم ٧، وهي عبارة عن تقرير أرسله حسن باشا إلى الباب العالي يشرح فيه أحوال ولاية اليمن، وكيف تمكن من هزيمة الأعداء بالتعاون مع مصطفى باشا. وهذا التقرير نعده من التقارير المغلوطة كون محتواه مخالفا لواقع الوضع في اليمن، كون حسن باشا يفيد من خلاله باستقرار الأمور، بينما حقيقة الوضع كان عكس ذلك.

[٢٩٨] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٢٤٦. النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص١٨٧.

[٢٩٩] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص١٨٨.

لولا وصول سنان باشا الوزير الذي عفا عنه، وضمه إلى حملته كأمير، وذلك بعد أن ذهب إليه واسترحمه للعفو عنه [٣٠٠].

حملة عثمان بن أوزدمير باشا إلى اليمن ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م:

هناك خلاف بين المؤرخين عما إذا كان عثمان باشا واليا على اليمن أم كان مجرد قائد حملة عسكرية، بالإضافة إلى هل كان توليه قيادة الحملة إلى اليمن بتكليف من السلطان العثماني أو أنه تم تكلفيه من قبل مصطفى باشا اللالا[٣٠١].

وحسب ما أورد النهروالي والذي يُعد المؤرخ الرسمي للدولة العثمانية في اليمن آنذاك، فإن مصطفى باشا هو من كلف عثمان باشا بقيادة الحملة، واتفقت معه في ذلك بعض المصادر المعاصرة[٣٠٢]، وخالفهم المؤرخ المعاصر سيد مصطفى سالم، وأشار إلى صدور فرمان سلطاني يقضي بتعيين عثمان باشا واليا على اليمن، ولم يتم تعيينه من قبل مصطفى باشا اللالا، وأن ما فعله الأخير هو مساعدة عثمان باشا لا غير[٣٠٣]. وكيفما كان الأمر؛ فإنه لم يُذكر لعثمان باشا في اليمن سوى هذه وسيطرته على مدينة تعز حتى جاء الوزير سنان باشا، لذلك جعلنا الحديث عنه تحت عنوان؛ حملة عثمان باشا إلى اليمن[٣٠٤].

---

[٣٠٠] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ٢١٩.

[٣٠١] يذكر محمد فريد بك صاحب كتاب تاريخ الدولة العلية ما مفاده: (ومن أعمال الوزير محمد باشا صقللي أن أرسل جيشا عظيما إلى بلاد اليمن في سنة ٩٧٦هـ الموافق ١٥٦٩م، تحت قيادة عثمان باشا الذي عين عاملا عليها لقمع ثورة أهاليها الذين خرجوا على الدولة العثمانية استجابة للمطهر بن شرف الدين، وقد حقق عثمان باشا انتصارا عليهم بمساعدة سنان باشا والي مصر آنذاك، ودخلت جيوشه صنعاء بعد أن فتحت جميع القلاع) محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، مرجع سابق، ص٢٥٥.

[٣٠٢] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص٢٠٥. ابن داعر، ص٤٢١.

[٣٠٣] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٢٥٥.

[٣٠٤] يوجد وثيقة عثمانية تعود لسنة ٩٧٦هـ الموافق ١٥٦٩م تم إرسالها إلى والي مصر مصطفى باشا تقضي بضرورة الرفع والإسراع في انطلاق حملة عثمان باشا، كما تقضى بالإفادة والإيضاح عن الأسباب التي جعلتها تتأخر في تحركها إلى اليمن، مع التوصية بضرورة اتحاد

عثمان باشا هو ابن أوزدمير باشا أحد ولاة اليمن الأوائل، جاءت حملته واليمن تمر بظروف استثنائية بعد أن تمكن المطهر من السيطرة على كامل اليمن آنذاك باستثناء زبيد التي كان بقايا العثمانيين فيها في وضع الاحتضار إن صح التعبير. لذلك فقد تمثل الهدف الرئيس من الحملة في إعادة الوضع في اليمن إلى ما كان عليه سابقا، وتعزيز السيادة العثمانية باستعادة الأراضي التي سبق وأن سيطر عليها المطهر. ويبدو أن معرفة الباشا عثمان الجيدة باليمن وعلاقته بها منذ أيام أبيه هي الدافع وراء تكليفه بقيادة تلك الحملة وقبوله بها[٣٠٥].

وكيفما كان الأمر؛ فقد اتجه عثمان باشا من السويس في حملة عسكرية مكونة من ٣٠٠٠ جندي نظامي و١٧سفينة[٣٠٦]، مارا بجدة التي دخلها في موكب عظيم بعد أن خرج لاستقباله شيخ الإسلام القاضي السيد حسين الحسيني مع جماعة من أتباعه، ومن جدة توجه إلى مكة لأداء العمرة، وكان في مقدمة مستقبلية شريف مكة السيد الحسين بن أبي نمي[٣٠٧].

وتذكر المصادر أن عثمان باشا كان يحمل فرمانا سلطانيا يقضي بإرسال أمير من أمراء السادة الأشراف مع مجموعة من العساكر من جهة شريف مكة إلى اليمن؛ للمساعدة في إطفاء نار الفتن فيها، ونتيجة لذلك عين شريف مكة أحد أبنائه لهذه المهمة، ثم ارتأى عثمان باشا أن المساعدة بالخيل والجمال أنفع من الإعانة

عثمان باشا مع حسن باشا من أجل فتح اليمن ودفع الأعداء عنه. الأرشيف العثماني، دفاتر المهمة: دفتر رقم ٧، وثيقة/حكم رقم ١٧٩٤، ص٢٩٧.

[٣٠٥] اللهواردي، ريان شاهين، نظرة إلى موضوع الفتح والفاتح في الدراسات التاريخية عن اليمن، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الأول عن اليمن في العهد العثماني الأول، جامعة أوشاك – تركيا، منشورات جامعة ٩ أيلول – أزمير- تركيا، ٢٠١٦م، ص٩٦. المقال باللغة التركية

[٣٠٦] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٢٥٩.

[٣٠٧] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص٢٠٧.

بالرجال؛ فسعى لذلك، ومن المحتمل أنه كان يتخوف من منافسة ابن شريف مكة له، نظرا لما يتمتع به من ثقة واحترام لدى الناس.

وقد خلص الأمر بالاتفاق على أن يدفع السيد الشريف إلى عثمان باشا ١٥٠ حصان و١٠٠٠ جمل عوضا عن توجه ابنه إلى اليمن. وبعد أن عاد عثمان باشا من مكة إلى جدة ركب البحر باتجاه اليمن بينما الخيل والجمال سايرته من البر، ووصل اليمن ونزل بالبقعة[٣٠٨]، ثم اتجه إلى زبيد، ودخلها في جمادى الأخرى سنة ٩٧٦هـ الموافق نوفمبر/ديسمبر ١٥٦٨م[٣٠٩]، وبوصوله إلى زبيد تعزز موقف العثمانيين وعادت معنوياتهم، وتحولوا من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم.

كانت خطة عثمان باشا الأولى بعد وصوله إلى زبيد تقتضي أخذ تعز من يد المطهر، وكان يحكمها عنه يومئذ علي بن الشويع، وقد أعد العدة لذلك، وخرج من زبيد حتى وصل إلى قرب تعز دون أن يعترضه شيء في الطريق، وخيّم خارج المدينة مقابل باب الشيخ موسى وبدأ بحصارها[٣١٠]. وكرد على ذلك، أرسل المطهر جيشا كبيرا كان قد جمعه من أبناء قبائل اليمن الأعلى، وأمّر عليه ابن أخيه محمد بن شمس الدين الذي وصل وعسكر به عند جبل الأغبر، لكنه لم يستطع فعل شيء للمحاصرين في تعز، وأرجع المؤرخون ذلك إلى افتقار محمد بن شمس الدين للذكاء الحربي والتدبير القتالي إضافة إلى بخله بالعطايا على الناس والجنود[٣١١].

---

[٣٠٨] البُقعة: ميناء صغير غرب مدينة زبيد، وجنب ميناء الفازة، وهي الميناء التي قدم إليها أبو موسى الأشعري ومعاذ بن جبل. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص١٨٥.

[٣٠٩] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص٢٠٧.

[٣١٠] الموزعي، ص٤٣.

[٣١١] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص١٧٨.

تمكن عثمان باشا من استعادة تعز وأخذها من يد المطهر في أواخر رجب سنة ٩٧٦هـ الموافق فبراير ١٥٧٠م بعد هروب علي بن الشويع منها[٣١٢]؛ لتعود بذلك إلى السيطرة العثمانية من جديد.

وبخصوص سقوط مدينة تعز في يد عثمان باشا سنة ١٥٧٠م؛ فقد أورد الموزعي رواية لم نجدها عند غيره وملخصها: مساعدة مجموعة من عقال مدينة تعز لعثمان باشا، حيث ذكر بأنهم كتبوا إليه سرا، وأعلموه بأنهم مضطهدون من قبل أتباع المطهر، كما أوضحوا له بأن الأمير علي بن الشويع كلفهم بحراسة الأبواب مع جماعة من أصحابه، وحددوا يوم نوبتهم في الحراسة، وأشاروا على عثمان باشا بأن يدخل في الوقت الذي حددوه له، وقد استحسن الباشا عثمان ذلك، واستصوب رأيهم وأشار عليهم أن يلبسوا عمائم سود؛ ليتميزوا عن جنود المطهر، وقد فعلوا ما أشار عليهم به، وعندما حان الموعد المحدد هجم عثمان باشا بجيشه على المدينة، وشجع جنوده بعد أن وعدهم بالترقيات والهبات، ودخل تعز من جهة الباب الكبير بعد حصار استمر لمدة ثلاثة أيام[٣١٣].

وإذا كانت مدينة تعز قد سقطت بسهولة في يد عثمان باشا؛ فمن الملاحظ أنه واجه معاناة كبيرة في السيطرة على قلعة القاهرة التي كان يتمركز فيها علي بن الشويع وأولاد المطهر، وقد كان لحصانتها الدور الأكبر في ثبات أتباع المطهر فيها، وقد حاصرها العثمانيون لحوالي أربعة أشهر، وخسروا كثيرا من العسكر أمام أسوارها، ولم يتمكنوا من أخذها آنذاك. وأثناء ما كان عثمان باشا محاصرا لقلعة القاهرة وصل إلى اليمن سنان باشا الوزير في حملته المشهورة[٣١٤].

---

[٣١٢] يذكر صاحب كتاب روح الروح أن علي بن الشويع خرج من تعز قبل دخول العثمانيين إليها.

[٣١٣] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص٤٢-٤٣.

[٣١٤] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ،٢٠٧-٢٠٨.

سنان باشا الوزير ١٥٦٩-١٥٧٠م:

بالرغم من قصر الفترة الزمنية التي قضاها الوالي سنان باشا في اليمن فإنها تُعد وبحق من أسخن فترات الوجود العثماني في اليمن وأكثرها إثارة؛ فقد استطاع في زمن قياسي أن يعيد السيطرة العثمانية في اليمن إلى سابق عهدها؛ بل واستطاع الوصول إلى معقل المطهر بن شرف الدين في كوكبان.

اهتم المؤرخون المعاصرون والمحدثون بالحديث عن سنان باشا الوزير وحملته إلى اليمن، وأسهبوا وأطالوا في الحديث عنها وعن ضخامتها، ووصفت بعض المصادر اليمنية المعاصرة ضخامة الحملة بالقول: إنه لم يسبق وأن جاءت إلى اليمن حملة مثلها على مر التاريخ[٣١٥]، أما المصادر التركية؛ فأشارت جميعها إلى أن سنان باشا هو فاتح اليمن الفعلي[٣١٦].

حملة سنان باشا الوزير إلى اليمن ١٥٦٩م[٣١٧]:

تكمن أهمية حملة سنان باشا على اليمن سنة ١٥٦٩م في أنها أعادت هيبة الدولة العثمانية، ليس في اليمن وحسب بل في الولايات العربية ككل، بعد أن كانت

---

[٣١٥] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص١٧٩. (ونرى أن عيسى بن لطف الله وقع في مبالغة عظيمة)

[٣١٦] إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية المعروف بكتاب التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ص٩٧.

[٣١٧] فيما يتعلق بحملة سنان باشا الوزير إلى اليمن، يوجد ٢٦ وثيقة في الأرشيف العثماني تتعلق بالموضوع، تحتويها دفاتر المهمة رقم (٧، ٩، ١٢، ١٤)، وقد سبق أن نشرها المؤرخ محمد عيسى صالحية سنة ١٩٨٧م ضمن حوليات جامعة الكويت. ومن المصادر العثمانية التي تناولت أحداث ووقائع حملة سنان باشا الوزير على اليمن؛ تاريخ فتح يمن، صنفه مصطفى بك المعروف برموزي، والذي كان يشغل منصب أمير لواء في اليمن، توفي قبل سنة ١٥٨٢م، الكتاب مجلد ضخم يقع في ٥٧٧ ورقة مخطوط محفوظ في مكتبة جامعة إسطنبول برقم ٦٠٤٥، ويوجد منه نسخة أخرى في مكتبة قصر توب كابي سرايي (قصر الباب العالي) في مجموعة روان تحت رقم ١٢٩٧. وللمزيد من الاطلاع على الأبحاث والدراسات(التركية) التي كتبت بشكل مباشر أو غير مباشر عن حملة سنان باشا الوزير إلى اليمن عام ١٥٦٩م انظر: اللهواردي، نظرة إلى موضوع الفتح والفاتح في الدراسات التاريخية عن اليمن، مرجع سابق، ص٩٥-١١١.

صورة الوجود العثماني قد ارتبط بالضعف العام الذي انتاب الدولة، خصوصا بعد وفاة السلطان سليمان القانوني، وقد أفرزت تلك الحملة سكونا في حركة الثورة ضد العثمانيين في البلاد العربية لفترة لا تقل عن نصف قرن[٣١٨]؛ لهذا فلا غرابة أن يكون موضوع تلك الحملة محط عناية أغلب المؤرخين العرب والأتراك.

ومما لا شك فيه أن سنان باشا الوزير كان يحظى بمكانة كبيرة لدى البلاط السلطاني؛ كونه من الشخصيات التي يُعتمد عليها في تثبيت دعائم الحكم العثماني في الولايات العربية، وقبل أن يذهب إلى اليمن في حملته المشهورة كان قد تولى طرابلس الشام وغزة ومالاطيا وكرمان وأرض روم[٣١٩] ثم حلب ومصر[٣٢٠].

كان الباشا سنان في مصر عندما صدرت الأوامر السلطانية التي تقضي بتكليفه بالذهاب إلى اليمن، وما إن علم بذلك حتى قام بتجهيز ما يقارب ٣٠٠٠ جندي[٣٢١] أغلبهم من مصر والشام مزودين بالسلاح والعتاد، وخرج من مصر في ١٧ رجب سنة ٩٧٦هـ الموافق ٥ يناير ١٥٦٩م، ووصل إلى ينبع في ١٢ شعبان من السنة المذكورة الموافق ٣٠ يناير ١٥٦٩م، ومن ينبع ذهب إلى المدينة المنورة ثم إلى مكة التي وصلها ليلة الأربعاء ٢٢ شعبان، وفي ٤ رمضان من السنة المذكورة تحرك من مكة إلى اليمن مع العلم أن عساكر الحملة كانوا قد اتجهوا بحرا

---

[٣١٨] صالحية، محمد عيسى، وثائق جديدة عن حملة سنان باشا إلى اليمن سنة ٩٨٦هـ /٦٨-١٥٦٩م، مجلة حوليات كلية الأداب، جامعة الكويت، الحولية الثامنة، ١٩٨٧م، ص١١. (صص٥-١١٦)

[٣١٩] أونال، أحمد، سنان باشا الكبير حياته وأنشطته السياسية ١٥٢٠-١٥٩٦م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة مرمرة، إسطنبول، ٢٠١٢م، ص٤-٨. (الأطروحة باللغة التركية)

[٣٢٠] البكري الصديقي، محمد بن أبي السرور ت ١٦٦١م، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية وذيلة اللطائف الربانية على المنح الرحمانية، تحقيق: ليلى الصباغ، دار البشائر، دمشق، ط١، ١٩٩٥م، ص٢٠٣.

[٣٢١] الأرشيف العثماني، دفاتر المهمة: دفتر رقم ٧، وثيقة/حكم رقم ٢٣٥٦، ج٣، ص١٩١.

من ينبع إلى جدة، بينما ذهب هو إلى المدينة، ولم يذهب معه إلا مجموعة من الأمراء والأغوات.

كانت جازان أول محطات سنان باشا في اليمن، وقد هرب حاكمها التابع للمطهر بعد علمه باقتراب الجيش العثماني منها، ودخلتها القوات العثمانية دون قتال في أواخر شهر رمضان سنة ٩٧٦هـ؛ ليسجل سنان باشا بذلك أول انتصار له بأرض اليمن[٣٢٢].

سقوط تعز في يد سنان باشا الوزير:

كانت مدينة تعز قد سقطت في أيدي العثمانيين بقيادة عثمان باشا، وعند وصول سنان باشا الوزير إلى اليمن كان عثمان باشا يحاصر قلعة القاهرة التي كانت ماتزال في يد قوات المطهر كما مر معنا سابقا. وكما هو معروف؛ فإن أخذ تعز دون السيطرة على قلعة القاهرة لا يعد نجاحا كاملا؛ لأهمية تلك القلعة وإشرافها المباشر على المدينة.

كان عثمان باشا يحتاج إلى الدعم والمساندة، الأمر الذي جعل سنان باشا يتجه على وجه السرعة إلى تعز، ولم يطل به المقام في زبيد[٣٢٣].

اقتضت خطة سنان باشا أولا بفك الحصار المضروب على الجيش العثماني في تعز، فذهب حتى وصل إلى مكان بين تعز وجبل الأغبر الذي تُعسكر فيه قوات المطهر بقيادة محمد بن شمس الدين، وقد عسكر في ذلك المكان، وعقد مجلسا استشاريا للأمراء والأغوات، واتفقت آراؤهم على أن يستقر سنان باشا في

---

[٣٢٢] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٤١٤. النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص٢١٨

[٣٢٣] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٢٣٦

معسكره، ويرسل مجموعة من الجنود يقدر عددهم بـ ٥٠٠ نفر لمهمة الهجوم على جبل الأغبر[٣٢٤]، وعندما رأى أتباع المطهر الجيش العثماني نزلوا إلى سفح الجبل، واشتبك الجيشان في معركة صغيرة بتاريخ ١٣ ذي القعدة سنة ٩٧٦هـ هُزم على إثرها جيش المطهر. وقد أخطأ محمد بن شمس الدين حين أمر أتباعه بالنزول إلى سفح الجبل، لأنهم أصبحوا لقمة سائغة للعثمانيين، وكان ذلك سببا رئيسا في هزيمتهم.

رجع الجيش العثماني إلى سنان باشا حاملا لواء النصر؛ فقام بتكريمهم وأغدق عليهم الهدايا والترقيات، وسجل بذلك ثاني نصر له في اليمن بعد أخذه لجازان. بعد ذلك وجه سنان باشا اهتمامه نحو قلعة القاهرة، وضرب عليها الحصار المشدد حتى اضطر من فيها من أتباع المطهر إلى الاستسلام في ١٧ ذي القعدة سنة ٩٧٦هـ الموافق ٣ مايو ١٥٦٩م مقابل إعطائهم الأمان. وبعد أن نزلوا من القلعة أمنهم الباشا سنان، وأكرمهم وضمهم إلى جيشه الأمر الذي أغاض عثمان باشا إذ كان يرى ضرورة قتلهم، وكانت هذه النقطة فاتحة خلاف بين القائدين وعلى إثرها اضطر سنان باشا أن يُصدر لعثمان باشا قرار إعفاء بإنهاء خدمته في اليمن[٣٢٥]. وبعد استيلاء العثمانيين بقيادة سنان باشا على تعز وقلعة القاهرة صفا له الجو للاتجاه نحو عدن والمناطق الجنوبية.

---

[٣٢٤] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص٢٢٢-٢٢٤

[٣٢٥] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص٤٤

أخذ سنان باشا الوزير لعدن:

تمتلك عدن مكانة خاصة عند العثمانيين على مر تاريخ وجودهم في اليمن، وكانت دائما ما تصدر فرمانات سلطانية صارمة عندما يلم بعدن خطب، أو يسطو عليها أحد، ولهذا فما إن علم الباب العالي بسقوط عدن بيد قوات المطهر بقيادة ابن الشويع حتى غضب السلطان، وتكدر خاطره، وأمر بضرورة استعادة عدن مهما كلف الثمن، وكان جلّ خوفه من استيلاء البرتغاليين عليها؛ كونهم إن سيطروا عليها سيصعب إخراجهم منها لمناعتها ومعرفتهم باستخدام الأسلحة الحديثة آنذاك، الأمر الذي سيترتب عليه منعهم للسفن التجارية من الدخول إلى البحر الأحمر[٣٢٦]، مع العلم أن العثمانيين قد اتخذوا تدابير سابقة للحيلولة دون سيطرة البرتغاليين على عدن وتوغلهم في البحر الأحمر، منها قيامهم بتأسيس قاعدة عسكرية في المخا سنة ١٥٦٤م[٣٢٧]، ولهذا فقد كان استعادة عدن أحد أهم أهداف حملة سنان باشا، نلمس ذلك من صيغة الفرمان السلطاني الذي قضى بتولي سنان باشا قائدا للحملة وشدد على ضرورة استرداد مملكة اليمن وحفظ ثغر عدن صونا للحرمين الشريفين[٣٢٨].

وعلى كل حال، فقد اقتضت خطة سنان باشا بمداهمة عدن من البر والبحر معا؛ فقام بإرسال قوات بحرية بقيادة الأمير خير الدين القبطان المعروف بقورت أوغلي، وكان معروفا بشجاعته وخبرته بشؤون البحر وحروبه، وقد خرج في حملته

---

[٣٢٦] للمزيد عن موضوع الصراع العثماني البرتغالي في القرن السادس عشر انظر: أوزبران، صالح، العثمانيون على طول الحدود من اليمن إلى البصرة، دار كتاب للطباعة والنشر، إسطنبول، ط١، ٢٠٠٤م، ص٤١-٥٤. (الكتاب باللغة التركية)

[٣٢٧] بوستان، إدريس، أهمية ترسانة السويس وجدة وموخا في الصراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر، بحث مقدم إلى الندوة الدولية حول اليمن في العهد العثماني صنعاء ١٦-١٧ ديسمبر ٢٠٠٩م، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (IRCICA)، إسطنبول، ٢٠١١م، ص٤١.

[٣٢٨] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ٢٣٣

البحرية من المخا يوم السبت ٢٨ من شوال سنة ٩٧٦هـ/ ١٥أبريل ١٥٦٩م. أما في الاتجاه البري فقد جهز حملة برية وعيّن عليها الأمير ممّي، المشهور بشدته وغلظته، خرج في حملته يوم السبت الموافق ٢٠ ذي القعدة من السنة المذكورة[٣٢٩]، متأخرا عن الحملة البحرية بحدود الشهر.

ولما وصل خير الدين إلى ساحل عدن استقر به، وأنزل مدافعه، وانتظر وصول العساكر البرية حتى يتم الإحاطة بعدن من البر والبحر، ووصل الأمير ممّي في جيشه البري، وأحاطوا بعدن من كل جانب، وضربوا حولها الحصار، ثم تم اقتحامها من جهة جبل شمسان ومن جهة البحر، ودخلها الجيش العثماني في ٢٨ ذي القعدة سنة ٩٧٦هـ/ ١٤ مايو ١٥٦٩م، وتم أسر حاكمها ابن الشويع مع مجموعة كبيرة من أتباعه، وقد خسر العثمانيون خسائر بشرية ومادية في سبيل استعادة عدن، وجُرح الأمير خير الدين بل كاد أن يُقتل، وذلك بعد أن تقدم إليه شخص من أتباع ابن الشويع موهما له بأنه يريد تقبيل يده، لكن تلك القبلة تحولت إلى طعنة بخنجر، أصيب على إثرها بجروح بليغة، الأمر الذي ترتب عليه قيام الأمير ممّي بقطع رأس قاسم بن الشويع لاتهامه بهذه الخيانة ومحاولته قتل الأمير خير الدين، كما أراد قتل ولده وأتباعه جميعا لولا تدخل الأمير خير الدين ومنعه من ذلك[٣٣٠].

يذكر بعض المؤرخين، خصوصا الموالين للعثمانيين، أن قاسم بن الشويع كان قد استنجد بالبرتغاليين عندما علم بتوجه القوات العثمانية إلى عدن، وقد استجابوا

---

٣٢٩ النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص٢٣٣-٢٣٤

٣٣٠ النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص٢٥٠-٢٥٢

له، وأرسلوا مجموعة من الجنود، لكن لم يصل إلى عدن إلا قارب واحد فيه نحو ٢٠ جنديا برتغاليا، بينما لم يتمكن البقية من الوصول لأن الأمير خير الدين حال بينهم وبين الوصول إلى عدن، وطاردهم في عرض البحر حتى لاذوا بالفرار[٣٣١]، ويبدو أن هذه الرواية ضعيفة تاريخيا؛ لعدم وجود دلائل تشير أو تؤكد على وجود جنود برتغاليين في عدن بعد الاستيلاء عليها، إضافة إلى عدم ذكر مصير العشرين الجندي الذين سبق لهم أن دخلوا عدن بطلب من ابن الشويع.

بعد السيطرة على عدن تم إرسال البشائر إلى سنان باشا الذي كان في غاية الترقب والانتظار، وكان حينها يتجهز للذهاب نحو صنعاء، ووصله خبر استعادة عدن في ذي الحجة من العام نفسه، الأمر الذي أفرحه ورفع من معنويات جيشه، وما كان من الباشا إلا أن قام على الفور بإرسال رسول إلى إسطنبول يبشرهم بخبر أخذ عدن وإعادتها إلى سيطرة الدولة العثمانية.

وفيما يخص وضع عدن بعد أخذها، فقد تركها سنان باشا تحت إمرة ابن أخته الأمير حسين، وعقد له لواء سلطانيا بذلك، وقام باستدعاء الأميرين خير الدين وممّي؛ لغرض مساعدته في حروبه في الشمال، كما قام بترقية جميع العساكر الذين شاركوا في فتح عدن، وأنعم عليهم، وعلى رأسهم الأميران السابق ذكرهما[٣٣٢].

وبسقوط عدن بيد العثمانيين سنة ٩٧٦هـ، يكون سنان باشا قد أنهى مرحلة مهمة من مراحل حملته وهي السيطرة على التهائم و السواحل اليمنية من جازان شمالا إلى عدن جنوبا، وبدأ يتفرغ لحروب المطهر في الشمال، ومن الملاحظ أن نجاحات سنان باشا العسكرية المتسارعة تعود إلى مجموعة من الأسباب على

---

[٣٣١] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص٢٥٠.

[٣٣٢] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص٢٥٤

رأسها، ضخامة الجيش العثماني الذي جاء به وقوته، إضافة إلى سهولة الجغرافية في المناطق التهامية والساحلية حيث ساعدته على إحراز انتصارات سريعة ومتوالية على العكس من المناطق الشمالية التي تكبّد فيها مشقة كبرى.

كان لشخصية سنان باشا دور كبير جدا في تحقيق الحملة لكافة أهدافها، فقد كان شخصية صادقة مع أعدائه وأتباعه على حد سواء، وكان يقف بكل شجاعة وحزم في وجه انحرافات بعض الجنود والأمراء العثمانيين، كما أن وفاءه بالوعود التي كان يقطعها يُعدّ سرا من أسرار نجاحه وتوسعه في اليمن، محاولا بذلك محو ما لحق بالعثمانيين من سمعة سيئة من بعض الولاة السابقين[٣٣٣].

توجه سنان باشا نحو الشمال واستيلاءه على صنعاء:

عَقد سنان باشا مجلسا استشاريا لكبار قادته ومستشاريه؛ لغرض اختيار الطريق المناسب للتحرك صوب صنعاء والمناطق الشمالية، واستدعى عثمان باشا- الذي كان حينها في تعز- لاستشارته في الأمر؛ كونه على علم بالطرق والمسالك بحكم خبرته في اليمن[٣٣٤]، لكن الأخير تمنع من الحضور؛ لأنه يرى نفسه ندا لسنان باشا وليس تابعا له، نلحظ ذلك من جوابه على سنان باشا حيث ثبت عنه أنه قال في جوابه: "الذي أعطاه الوزارة أعطاني البكلربكية، وكما أنه سرداد[٣٣٥] على من وصل إليه من العساكر المصرية، فأنا سرداد على من وصل معي من العساكر السلطانية، وليس من مقامي الوصول إليه، ولا يليق بمثلي المثول بين يديه"[٣٣٦].

---

[٣٣٣] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٢٦٢-٢٦٥

[٣٣٤] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص٢٣٦

[٣٣٥] سرداد: تعني قائد أو أمير الجيش. عمار، محمود، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان ١١٧-١١٨، كانون الثاني- حزيران ٢٠١٢م، ص٣٧٤.

[٣٣٦] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص٢٣٨.

بهذا يتضح لنا عمق الخلاف العثماني الداخلي، وفتح صفحة التنافس بين سنان باشا وعثمان باشا[٣٣٧]، وعليه انظم كثير من العساكر اليمنية إلى عثمان باشا؛ لقوة العلاقة التي كانت تربطهم به من قبل مجيء سنان باشا. وكرد فعل على ما سبق، عمل سنان باشا على عزل الباشا عثمان تفاديا لاتساع رقعة الخلاف.

وتذكر المصادر أن سنان باشا كان معه فرمان سلطاني يقضي بتفويضه في أمور اليمن، يعزل من يريد ويعيّن من يريد، وكان بحوزته فرمان آخر يقضي بعزل عثمان باشا عن ولاية اليمن، ولكنه لم يبده في البداية خوفا من المشاكل والاضطرابات ورغبة منه في الاستفادة من خدمات عثمان باشا[٣٣٨]، لكن عندما ظهر عصيانه كان لزاما عليه إظهار أمر عزله، ويُذكر أن عثمان باشا لما استلم أمر عزله امتثل للأوامر السلطانية وجهز حاله للرحيل، وتفيد المصادر بأنه تباطأ في الذهاب من اليمن بالرغم من تحذيرات سنان باشا له بسرعة المغادرة، والراجح أن تباطؤَه يرجع إلى انتظاره ردا من الباب العالي؛ لأنه كان قد أرسل رسولا فور عزله من قبل سنان باشا للتأكد من صحته، وقد جاء الرد من الباب العالي يؤيد ما قام به سنان باشا، فلم يكن منه إلا أن عزم على الخروج من اليمن[٣٣٩]، ويقال إنه أظهر الفرح والسرور بذلك وعزم إلى زبيد ليتوجه منها إلى مكة ثم إلى إسطنبول[٣٤٠].

ترك عزل عثمان باشا وخروجه من اليمن فراغا سياسيا في تعز، لذا كان لزاما على سنان باشا أن يضطلع بمهمة ترتيب الوضع فيها ومواصلة مسيره نحو

---

[٣٣٧] يذكر الباحث التركي أحمد أونال نقلا عن المؤرخ التركي علي أفندي، من مصنفه "تلخيص البرق اليماني" أن السبب الذي جعل عثمان باشا يتمرد على سنان باشا هو أن عثمان باشا كان يتوقع أن يتم تعيينه على اليمن وكان ينتظر ذلك. أونال، سنان باشا الكبير حياته وأنشطته السياسية ١٥٢٠-١٥٩٦م، مرجع سابق، ص ٢٩٠. على أفندي، تلخيص البرق اليماني، ص٢٠٦-٢١٨.

[٣٣٨] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص٢٤٢

[٣٣٩] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ،٢٤٤-٢٤٥.

[٣٤٠] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص٢٤٢

صنعاء، ونتيجة لذلك فقد استدعى حسن باشا- والي اليمن السابق- وعيّنه بدلا عن عثمان باشا[٣٤١] بعد أن أعطاه حزمة من النصائح والإرشادات؛ كون أهل اليمن كانوا يكرهونه ولا يرغبون في بقائه لما كان عليه من سوء تعامل وظلم أثناء ولايته لليمن من قبل. وبعد تعيينه لحسن باشا في تعز وترتيب أمورها واصل سيره نحو الشمال، وكان تحركه بطيئا نوعا ما بسبب الأسلحة الثقيلة، كالمدافع التي كانوا يجرونها على حيوانات، وأحيانا أخرى تُحمل على أكتاف الرجال.

كانت القاعدة[٣٤٢] أول محطات سنان باشا التي وصل إليها في ٢٧ ذي القعدة سنة ٩٧٦هـ/ ١٣ مايو ١٥٦٩م، وعسكر فيها لأيام، يتخير طريقا يسلكه نحو صنعاء، وبعد استشارات تم ترجيح ثلاثة طرق يمكن للجيش العثماني أن يسلكها صوب صنعاء، كان الطريق الأول: عبر نقيل أحمر، وهو طريق وعر، وجباله شاهقة، ويصعب مرور المدافع منه، ويتميز بقربه وباختصاره للمسافة، لكن وعورته جعلته ترجيحا أخيرا لدى سنان باشا.

أما الطريق الثاني؛ فكان عبر وادي سحبان، وهو طريق مثل سابقه وعر، وفيه مرتفعات جبلية شاهقة. والترجيح الأخير: كان عبر طريق ميثم[٣٤٣]، ويتميز بأنه طريق شبه سهلي، ويتخلله القليل من المرتفعات، وهو أطول مقارنة بالطريقين السابقين، وقد قرر سنان باشا الذهاب عبره؛ كونه أسهل لجر المدافع الثقيلة وعبور الجيش[٣٤٤].

---

[٣٤١] أونال، سنان باشا الكبير حياته وأنشطته السياسية ١٥٢٠-١٥٩٦م، مرجع سابق، ص٢٩٢.

[٣٤٢] القاعدة: منطقة في وادي نخلان التابع لمديرية ذي السفال محافظة إب، حاليا مدينة حديثة تقع فوق هضبة مسطحة أفقيا ورأسيا. وهي بجوار الطريق النافذ إلى تعز، كانت سابقا عبارة عن مطرح للمسافرين من إب إلى تعز والعكس. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج٢، ص١٢٣٩.

[٣٤٣] ميثم: عزلة من بعدان وأعمال محافظة إب. الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، مرجع سابق، ج٢، ص٧٢٦.

[٣٤٤] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ٢٤٨-٢٤٧.

وبعبور سنان باشا طريق ميثم نجا من الكمائن التي كانت معدة له في الطرق الأخرى، لأن أتباع المطهر كانوا قد قاموا بعمل كمائن في طريق نقيل أحمر وطريق وادي سحبان ظنا منهم أن الجيش العثماني سيسلكها؛ كون تلك الطرق كانت تختصر المسافة نحو صنعاء.

وقد خرج الجيش من القاعدة يوم عرفة ١٠ ذي الحجة من السنة المذكورة، بعد أن تعرض لهجوم بالقرب من مسجد القاعدة من قبل مجموعة من القبائل، وبوصول الجيش وادي ميثم تفرع الطريق إلى طريقين، طريق كله مزارع، وهو بين جبلين مستطيلين، وطريق بعيد فيه التفاتات، وكلا الطريقين ينتهيان إلى حصن التعكر[٣٤٥]، وقد اختار الباشا سنان الطريق الثاني لأن الأول كله أوحال وأطيان، وقبل وصول حصن التعكر حدثت اشتباكات بين العثمانيين ومجموعة من أتباع المطهر، كانوا متربصين لهم بالطريق، قُتل في تلك الاشتباكات عدد من الجنود والقادة العثمانيين، لكن الجيش العثماني استطاع تجاوز تلك المرحلة وواصل طريقه[٣٤٦].

أخذ سنان باشا لحصن التعكر:

عسكر سنان باشا في محل بين جبلة وحصن التعكر، ويُذكر أن القبائل بعد وصوله انقسمت إلى قسمين: قسم طلب الأمان وأظهر الطاعة للعثمانيين، وقد استقبلهم الباشا وأعطاهم الأمان على أنفسهم وبلادهم، ووجه الجنود بعدم التعرض

---

[٣٤٥] حصن التعكر: حصن عظيم من أقدم معاقل اليمن وأحصنها، وهو جبل تقع في سفحه الشمالي مدينة جبلة ومن جنوبه مدينة ذي السفال، أُسس قبل حوالي ثلاثة ألف وخمسمائة سنة، اكتسب شهرة كبيرة على مر التاريخ اليمني، خصوصا في عهد الدولة الصليحية، نظرا لمناعته وحصانته؛ فالعثمانيون كانوا يعتبرون السيطرة على التعكر نقطة مهمة تمهد لتوسعهم في اليمن الأعلى، وبدون أخذه لا يمكن أن يستقر لهم الوضع في المنطقة الشمالية، وهو حاليا ومن قبل أربعمائة سنة خراب. الهمداني، صفة جزيرة العرب، مصدر سابق، ص١١٩-١٢٠. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص٢٣٣.

[٣٤٦] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص٢٦٤-٢٦١.

لهم في الطرقات والأسواق، وأمر ألا يأخذ أحد شيئا إلا بحقه، ومن خالف وتعدى فسينال عقابه. أما القسم الثاني؛ فقد انضموا إلى قوات المطهر معلنين عدم طاعة العثمانيين، وتجمعوا في حصن التعكر[٣٤٧].

قام الجيش العثماني بمحاصرة الحصن، ثم ضربه بالمدفعية الثقيلة، ولم يلبث من فيه أن استسلموا بعد أن أعطاهم الباشا سنان الأمان، وأرسل من خواصه من تسلم الحصن، وأمر بإخراج من فيه بدون سلاح ولا متاع، وأطلقهم وعفا عنهم، وكانت السيطرة على الحصن في ٢٦ ذي الحجة سنة ٩٧٦هـ/ ١١يونيو ١٥٦٩م، بعد حصار استمر لمدة خمسة أيام[٣٤٨].

وبعد أن تم السيطرة على حصن التعكر رتبه سنان باشا، وحصنه بالمدافع والأسلحة وترك فيه حامية صغيرة من الجنود، ثم قام بالهجوم على بلاد إدريس الأعور الذي سبق أن خان العساكر العثمانية وغدر بهم- بتنسيق مع المطهر- بعد خروجهم من تعز، وكان لإدريس الأعور قلعة محصنة تسمى قلعة بحرانة[٣٤٩]، أرسل لها سنان باشا من يحاصرها، وتمكن الأعور من الفرار مع أتباعه، ودخلتها العساكر العثمانية في محرم سنة ٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م، وأمر الباشا سنان بهدم القلعة بحجة أنها قليلة الجدوى وعديمة النفع[٣٥٠].

---

[٣٤٧] للمزيد انظر: النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص٢٦٦.

[٣٤٨] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٤١٧.

[٣٤٩] بحرانة: حاليا حصن خارب في أعلى منطقة السيف الواقعة في الشمال الغربي من مديرية ذي السفال، تقع في سفحه قرية تحمل اسمه وهي عامرة حاليا. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص١٣٩.

[٣٥٠] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ٢٦٨

أخذ العثمانيين لحصن خدد[351]:

يُذكر أن عبد الله الداعي[352] هو من عرض على سنان باشا تكليفه في أخذ حصن خدد وجبل الحبيش، وقد استجاب له الأخير، وكلفه بتلك المهمة، وزوده بحوالي ١٠٠ شخص ممن دخلوا في خدمة الدولة العثمانية بعد أخذ تعز. ومن الملاحظ أن الداعي لم يعتمد عليهم بشكل أساسي؛ بل اعتمد على أتباعه الذين قدرتهم المصادر بحدود الـ ٤٠ شخصا، وقد كان محقا في تصرفه هذا، فما إن التقى الفريقان حتى انسلخ من أتباع الداعي ١٠٠ مقاتل، وهم الذين ألحقهم سنان باشا معه، وانضموا إلى جيش ابن المطهر. وعلى كل حال؛ فقد استطاع الداعي بعد نزال وقتال السيطرة على جبل الحبيش وقلعة خدد وأخذها من يد لطف الله بن المطهر في ٣ محرم سنة ٩٧٧هـ/ ١٨ يونيو ١٥٦٩م[353].

سيطرة سنان باشا على إب و بعدان:

بعد هروب لطف الله بن المطهر من قلعة خدد، اتجه نحو إب، وكان برفقته ابن عمه محمد بن شمس الدين وعلي بن الشويع، ولمواجهة العثمانيين؛ فقد أمدهم المطهر بحوالي ٢٠ ألف مقاتل. ووقع الصدام بين الفريقين في ١٠ محرم سنة ٩٧٧هـ/ ٢٥ يونيو ١٥٦٩م، وسقط العديد من القتلى من الطرفين في معركة انهزم

---

[351] حصن خدد: بفتح ثم كسر، قلعة مشهورة من بلاد حُبيش شمال مدينة إب. الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، مرجع سابق، ج١، ص٣٠٥.

[352] عبد الله الداعي: شخص ينتمي إلى الطائفة الإسماعيلية، وكان من أشد أعداء المطهر، وقد دخل في خدمة الدولة العثمانية، وبعد أن تدهور الوضع وسيطر المطهر سُجن في صنعاء، لكنه تمكن من الهروب من السجن والتحق بخدمة العثمانيين في زبيد تحت قيادة الوالي سنان باشا.

[353] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ٢٧٠-٢٧١.

على إثرها قوات المطهر، وهرب أتباعه من إب إلى بعدان[٣٥٤]، ثم عزم سنان باشا مواصلة المسير باتجاه جبل بعدان، وتبعهم مع ٦ ألف مقاتل، وتمكن من السيطرة عليه بعد أن هرب منه أتباع المطهر، كما أخذ سنان باشا في اليوم نفسه حصن هران. ولقاء تلك الانتصارات؛ فقد قام سنان باشا بإغداق العطايا للجيش، وأمر لهم بالترقيات، وزاد لهم في العلوفات، ورفع من مستواهم المعنوي والمادي، ومن الملاحظ أن الخزينة كانت قد بدأت بالانتعاش بعد السيطرة على الموانئ خصوصا المخا وعدن، حيث عادت العائدات التي كانت تجبى من الضرائب والبضائع التي يتم تصديرها من اليمن خصوصا البهارات[٣٥٥].

أخذ سنان باشا حصن حب:

حصن حب هو قاعدة بعدان كما تقدم ذكره سابقا، وعندما قدم إليه سنان باشا كان علي بن شرف الدين متمركزا فيه مع ما يقارب ٧٠٠ شخص من أتباعه، ولأخذ حصن حب يتطلب بذل جهد مضاعف؛ نتيجة لحصانته ومنعته وصعوبة الوصول إليه، كما يصعب التقدم نحو ذمار وصنعاء دون السيطرة عليه. ولهذا فقد كلف سنان باشا بالمهمة اثنين من أمرائه هما محمود بك الكردي وبرويز بك، وزودهم بحوالي ٢٠٠ فارس، وترك لهم من الأسلحة والذخائر والأموال ما تكفيهم بينما هو توجه لأخذ باقي البلاد[٣٥٦].

---

[٣٥٤] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ٢٧٢-٢٧٤.

[٣٥٥] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ٢٧٨.

[٣٥٦] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص٢٨١.

أخذ سنان باشا لذمار:

توجه سنان باشا مع جيشه إلى ذمار في ١٩ محرم سنة ٩٧٧هـ/ ٤يوليو ١٥٦٩م، ونزل بوادي سهيل، وبقي فيه يومين ثم ارتحل إلى نقيل سمارة[٣٥٧]، وعبره الجيش العثماني دون أن يلاقى أي مخاطر تُذكر، وقد يعود ذلك إلى خوف القبائل بعد أن وصلت إليهم سمعة الجيش العثماني بقوته وعتاده خصوصا بعد الاستيلاء على إب وبعدان وحصن حب. ومن المحطات التي عسكر فيها الجيش العثماني وادي يريم، وأقام فيه ستة أيام منتظرا وصول المدافع والآلات الحربية الثقيلة التي تأخرت بعض الوقت في نقيل سمارة، وأثناء إقامة سنان باشا في وادي يريم، جاءه أهل ذمار واستقبلوه وبذلوا له الطاعة، ثم انتقل على رأس جيشه إلى ذمار، ودخلها دون أي مقاومة تُذكر[٣٥٨].

استيلاء سنان باشا على صنعاء:

بعد أن سيطر العثمانيون على ذمار وبالكيفية التي أشرنا إليها اكتسب الجيش العثماني معنويات أكثر، وكان غالبا ما يصل خبره قبله؛ فيخاف منه أعداؤه قبل وصوله، نظرا لقوة تسليحه وحزم قائده.

وعندما علم المطهر بن شرف الدين بسيطرة العثمانيين على ذمار واتجاههم نحو صنعاء خرج منها واتجه إلى ثلا، بينما الجيش العثماني واصل مسيره إليها ودخلها في ٢٦ يوليو عام ١٥٦٩م الموافق ١١ صفر سنة٩٧٧هـ؛ لتعود إليها

---

٣٥٧ سُمَارَة: نقيل فيما بين مدينة إب ومدينة يريم، وكانت من قبل تُعرف بنقيل صَيْد. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص٨٠٩.

٣٥٨ النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ٢٨٢-٢٨٣.

السيطرة العثمانية بعد غياب لسنوات[359]. وبعد أن سيطر الجيش العثماني بقيادة سنان باشا على صنعاء أخذ يخطط لتصفية جيوب المطهر القريبة منها، فأرسل سرية إلى قطران أحد القادة الموالين للمطهر كان متمركزا في حصنه المنيع في خولان، وتذكر المصادر عنه أنه سبق له الاتفاق مع المطهر أنه في حال توجه سنان باشا إلى ثلا؛ فإنه يتعقبه ويقطع الطريق بينه وبين صنعاء، ويُقال إن الباشا سنان اطلع على ذلك المخطط قبل ذهابه إلى ثلا مما جعله يبتدئ بالإغارة على قطران، وقد عيّن لتلك المهمة مجموعة من الجنود يقودهم الأمير ممّي، واستطاعوا السيطرة على حصن قطران في بدايات ربيع الأول سنة ٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م[360] بعد أن هرب هو وأتباعه.

وهجم العثمانيون على وادي السر[361] الذي كان يحتوي على قرى كثيرة تدين بالولاء للمطهر بن شرف الدين، وكُلف بتلك المهمة مجموعة من العساكر بقيادة حسن باشا، ويُذكر أن سنان باشا أمره أن يهجم على القرى، وينهب ما يجد فيها من الغلال والرجال، كما أمره ألا يقتل أحدا منهم؛ بل يأخذهم أسرى لكي يتم استخدامهم في الكوركجية الذين يُستخدمون لسحب المجاديف في البحر؛ كونه كان في احتياج كبير لذلك، وقد نفذ الباشا حسن ما أُمر به[362].

[359] حراز، السيد رجب، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠-١٩٠٩م، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٧٦. النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ٢٨٤-٢٨٦(يتم التأكد من المصادر الزيدية).

[360] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ٢٨٧-٢٨٨.

[361] وادي معروف في بني حشيش شمال شرق صنعاء. الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٢، ص٢١٩.

[362] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ٢٨٩-٢٩٠.

استيلاء سنان باشا على شبام كوكبان:

تعد كوكبان بما فيها من قلاع وحصون آخر معاقل المطهر بن شرف الدين الذي كان قد انسحب إليها وتحصن بها بعد أن سيطر العثمانيون بقيادة سنان باشا الوزير على صنعاء، وكان سنان باشا يعرف أنه بسقوط كوكبان سينتهي أمر المطهر، ويتسنى له السيطرة على شمال اليمن بالكامل أو بالأصح السيطرة على مراكز القرار في الشمال.

وقد خرج من صنعاء باتجاه شبام كوكبان في ٤ ربيع الأول سنة ٩٧٧هـ/ ١٧ أغسطس ١٥٦٩م، وتوقف عند قلعة المنقب[٣٦٣] وأقام بها ثلاثة أيام ينتظر وصول المدافع التي كانت قد تأخرت لصعوبة نقلها، ثم انتقل من المنقب إلى شبام بعد أن تمكن من السيطرة عليها في منتصف ربيع الأول من السنة المذكورة[٣٦٤]، وبعد شبام تبقى على سنان باشا المهمة الكبرى وهي أخذ كوكبان تلك القلعة المنيعة الحصينة.

وبعد أن فرغ سنان باشا من أمور شبام قرر نقل محطته ما بين ثلا وكوكبان، وعقد مجلسا استشاريا للأمراء والعقلاء، وقد أجمعوا على أن السيطرة على ثلا وكوكبان لن يكون بالأمر السهل، وسيكلف الكثير وربما تنفد عليهم المؤن، لذلك رأوا ضرورة طلب العون والمساعدة من بعض القبائل الموالية للعثمانيين، وكُلف لتلك المهمة الشيخ عبد الله الداعي الذي توجه إلى المنقب وسائر بلاده ليطلب المساعدة. وأثناء تواجد الجيش العثماني في ثلا وكوكبان نقصت المؤن عليه؛ فأمر سنان باشا بالإغارة على قرية حبابة[٣٦٥] التي كان فيها من النعم والخيرات ما دفع العثمانيين

---

[٣٦٣] المنقب بلدة تمتد من شرقي مدينة شبام كوكبان إلى أسفل مدينة ثلا. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج٢، ص١٦٦١.

[٣٦٤] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ٢٩١-٢٩٣.

[٣٦٥] حَبَابة: قرية كبيرة مشهورة ما بين ثلا وشبام كوكبان، تبعد عن صنعاء بحوالي٤٦ كيلومتر، سميت باسم حبابه بن لُباخة بن ذي أقيان بن حمير الأصغر، ويوجد فيها مآثر قديمة حميرية وإسلامية، وتمتاز بوفرة مياهها وصفاء جوها. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص٤٠٢.

للإغارة عليها[٣٦٦]. وأثناء إقامته في تلك المنطقة حدثت بينه وبين بعض الطوائف الزيدية مناوشات وسرايا صغيرة. وقد وضع خطة لأخذ قلعة كوكبان تتمثل في محاصرتها من الأمام والخلف، فكلف الأمير حسن باشا ومعه حوالي ١٥٠٠ نفر بمحاصرتها من الخلف بينما هو تقدم من الأمام، وقد نجح بعض أفراد جيش حسن باشا باختراق الجبل والصعود، لكنهم لقوا حتفهم جميعا ويقدر عددهم بـ ١٥ رجلا[٣٦٧]. بعدها بحث سنان باشا أثناء تقدمه إلى ذيل جبل كوكبان عن ثغرة يستطيع من خلالها اقتحامه، لكنه لم يفلح في ذلك بسبب مناعة الجبل وحصانته، أما المطهر فقد حاول منع وصول العثمانيين إلى كوكبان بتأليب بعض أتباعه وتشجيعهم على الإغارة على مقر إقامة سنان باشا، كما أرسل أحد أمرائه ويدعى فرحان مع مجموعة من العسكر لقتال العثمانيين، وقد اشتبكوا معه لكنهم انهزموا وقُتل قائدهم الأمير فرحان[٣٦٨].

وقد وقعت واقعة في ذيل جبل كوكبان بين القوات العثمانية من جهة وبين الهادي ولطف الله أبناء المطهر من جهة أخرى، انهزم على إثرها أبناء المطهر وقتل الهادي[٣٦٩]. ويبدو لنا أن سنان باشا لم يستطع أن يحقق أي نصر يُفضي إلى فتح كوكبان مما جعله يغير على القرى والأماكن السهلية القريبة لعله يحقق نصرا يعزز به جيشه، ويجعل منه مصدرا لمؤنته، ولهذا فقد توجه للسيطرة على حصن حب العروس[٣٧٠] بالرغم من أنه كان بينه وبينهم اتفاق يقضي بالتزامهم- في حال سيطر سنان باشا على كوكبان وثلا وشبام- بالدخول في طاعة العثمانيين مباشرة،

---

[٣٦٦] للمزيد انظر: النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ٢٩٥-٢٩٦.

[٣٦٧] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ٣٠٢.

[٣٦٨] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ٣٠٧.

[٣٦٩] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ٣١٠.

[٣٧٠] حصن يحاذي جبل كوكبان من جهة الجنوب.

كما يقضي بعدم تقديم العون والمساعدة للمطهر، ولهذا فقد أغار عليهم سنان باشا بحجة أنهم يسعون لقطع الميرة عن الجيش العثماني ويميلون إلى المطهر، واستولى على الحصن بعد مقاومة غير كبيرة من أهله، وتم نهب ما فيه من الغلال ثم أمر بهدمه في ٢٥ ربيع الأخر سنة ٩٧٧هـ/ ٧ أكتوبر ١٥٦٩م[٣٧١].

وبعد المحاولات الفاشلة للسيطرة على كوكبان رأى سنان باشا أن يتم الهجوم عليه عن طريق عروان على أن يكون ذلك في الليل؛ ليتواروا عن أنظار أتباع المطهر، لكن قوات المطهر كانت قد سبقتهم بسد الطرق المؤدية إلى كوكبان بالكامل[٣٧٢]. وبالرغم من تلك الإعاقة فإن قوات العثمانيين حاولت الوصول إلى هدفها، ووقعت مناوشات بين الفريقين استمرت ليوم ونصف، ثم قرر سنان باشا ضربه بالمدافع بعد أن عجز عن الزحف نحوه، وأحدثت المدافع أضرارا، لكنها لم تتح للعثمانيين السيطرة على كوكبان.

تمثلت آخر محاولات سنان باشا لأخذ كوكبان بالهجوم باتجاه قلعة بيت العز التي كانت أقرب قلاع كوكبان إلى ثُلا، وقد عيّن لتلك المهمة جماعة انتقاهم وصرف لهم الأسلحة والذخائر اللازمة وتوجهوا ليلة الجمعة ١٧ ربيع الآخر سنة ٩٧٧هـ/١٥٦٩م، ولكنهم انكسروا في الزحف الأول وقتل منهم حوالي ١٠ أشخاص، ارتطمت بهم الصخور التي كان يسقطها أتباع المطهر عليهم[٣٧٣].

---

[٣٧١] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ٣١٦.

[٣٧٢] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٣٩.

[٣٧٣] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ٣١٨.

وبعد محاولات استخدم فيها العثمانيون المدافع لضرب أسوار القلعة استطاعوا الوصول إلى قلعة بيت عز، ليسقط بذلك أول حصون جبل كوكبان، وذلك في ٢٦ جمادى الأولى سنة ٩٧٧هـ الموافق ٢٧ أكتوبر سنة ١٥٦٩م.

وبوصول العثمانيين إلى قلعة بيت عز يكونون قد وصلوا إلى أعلى جبل كوكبان الذي هو عبارة عن هضبة يوجد عليها مجموعة من القلاع المحصنة أهمها حصن ثلا. وبعد سقوط قلعة بيت عز تقدم حسن باشا إلى حصن كوكبان لمحاصرته بعد أن أمده سنان باشا بما يلزم من الرجال والعتاد، وقد لاقى الجنود العثمانيون الويلات أمام ذلك الحصن لمناعته الشديدة ولقوة وسائل الدفاع عنه، فهو مرتفع وشاهق وأكثر من ذلك أنه محاط بخندق عميق وعريض يصعب اختراقه.

وبذل العثمانيون جهودا كبيرة في سبيل الوصول إليه إلا أن مناعته وقوة المدافعين عنه حالا بينهم وبين السيطرة عليه بالرغم من محاولتهم ردم جزء من الخندق بالحجارة، وجلب أخشاب من صنعاء لعمل جسر فوقه[٣٧٤].

الصلح مع المطهر:

مع استمرار النزاع الشديد بين العثمانيين والمطهر سعى كل فريق للبحث عن طريقة يتخلص بها من الآخر أو على الأقل يحصل بها على دعم لوجستي ومعنوي يعزز بها موقفه.

وسعى سنان باشا إلى استمالة بعض القبائل عن طريق عبد الله الداعي الذي أرسله إلى بعض قبائل همدان التي ينتمي إليها، وذلك لاستقطاب ما يمكن استقطابه منهم أو على الأقل ضمان اتخاذهم لموقف الحياد إزاء صراع العثمانيين مع

---

[٣٧٤] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٢٨٦.

المطهر، ومن جهة أخرى عمل الباشا سنان بعض الإصلاحات التي من شأنها أن تحفظ كيان العثمانيين وتعزز موقفهم، فعزل بعض الأمراء الذين كان يتذمر منهم المجتمع ويشكو جورهم[٣٧٥].

وفي المقابل عمل المطهر على المسار نفسه تقريبا حيث أخذ يؤلب القبائل اليمنية على العثمانيين، فكتب إلى قبائل صعدة وغيرها يطلب النجدة ويحرضهم على الجهاد، ويذكر لهم ما يعمله العسكر العثمانيون من نهب وسلب وقتل وأسر وانتهاك للحرمات، وقد استجابت بعض القبائل لطلب المطهر، وكان أول الوفود الواصلة إليه وفد صعدة، يقودهم أحمد بن الحسين المؤيدي ومعه مجموعة من أعيان تلك الجهات، كما طلب المطهر من أهل قائفة والحدا ومن الشيخ قطران السحامي والشيخ علي بن بشير أن يشنوا غارات على العثمانيين في مناطقهم؛ لإشغال العثمانيين بجبهات متعددة، لما من شأنه التخفيف عليه في كوكبان[٣٧٦].

ولم يكتفِ المطهر بذلك بل عمل على تهييج المجتمع بكل فئاته، واستغل الجوانب الدينية لكسب الناس إلى صفه، من ذلك ما روي عنه من أنه رأى الرسول صلى الله عليه وسلم في منامه يعده بالنصر على العثمانيين، ويبشر بقرب انتهاء دولتهم وكسر شوكتهم، وأنه يتوجب على الأمة قتالهم، ويضيف بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أمره برفع الخراج عن أهل اليمن لمدة ثلاث سنوات والعفو عنهم ومسامحتهم عما مضى لهم من سابق الهفوات، وأكد المطهر بأن علامة صدق ما أخبرهم به عن الرسول أنه سيحدث كسوف للقمر في ليلة الرابع عشر من شهر

---

[٣٧٥] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٢٨٤.

[٣٧٦] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ٧٤٩. عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص١٨٦.

شوال من السنة نفسها، فإذا حدث ذلك وتحقق صدق رؤياه فإن على الناس النفير العام ضد العثمانيين، وقد وقع الكسوف في الوقت المحدد، واستفاد المطهر من ذلك الحدث، وقامت أغلب القبائل بالوقوف إلى جانبه، ومما يجب الإشارة إليه هو أن بعض المصادر المعاصرة أشارت إلى أن المطهر استفاد من التقاويم في مسألة كسوف القمر[٣٧٧]، وخلاصة الأمر هو أن كل طرف سعى بقدر استطاعته لتحقيق مكاسب سواء كانت سياسية أو عسكرية.

بعد أن مل الفريقان وتعبا من المواجهات- التي بلغت كما وصفها أحد المؤرخين ٨٣ واقعة أثناء حصار كوكبان فقط[٣٧٨]- كان الصلح أقرب إلى الجميع، وكان كلا الطرفين يريد ذلك، فسنان باشا كان قد ضاق ذرعا من طول الحروب وتوسعها، إذا ما علمنا أن أتباع المطهر كانوا، في كثير من الأحيان، يتبعون أسلوب حرب العصابات معه، ويعتمدون على الجهود الفردية في كثير من الأحيان[٣٧٩]، كما واجه سنان باشا كذلك مشاكل خارجية، تمثلت في عدم اهتمام والي مصر آنذاك إسكندر باشا الشركسي(١٥٦٨- ١٥٧١)، فلم يكن يعبأ بما يحدث في اليمن، ولم يقدم الدعم الكامل لسنان باشا بالرغم من صدور أوامر سلطانية إليه تقضي بأن يكون سندا له طوال مدة إقامته في اليمن، وأن يمدّه بما يحتاج إليه من المال والرجال حتى تحقيق أهداف حملته[٣٨٠].

---

٣٧٧ النهروالي، البرق اليماني، مرجع سابق، ص٣٧٧-٣٧٨.

٣٧٨ عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص١٨٦.

٣٧٩ سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص ٢٧٩-٢٨١.

٣٨٠ الأرشيف العثماني، دفاتر المهمة: دفتر رقم ٧، وثيقة/حكم رقم ٢٦٦٤، ص٩٦٥. الأرشيف العثماني، دفاتر المهمة: دفتر رقم ٧، وثيقة/حكم رقم ٢٦٦٥، ص ٩٦٥-٩٦٦.

وفي الاتجاه الآخر فقد كان المطهر وابن أخيه محمد بن شمس الدين قد ضاقا ذرعا بطول الحصار المضروب عليهم، واستنزفت حروبهم وصراعهم مع العثمانيين الكثير من طاقاتهم البشرية والمادية. لهذا كان اتجاه الفريقين إلى الصلح أقرب من الاستمرار في الأعمال الحربية بالرغم من مكابرة كل منهما في المبادرة بطلب الصلح.

جرت المفاوضات في البداية بين محمد بن شمس الدين–ابن أخ المطهر– وبين سنان باشا أثناء محاصرة الأخير لكوكبان، وكان الوسيط بين الطرفين أحد القضاة اليمنيين المقربين من سنان باشا، وقد حرص محمد بن شمس الدين أن تجري المفاوضات بشكل سرى خوفا من عمه المطهر، فتم عقد صلح بين محمد بن شرف الدين وسنان باشا في ١٠ ذي الحجة سنة ٦٧٧هـ الموافق ١٦ مايو سنة ١٥٧٠م. وبموجب هذا الصلح بقى محمد بن شمس الدين في حصن كوكبان مقابل أن تكون الخطبة والسكة للسلطان العثماني، وهذا يعني بشكل أو بآخر اعتراف ضمني بالسيادة العثمانية.

ومن الملاحظ أن الصلح هذا شكل خطوة تمهيدية أفضت في النهاية إلى عقد صلح مع المطهر نفسه، بالرغم من انزعاجه من انفراد محمد بن شمس الدين واتخاذه خطوة سابقة مع العثمانيين[٣٨١].

وقد حاول المطهر ثني ابن أخيه بالعدول عن الصلح ومواصلة الضغط على العثمانيين حتى يتمكنوا من إملاء شروطهم على سنان باشا كما يريدون، لكن ضيق محمد بن شمس الدين من طول الحصار جعله يتجاهل نصائح عمه ويواصل مسعاه في المفاوضات.

---

[٣٨١] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٢٨٦ – ٢٨٧.

وكيفما كان الأمر، فقد وقع الصلح العام بين العثمانيين والمطهر على أن يعترف الأخير بالسيادة العثمانية، وذلك بأن تكون الخطبة والسكة باسم السلطان العثماني، مقابل أن تبقى له ممتلكاته الخاصة على ما كانت عليه أثناء فترة ولاية أوزدمير باشا وهي: (ثلا- الظواهر- صعدة- ذي مرمر- نهم- الشرف- حجة- لاعة- الأهنوم)، مع وجود حامية عثمانية صغيرة لا تتعدى الـ٣٠ جنديا، تتمركز في صعدة، لتكون رمزا لامتداد السيادة العثمانية على أقاليم اليمن[٣٨٢] جميعها، وقد وافق المطهر على ذلك كونها حامية صغيرة، ولن يكون لها أي تأثير أو تهديد على حكمه[٣٨٣].

وبعد عقد الصلح تنفس الطرفان الصعداء، بالرغم من أنه لم يؤدِ إلى الاستقرار والهدوء الكامل في اليمن؛ بل بقي هناك بعض القلاقل في بعض المناطق التي كانت مناوئة للحكم العثماني، ولم يطل المقام بسنان باشا في اليمن بعد الصلح، فأثناء المفاوضات مع المطهر كان قد وصل إلى زبيد والي اليمن الجديد بهرام باشا في ٩ ذي الحجة سنة ٩٧٧هـ الموافق مايو سنة ١٥٧٠م، يحمل فرمانا سلطانيا يقضي بتوليه على اليمن[٣٨٤].

وبعد إكمال أمور الصلح مع المطهر رجع سنان باشا إلى صنعاء، ومنها أعد ترتيباته لمغادرة اليمن، ليدخل اليمن مرحلة جديدة من تاريخه تحت ولاية بهرام باشا.

---

[٣٨٢] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٤٢٧.

[٣٨٣] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ٢٩٢-٢٩٥. يذكر صاحب كتاب غاية الأماني؛ أن تمام الصلح بين المطهر وسنان باشا كان على يد الشريف محمد بن حسن العياني الحمزي (يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٤٢).

[٣٨٤] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٢٩٦. (يذكر صاحب كتاب روح الروح؛ أنه تم توقيع الصلح بحضرة بهرام باشا وحسن باشا ومجموعة من الأمراء، وكان ممثل المطهر في التوقيع السيد شمس الدين بن جحاف. روح الروح، ص ١٩٠).

وأخيرا، فقد كانت حملة سنان باشا على اليمن بداية لمرحلة طويلة من السيطرة العثمانية بعد أن كانت قد بلغت من الضعف مبلغا كبيرا، كاد أن يؤدي إلى نهاية مبكرة للحكم العثماني في اليمن[٣٨٥].

تذكر المصادر أن سنان باشا قبل مغادرته لليمن اجتمع بالوالي الجديد بهرام باشا ونصحه وأعطاه بعض الإرشادات، وعوّل عليه حفظ اليمن، وقد تلقى الأخير ذلك بحسن القبول والامتثال وسلم إليه سنان باشا حكم بلاد اليمن في جو ودي[٣٨٦]، وخرج منها بعد أن أعاد السيطرة العثمانية وأحل الأمن والاستقرار فيها، وأبقى ٣٠٠٠ جندي لحفظ الأمن وإخماد أي فتن واضطرابات قد تنشب، وذلك بناء على فرمان سلطاني أرسل إليه[٣٨٧]، وقدم إلى الحجاز في السادس من ذي القعدة سنة ٩٧٨هـ حاجا معتمرا[٣٨٨]، وبعد أداء فريضة الحج توجه إلى مصر ثم إلى إسطنبول، وفيها تم استقباله فيها استقبال الفاتحين، وعظم أمره عند السلطان العثماني، وتم تكليفه بعد ذلك بمهمة حكم تونس.

سياسة سنان باشا في اليمن:

مما لا شك فيه أن سنان باشا كان يتمتع بشخصية قوية وبحنكة سياسية عالية، كان غالبا ما يقابلها ضعف في الطرف الآخر وتخبط سياسي، خصوصا في المناطق التي يقودها نواب عن المطهر.

---

[٣٨٥] عمر، عمر عبد العزيز، تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢م، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٤م، ص١٠٥.

[٣٨٦] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص٤٤٤-٤٤٥.

[٣٨٧] الأرشيف العثماني، دفاتر المهمة: دفتر رقم ١٢، وثيقة/حكم رقم ٧٣، ص٣٦. الأرشيف العثماني، دفاتر المهمة: دفتر رقم ١٢، وثيقة/حكم رقم ٧٩، ص٣٧.

[٣٨٨] الحنفي، قطب الدين بن علاء الدين، رسالة مناسك الحج، مخطوط محفوظ في مكتبة السليمانية بإسطنبول تحت رقم ٠٠٠٠٤٥-٠٢، ص٧.

وقد شهد له بذلك المؤرخون المعادون قبل المؤيدين، حيث أخذوا يمدحونه وينعتونه بالوزير الأعظم، ويثنون على سياسته وسداد رأيه، وبالرغم من قصر الفترة التي قضاها في اليمن والتي لا تتعدى السنتين والنصف[٣٨٩] فإنه استطاع أن يخضع اليمن للحكم العثماني بعد أن كاد أن يخرج من أيديهم، وذلك بفضل السياسة الحكيمة التي انتهجها.

مر تحرك سنان باشا في اليمن بمرحلتين: الأولى، تمثلت في استيلائه على التهائم وجنوب اليمن حتى تعز شمالا. والثانية، تمثلت في انتقاله من تعز نحو صنعاء والمناطق الشمالية[٣٩٠]. وبطبيعة الحال فقد غلب على المرحلتين الجانب الحربي، مع وجود تفاوت نسبي نوعا ما، حيث نلاحظ أن المواقف السياسية كانت في المرحلة الثانية أكثر من الأولى، وقد يرجع ذلك إلى الطبيعة الجغرافيا المعقدة التي لم تتح للعثمانيين سهولة التحرك كما يريدون مما دفعهم أحيانا إلى الاتجاه إلى الطرق الدبلوماسية أكثر من الحربية.

وباعتقادنا، إن سياسة الاحتواء التي انتهجها سنان باشا شكلت أحد أهم أسرار نجاحه، فكان لا يتوانى عن احتواء أي شخص أو مجموعة من شأنها أن تعزز موقفه، وكان أول موقف له بهذا الشأن احتواءه للأمير حسن باشا بعد أن كان قد ضاق به الحال من عثمان باشا عندما قرر طرده من اليمن، وهذا الأسلوب جعل منه قائدا ناجحا استفاد منه طيلة وجوده في اليمن. كما كان سنان باشا غير حاد الطبع مع الأسرى الذين يتم القبض عليهم في حروبه مع آل شرف الدين، فكان

---

[٣٨٩] انظر: الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص ٤٦.

[٣٩٠] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص ٢٦٩.

دائما يأمر بإكرامهم وإنزالهم منازل تليق بهم حتى أن أغلبهم كان يتحول إلى جندي مخلص له.

ومن السياسات المهمة التي ساهمت بشكل كبير في نجاح سنان باشا وتفوقه في أغلب حروبه مع المطهر أنه كان يكافئ الأمراء والجنود، وينزلهم منازلهم في حال حققوا أي نجاح عسكري، وعمل ما أمكنه لزيادة رواتبهم، وبسعي منه تم إصدار فرمان سلطاني إلى والي مصر ودفتر دارها يقضي بزيادة نصف علوفة العساكر في اليمن[٣٩١]، كما كان يغدق عليهم الأموال والرتب والنياشين رضا بما صنعوا، الأمر الذي كان ينعكس على جودة خدمتهم وحبهم وإخلاصهم لقائدهم.

ومن ضمن السياسات التي انتهجها سنان باشا، وكان لها دور كبير في نجاحه، سياسة عدم احتكاره للقرارات السياسية والعسكرية، فكان دائما ما يستشير أصحاب الرأي والخبرة، ولم يكد يُقدم على خطوة مهمة إلا بعقد مجلس استشاري لكبار القادة والأمراء، ولم يكن ينفرد بالرأي والقرار؛ بل كان يشرك الجميع خصوصا من له خبرة وأسبقية، وهذا بالتأكيد انعكس إيجابيا على تحركاته السياسية والعسكرية.

وأخيرا؛ فلم ينسَ سنان باشا الحاضنة المجتمعية وأهميتها، فكان يدرك جيدا أنه لا يمكن تثبيت الأمن والاستقرار دون كسب ود المجتمع؛ لذلك كان دائما ما يسمع للناس، وكان لا يتوانى عن عزل أي أمير أو قائد تشكو منه الرعية.

---

[٣٩١] الأرشيف العثماني، دفاتر المهمة: دفتر رقم ٩، وثيقة/حكم رقم ١٧٤، ص٦٥.

بهـرام باشـا ١٥٧٠ـ ١٥٧٥م[٣٩٢] :

هو بهرام بن مصطفى باشا المشهور بقره شاهين، ينتمي إلى أسرة ذات باع طويل في حكم ولاية اليمن، فوالده مصطفى باشا تولى ولاية اليمن خلال الفترة من ٩٦٤-٩٦٨هـ / ١٥٥٦-١٥٦٠م، وتولى أخوه رضوان باشا ولاية اليمن أيضا خلال الفترة ٩٧٢-٩٧٤هـ / ١٥٦٤- ١٥٦٦م. ومن سوء حظ بهرام باشا أنه صادف ولاية إسكندر الشركسي على مصر؛ فلم يهتم بأمره، ولم يمده بما يلزمه من العسكر، وقيل أنه لفق له نحو ٦٠٠ عسكري، وأعطاهم نفقة قليلة بما يوصلهم زبيد فقط.

يُعد بهرام باشا من ضمن الولاة الذين صنفهم التاريخ بضعف الإدارة في ولاية اليمن، وتتفق المصادر المؤيدة والمعارضة للوجود العثماني في اليمن على حد سواء أنه كان عنيدا صعب المراس، وقد قام بالانتقام بالقتل ممن نسب إليه أمر سابق لعداء العثمانيين بدون أي تحقق من أمره[٣٩٣].

وصل بهرام باشا اليمن في بداية شهر ذي الحجة سنة ٩٧٧هـ مايو سنة ١٥٧٠م ونزل في البقعة وأقام بها ٨ أيام[٣٩٤]، بعدها اتجه إلى زبيد، وعند وصوله لم يكن حال عسكره يَسُر، فقد كانوا في حالة غير جيدة بسبب ما اعتراهم في الطريق من التعب وقلة المؤن، كما أن زبيد لم تكن أحسن حال منهم، فتذكر المصادر أن بهرام باشا عند وصوله إلى زبيد لم يجد فيها من الخزائن السلطانية ما يصرف عليهم، مما جعله يواصل مسيره إلى تعز.

---

[٣٩٢] أفرد له المؤرخ محمد بن يحيى المطيب الزبيدي كتاب خاص بولايته على اليمن تحت مسمى "بلوغ المرام في تاريخ دولة مولانا بهرام"، وقد حققه الباحث أحمد صالح عبد ربه المصري، كجزء من متطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ الحديث، من قسم التاريخ- جامعة صنعاء- ٢٠٠٦م، تحت إشراف المؤرخ البروفيسور سيد مصطفى سالم.

[٣٩٣] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٤٢٩.

[٣٩٤] بلوغ المرام، مصدر سابق، ص٢٣٢.

اتجه الباشا بهرام إلى تعز وكان في استقباله أميرها شيخ علي الذي قام بتأمين المعونة لبهرام باشا وعساكره، وعززه بما يقارب ٨٠٠ فارس و٧٠٠ مقاتل من المشاة ببنادقهم وسيوفهم[٣٩٥].

وبعد أن أقام في تعز ١٥ يوما، قرر المسير إلى اليمن الأعلى لمقابلة سنان باشا الوزير ولاستلام مقاليد الحكم منه، وعند وصوله إلى القاعدة اجتمعت عليه قبائل العربيين- الأعمور- أهل صبهان- الأزارق- الشوافي- حبيش- التعكر- ذي السفال- بدان، وهي قبائل موالية للمطهر، لكنه استطاع تجاوز تلك العقبة بفضل مساعدة سنان باشا له، وتوجه إلى التعكر عن طريق النجد الأحمر ثم إلى حصن حب الذي وصله في ١٧ ربيع الأخر[٣٩٦]. وقد قُدر مجموع من تم تجنيدهم لصد وصول بهرام باشا إلى الشمال بـ ٣٠ ألف مقاتل من مختلف القبائل التي ذكرنا[٣٩٧].

كان الصلح الذي سبق أن عقده العثمانيون مع المطهر لا يقتضي ضرورة الصلح مع أخيه علي الذي كان متمركزا في حصن حب من إقليم بعدان؛ ولهذا فقد حاصر الجنود العثمانيون الحصن وقويت شوكتهم، خصوصا بعد وصول المدد الذي كان قد أرسله سنان باشا، وسقط بعد حادثتين الأولى: تمثلت في إحراق مخزن للبارود، سبق أن استولى عليه ابن شرف الدين من العثمانيين في حروبه السابقة معهم، وكان بطل هذه الحادثة رجلين من العثمانيين، كانا مأسورين في الحصن، فعمدا إلى إشعاله عبر فتيل رموه وأحرقوا طرفه؛ فلما وصلت الشعلة بين البارود اشتعل المخزن بكامله[٣٩٨].

[٣٩٥] النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ٤٣٢-٤٣٤.

[٣٩٦] بلوغ المرام، مصدر سابق، ص٢٤٣-٢٤٧.

[٣٩٧] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص ٢٩٧.

[٣٩٨] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٩٢٧-٩٢٨. غاية الأماني، ص٧٤٢-٧٤٣.

أما الحادثة الثانية هي الأساس في سقوط الحصن[399]، وهي أن بهرام باشا تآمر واتفق مع أحد خواص علي بن شرف الدين [400]على قتله، حيث قاموا بدس السم له في سفرجلة ثم قُدمت له، وبموته انهارت معنويات أتباعه، وسقط الحصن بيد بهرام باشا في ٥ رجب سنة ٩٧٨هـ الموافق ٣ ديسمبر ١٥٧٠م[401]. وسيطر الباشا على القلعة بالكامل بعد فشل أتباع علي بن شرف الدين في إخفاء خبر موته، وغنم العثمانيون ما فيها من خزائن وأموال[402]، وأعطى الباشا الأمان لمن كان في الحصن، لكن المصادر تذكر أنه لم يفِ بوعده[403]؛ بل قام بقتلهم بعد أن كانوا أسرى حرب.

وبعد الاستيلاء على حصن حب واصل بهرام باشا مسيره نحو الشمال، ووصل مدينة ذمار يوم الجمعة ١٥ شعبان من السنة المذكورة، وفيها التقى بسنان باشا واجتمع به[404]، وقد رغب وأحب السكن والاستقرار في ذمار، واختط بالقرب من مدينة ذمار مدينة جديدة أطلق عليها اسم ملحظ، اختطها في ١٠ رمضان سنة ٩٧٨هـ[405] الموافق ٤ فبراير ١٥٧١م، وأقام فيها طيلة بقائه حاكما لليمن. أما صنعاء فقد جعل عليها نائبا عنه من خواصه يدعى محمود بك، وقد تطورت ملحظ

---

[399] ذكر صاحب كتاب "بلوغ المرام في تاريخ دولة ملانا بهرام" أن شخصا يدعى(المويه) كان ذا رتبة كبيرة لدى الزيدية، هو الذي سلم الحصن إلى بهرام باشا، واشترط لنفسه أن يكون أغا على العساكر الذين نزلوا من الحصن، فكان له ذلك، وأمر عليهم، وأضاف انه نفسه حاول خيانة العثمانيين وكاتب المطهر إلا انه ظُفر بكتبه من غير اطلاعه. (بلوغ المرام، مصدر سابق، ص ٢٥٢-٢٥٣).

[400] ذكر صاحب كتاب غاية الأماني وصاحب كتاب روح الروح؛ أن من دس السم لعلي بن شرف الدين هو شخص يدعى "ابن عرجلة"، وكان يتردد على محطة بهرام باشا، وقد وضع له السم داخل سفرجلة، وتم إلقاء القبض عليه وإيداعه السجن ثم قتله. يحي بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٤٣. روح الروح، ص ١٩٠-١٩١.

[401] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص ٢٩٩. الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٤٢٨.

[402] للمزيد انظر: النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق ص ٤٣٨ وما بعدها.

[403] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٢٩٩.

[404] بلوغ المرام، مصدر سابق، ص٢٥١.

[405] بلوغ المرام، مصدر سابق، ص ٢٥٣. عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص ١٩٢.

بشكل سريع حتى أصبحت مدينة ذات شأن كبير بفعل اهتمام بهرام باشا بها، وضرب السكة فيها وتداول الناس نقودها باسم الملحظية[٤٠٦].

اختلفت سياسة بهرام باشا وأعماله من إقليم إلى آخر، وذلك استجابة لظروف كل إقليم، ففي الشمال حرص على المحافظة على الصلح مع المطهر؛ وسعى إلى ضمان بقائه واستمراره؛ لما من شأنه الحفاظ على الهدوء والاستقرار، وحاول التقرب من المطهر؛ فعرض له استعداده لمساعدته في إخماد ثورة الأهنوم التي نشبت ضده في ربيع الأول سنة ٩٨٠هـ الموافق يوليو/ أغسطس ١٥٧٢م، إلا أن الأخير رفض طلبه شاكرا له موقفه، وقام بإخماد الثورة بنفسه[٤٠٧].

أما الأقاليم التي كانت خاضعة للعثمانيين بشكل مباشر؛ فقد اتبع بهرام باشا فيها سياسة مختلفة تماما عن السياسة التي استخدمها في الأقاليم الشمالية، حيث انتهج الشدة والعنف فيها[٤٠٨]. وفيما يخص الوضع الاقتصادي أثناء فترة بهرام باشا، فقد كان سيئا جدا؛ نتيجة لضعف موارد اليمن ذاتها، إضافة إلى انشار الفساد في صفوف العثمانيين على حد تعبير المصادر[٤٠٩]، وثمة سبب أساسي هو أن سنان باشا قبل أن يغادر اليمن ضاعف الخراج المحمول من اليمن إلى السلطان العثماني إلى ٢٠٠ ألف دينار ذهبا سنويا بعد أن كان ٥٠ ألف أيام من قبله، كما قرر زيادة في نفقات الجند، الأمر الذي أثقل كاهل الولاية، ونتج عنه مشكلة كادت أن تودي

[٤٠٦] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص٤٧. ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٤٢٩.
[٤٠٧] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ٣٠٨
[٤٠٨] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ٣٠٩
[٤٠٩] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣١٣.

بحياة بهرام باشا نفسه، عندما تمرد الجند عليه في آخر أيام ولايته؛ لعدم قدرته على دفع مستحقات الجند التي كانت قد تراكمت لأشهر[٤١٠].

شن بهرام باشا حروبا مباشرة على أقاليم ريمة وملحان وحفاش وبرع[٤١١]، وكانت هذه الأقاليم تتمتع باستقلالية تحت حكم زعمائها[٤١٢]. كما عمل على نزع الأسلحة النارية من أيادي الأهالي الذين قد سبق لهم أن استولوا عليها من العثمانيين أثناء حروبهم معهم، وقد قدرت الأسلحة التي استطاع بهرام باشا جمعها في الفترة من ٧ ذي الحجة سنة ٩٧٧هـ إلى آخر صفر سنة ٩٨٢هـ بـ ٦٣٣١ بندقية، و٩٣٢٧ سيفا، و ٣٠٢٣ من المزاريق، و ١٠٠٠ من العطف، ومن الخوذ حوالي ٩٧ خوذة[٤١٣]، وأرسل جزءا كبيرا منها إلى مصر لحفظها بها، كي تكون بعيدة عن أيدي اليمنيين إذا قاموا بالثورة مرة أخرى.

والغريب أن بهرام باشا كان في أمس الحاجة إليها، ويبدو أنه قام بإرسالها كي يحقق مكاسب معنوية، كونه أعاد للخزينة العثمانية بعض ممتلكاتها التي كانت ضائعة[٤١٤]. وقد نتج عن سياسة القسوة التي اتبعها بهرام باشا نتائج عكسية عليه شخصيا وعلى الوجود العثماني في اليمن بشكل عام، ومن الأخطاء التي ارتكبها، سعيه الحثيث والمتواصل لإرضاء رجال الدولة في إسطنبول والقاهرة متغافلا الاهتمام بمن حوله من الأمراء والجنود، الأمر الذي أدى إلى تسلل التذمر والفساد بين أوساطهم.

---

[٤١٠] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٤٣.

[٤١١] بجوي، إبراهيم باشا ت ١٦٥٠م، تاريخ بجوي، ج١، ص٤٨٤. الكتاب باللغة العثمانية.

[٤١٢] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣١٠.

[٤١٣] بلوغ المرام، مصدر سابق، ٢٧٨.

[٤١٤] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص ٣١٢.

وعندما زاد ظلم بهرام باشا على الناس فكر المطهر بن شرف الدين في نقض الصلح وإعلان الثورة ضد العثمانيين، واعتبر ذلك فرصة كبيرة يمكنه من خلالها التخلص من الوجود العثماني الذي كان قد أعاده سنان باشا، لكنه لم ينجح في مسعاه بالرغم من مباركة كبار أعوانه له، وذلك بسبب تخاذل محمد بن شمس الدين عن مساعدته أولا، ولوفاة المطهر نفسه في تلك الأيام ثانيا[٤١٥]، إذ توفي في ٣ رجب سنة ٩٨٠هـ[٤١٦]، وبوفاته صفا الجو أكثر لبهرام باشا الذي كان دائم التخوف من المطهر، ودائما ما يسعى لاستمرار الهدوء معه.

ويمكن القول إنه بوفاة المطهر استقر الحكم العثماني نسبيا في اليمن، وكانت فرصة لبهرام باشا؛ لتوطيد الحكم العثماني وتثبيت أركانه نتيجة لضعف الجبهة الزيدية بعد المطهر؛ فلم تخلفه شخصية قوية تسد الفراغ السياسي الذي تركه، ولم يحافظ أبناؤه على وحدتهم؛ بل تنازعوا فيما بينهم حول السلطة والنفوذ[٤١٧]، والثابت أن بهرام باشا لم يستغل ذلك الوضع استغلالا يفضي إلى تعزيز الوجود العثماني، بل استمر على نهجه وسياسته السابقة.

أقام بهرام باشا في ولاية اليمن إلى أن جاءه نبأ عزله في أواخر سنة ٩٨٢هـ، بعد تعيين مصطفى باشا[٤١٨] واليا جديدا عليها عوضا عنه[٤١٩]، وبعدها بأيام قلائل تجهز بهرام باشا للعزم على التوجه إلى إسطنبول، وما إن علمت العساكر بقرب

---

[٤١٥] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣١٣.

[٤١٦] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق ص١٩٦.

[٤١٧] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ٣١٥.

[٤١٨] لم يتمكن من حكم اليمن بسبب وفاته المبكرة، حيث وافته المنية قبل أن يصل زبيد.

[٤١٩] يذكر صاحب كتاب غاية الأماني في أخبار القطر اليماني: أن بهرام باشا كتب إلى السلطان العثماني يطلب منه العذر عن ولاية اليمن؛ فجهز السلطان لليمن الباشا مصطفى، مع العلم أننا لم نجد مثل تلك الرواية عند أحد من المؤرخين المعاصرين لا المؤيدين ولا المعارضين. (يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٤٨).

مغادرته حتى طالبته بما تأخر عليهم من مستحقات، وأخذ الباشا يماطلهم ويواعدهم حتى وصل بهم الأمر إلى محاصرته في داره، وحاولوا قتله لولا وساطة بعض الأمراء الكبار الذين تدخلوا، وأقروا أن يدفع لهم من ماله الخاص دفعا للمشاكل[٤٢٠]، ثم عزم على المغادرة بعد أن نصّب الأمير علي بك أميرا على مدينة ملحظ[٤٢١]، وجعل طريقه من ذمار إلى تعز، واستقر فيها أياما قليلة، ثم اتجه إلى زبيد، ولما وصل إلى المسيل، وهو مكان ما بين تعز وزبيد، وصل الوالي الجديد مصطفى باشا إلى البقعة- أحد موانئ زبيد- وكان حينها مريضا؛ فازداد مرضه وشاءت الأقدار أن يتوفاه الله هناك ولم يصل إلى زبيد.

حين وصل خبر وفاته إلى بهرام باشا أثنى عزمه عن الذهاب واستوطن تعز، وأرسل مجموعة من رجاله؛ لأخذ ما خلفه مصطفى باشا من الخزائن والذخائر والخيل والعبيد، وقد قويت شوكة الباشا بهرام بعد ذلك، وأخذ ينتقم ممن ظن فيه أنه كان سببا في مناهضة العساكر له من قبل، وقتل منهم حوالي ٨٠ رجلا[٤٢٢] على رأسهم الدفتر دار الذي كان قد تبين له أنه سبب الثورة عليه.

وأخذ يمارس مهامه كوالٍ لليمن لما يقارب الأربعة أشهر بعدها قلد أمور ولاية اليمن إلى الأمير علي بك حاكم تعز آنذاك، وعزم على التوجه إلى إسطنبول، وقد حكم علي بك البلاد وضبطها حتى جاء والي اليمن الجديد مراد باشا[٤٢٣].

---

[٤٢٠] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٤٢٩.

[٤٢١] بلوغ المرام، مصدر سابق، ص ٢٩٢.

[٤٢٢] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٤٣٠.

[٤٢٣] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص٤٨. ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٤٢٩. يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٤٨.

مراد باشا الوزير ١٥٧٦-١٥٨٠م:

صدر المرسوم السلطاني بتولي مراد باشا في أواخر سنة ٩٨٣هـ، خلفا للوالي السابق مصطفى باشا الذي وافته المنية عند وصوله اليمن كما مر معنا. ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن مراد باشا كان لديه خلفية مسبقة عن اليمن، لأنه سبق أن عمل فيها من قبل[٤٢٤].

وقد وصل إلى ميناء الصليف[٤٢٥] في ١٤ ربيع الأول سنة ٩٨٤هـ/١١يونيو ١٥٧٦م، وأقام فيه حوالي ١٣ يوما، ثم ارتحل منه إلى بيت الفقيه ثم إلى زبيد التي وصلها في ٢١ من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، واستقر فيها بعض الوقت، يتفقد أحوالها ويرتب أمورها، ثم انتقل إلى تعز، وأقام فيها ما يقارب أربعة أشهر[٤٢٦]، وبعد أن فرغ من أعماله في تعز اتجه إلى صنعاء مارا بيريم وذمار، وقد وصلها في ٢٧ جمادى الأخرى سنة ٩٨٤هـ/٢٤ يوليو ١٥٧٦م[٤٢٧].

تذكر المصادر أن مراد باشا أعلن عفوا عاما فور وصوله اليمن، وطمأن الناس بإقامته للعدل والإحسان، كما أعلن أن من لديه جرم سابق فإنه لا يحاسب عليه، ولا يحاسب الشخص إلا فيما استحدث من خطأ[٤٢٨]، وبهذا كسب ود الناس، وانجذب إليه الكثير، ومن جانب آخر عمل على القضاء على عناصر الفساد بين أوساط

---

٤٢٤ الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص٤٩.

٤٢٥ ميناء ومدينة على ساحل البحر الأحمر غرب مدينة الزيدية بحوالي ٤٠ كيلو متر، وهو على شكل لسان بحري يمتد داخل البحر الأحمر، ويحيط به الماء من ثلاث جهات، وهو ميناء يمني قديم تميز بموقعه الجغرافي الذي جعل منه موردا اقتصاديا لليمن على مر تاريخه، ترجع شهرته في العصر الحديث إلى وجود مناجم الملح الصخري فيه، والتي توجد فيه بكميات كبيرة، وقد تم تحديثه وتوسيعه حديثا بما يلائم التوسع في الحركة التجارية المعاصرة. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص٩١٧.

٤٢٦ ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٥٩٥-٥٩٦. الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص ٤٩.

٤٢٧ ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٥٩٦.

٤٢٨ ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٥٩٥.

القادة والجند العثمانيين[٤٢٩]، فقام بقتل حاكم حيس، كما أمر بقتل الأمير دالي/علي نجق، بحجة أنه كان من القادة الثائرين على بهرام باشا، فاعتبره الباشا مراد من الأشخاص الذين يشكلون تهديدا للسيادة العثمانية ويجب القضاء عليه[٤٣٠]. وما إن وصل إلى صنعاء حتى باشر بإلقاء القبض على بعض الأمراء، وقتلهم واستولى على أموالهم بحجة قبح أعمالهم السابقة[٤٣١].

يعدّ مراد باشا من أكثر الولاة العثمانيين الذين اشتهروا بالعدل واللين ورفع المظالم عن الناس، وعمل على كل ما من شأنه أن يحسّن صورة الدولة العثمانية التي كان قد شابها التشويه نتيجة لتصرف بعض الولاة السابقين، كما عمل على النأي بنفسه وجيشه من المشاكل قدر الإمكان، فالتزم بسياسة عدم التدخل في منازعات أمراء الأقاليم الشمالية، وعدم استغلال تلك المنازعات لمد سيطرة العثمانيين طالما أن تلك المنازعات لا تمس السيادة العثمانية[٤٣٢].

وبالرغم من استخدامه سياسة اللين فإنه كان لا يتوانى عن مواجهة أي خطر يهدد السيادة العثمانية، وعمل ما أمكنه على القضاء على انتفاضة الحسن بن على بن داوود المؤيدي الذي أثارها في الأهنوم[٤٣٣] عندما ناهض العثمانيين وحاول الخروج عليهم؛ فعامله مراد باشا بحزم، وحقق انتصارا ساحقا عليه بالتعاون مع أبناء المطهر الذين كانت تربطهم علاقة غير جيدة بالمؤيدي[٤٣٤].

---

٤٢٩ للمزيد انظر: سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص ٣٢٤.

٤٣٠ عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص٢٠٥.

٤٣١ ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٥٩٧.

٤٣٢ عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، مرجع سابق، ص ٢٠١. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص ٣٢٢.

٤٣٣ الأهنوم: سلسلة جبلية في بلاد حاشد، وتشكل اليوم مديرية المدان ومديرية شهارة التابعتين لمحافظة عمران، قيل إنها سميت باسم الأهنوم بن الحارث بن حُديق بن عبدالله بن قادم بن زيد بن عُريب بن جُشَم بن حَاشد، وهي في الأصل همدانية حاشدية، لكنها اليوم في عداد بكيل، وأغلب قبائلها من بكيل. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص١١٤-١١٥.

٤٣٤ سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣٢٨-٣٢٩.

كما تعامل بحزم شديد مع رجل من بلاد آنس[٤٣٥]، زعم أنه منصور الحميري الذي يقال عنه إنه سيظهر في آخر الزمان، وقد تبعه ناس كثير، وعظم أمره، مما جعله يتمادى بطرد عامل العثمانيين من بلاده، فأرسل إليه مراد باشا قوة عسكرية استطاعت إنهاء أمره، وأعادت تلك الجهات للسيادة العثمانية[٤٣٦].

من خلال ما سبق نلاحظ أن مراد باشا مزج بين سياسة اللين والقوة بما يتناسب مع المحافظة على السيادة العثمانية. وقد شهد المناوئون له بعدله وإحسانه؛ فذكر المؤرخ يحيى بن الحسين صاحب كتاب "غاية الأماني في أخبار القطر اليماني" بأنه كان أعدل من حكم في اليمن من العثمانيين، فلم يفتح حربا مع اليمنيين أثناء بقائه فيها، كما أزال كثيرا من مظاهر الجور والعادات السيئة التي كانت قبله[٤٣٧].

وقد كانت فترة ولايته في حدود خمس سنوات، قضى ما يقارب النصف في صنعاء والنصف الآخر في تعز[٤٣٨]، قام خلال تلك السنوات بالعديد من الأعمال الإنشائية، منها إعمار مدرسة في صنعاء سميت بالمدرسة المرادية، شرع في بنائها سنة ٩٨٤هـ ، وانتهى من بنائها سنة ٩٨٥هـ[٤٣٩]، كما استخرج غيل ماء بالقرب من جبل نقم، عرف باسم غيل الباشا.

---

[٤٣٥] آنس بلدة واسعة جنوب غرب صنعاء بحوالي ٦٠ كيلومترا، ومركزها ضوران، وهي مديرية تتبع محافظة ذمار. الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، مرجع سابق، ج١، ص٢١-٢٢.

[٤٣٦] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٤٩.

[٤٣٧] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٥٦.

[٤٣٨] في محرم سنة ٩٨٦هـ توجه مراد باشا إلى تعز، واستقر فيها. عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص ٢٠٨.

[٤٣٩] الصنعاني، عبد الملك بن حسين الآنسي، إتحاف ذوي الفطن بمختصر أنباء الزمن، تحقيق: إسماعيل بن أحمد الجرافي، منشورات جامعة صنعاء، ملحق العدد الثالث من مجلة كلية الآداب، ربيع الثاني سنة ١٤٠١هـ / مارس ١٩٨١م، ص٦٥.

وفي تعز عمل توسعة لجامع أحمد بن علوان وأوقف عليه، وخارج تعز أنشأ مقبرة الشيخ أحمد السندي[٤٤٠]، كما بنى سمسرة كبيرة في شرق سوق الملح، وبنى كذلك دكاكين في سوق الحراج بتعز[٤٤١].

يرى بعض المؤرخين المعاصرين أن فترة ولاية مراد باشا كانت بمثابة تمهيد لفترة حكم الوالي حسن باشا التي تحقق فيها أقصى توطيد وأوسع امتداد للسيادة العثمانية في اليمن[٤٤٢].

وأخيرا؛ فقد كان مراد باشا من الولاة المشكورة سيرتهم في بلاد اليمن، وحظي كذلك بالمقام العالي من قبل الدولة العثمانية على حسن إدارته لليمن ومحافظته على هدوء الأوضاع فيها لمدة خمس سنوات، وبعد ولايته على اليمن عمل أعمالا كبيرة لخدمة الدولة العثمانية، أهمها الدور الكبير الذي بذله في محاربة القزلباش[٤٤٣] أيام السلطان أحمد خان بن محمد خان، وتوفي وهو قائم بالوزارة العظمى، ودفن في إسطنبول[٤٤٤].

---

٤٤٠ يمن سالنامسي، تحرير: حميد وهبي، المكتبة الوطنية العامة، إسطنبول، ١٢٩٩هـ، القسم: A.E.Salname، محفوظة برقم ٥٣٦. ص٤٧. باللغة العثمانية.

٤٤١ الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص ٥٨. الثور، الولاة العثمانيون، ص١٢٨.

٤٤٢ سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٢٣١.

٤٤٣ القزلباش: لفظ تركي معناه الرؤوس الحمر، وهو اسم أطلقه العثمانيون على فرقة العلوية، كانوا شيعة المذهب ويعيشون في بلاد الأناضول، شكلوا تهديدا للعثمانيين باضطراباتهم وقلاقلهم التي كانوا يعملونها خصوصا في القرن السادس عشر مما جعل السلاطين العثمانيون يقومون بقمعهم.

٤٤٤ الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص٦٠.

حسن باشا ١٥٨٠-١٦٠٤م[٤٤٥]:

تعود أصول حسن باشا إلى بلاد الأرناؤوط، لذلك كان يعرف بحسن باشا الأرناؤوطي[٤٤٦]، ويُذكر أنه ولد سنة بضع وأربعين وتسعمائة من الهجرة الشريفة، وأول عمل سُجل له مع الدولة العثمانية هو عمله كمزارع في البستان السلطاني أيام السلطان سليمان القانوني، وكان ماهرا في عمله مخلصا فيه، وقد ظل يعمل في البساتين السلطانية حتى عهد السلطان مراد الثالث الذي جعله مشرفا عاما عليها، وقد ارتفع مقامه لدى السلطان، وعلا شأنه حتى قلده أحد المناصب المهمة وهي رئاسة الحجاب[٤٤٧]، وبذلك المنصب ظهر حسن باشا كرجل دولة في القصر السلطاني.

تُعد فترة حكم الوالي حسن باشا أطول فترة حكم لوالٍ عثماني في اليمن؛ فقد حكم اليمن لما يقارب ٢٥ سنة. وأشارت بعض المصادر إلى أن فترة حكمه تميزت بالاستقرار النسبي، ونعتقد أن المعطيات التاريخية لا تؤيد ما ذهبت إليه تلك المصادر؛ كونه وإن كان حدث شيء من الاستقرار النسبي في بعض السنوات فإن اليمن لم تحظَ باستقرار كامل في عهده، فقد حدث كثير من الاختلالات الأمنية

---

[٤٤٥] يوجد أطروحة دكتوراه عن فترة ولاية حسن باشا في اليمن، أجيزت من جامعة إسطنبول سنة ٢٠١٥م، للباحثة اليمنية إبتسام الجرافي، وبإشراف المؤرخ التركي المعروف إدريس بوستان، والأطروحة باللغة التركية. كما يوجد كتاب يتعلق بعهد الوالي حسن باشا، بعنوان "الروض الحسن في أخبار سير مولانا صاحب السعادة الباشا حسن في أيام ولايته بإقليم اليمن"، لمؤلفه عامر بن محمد الرُعامي (الدعامي)، وهو مؤرخ معاصر لحسن باشا، وقد قام بترجمته الباحث الهولندي أنطونيوس روتخرس ١٨٠٥-١٨٨٤، والكتاب الأصل مكتوب باللغة العربية. (انظر: كشف الظنون لحجي خليفة). كما أفرد له ابن داعر صاحب المصنف الكبير "الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية" جزءا كبير خصصه للحديث عن اليمن في عهد الوالي حسن باشا.

[٤٤٦] الجرافي، إبتسام، إدارة اليمن في فترة الوالي حسن باشا (٩٨٨-١٠١٣هـ/ ١٥٨٠-١٦٠٤م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة إسطنبول، ٢٠١٥م، ص٤٧. الأطروحة باللغة التركية.

[٤٤٧] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٦٠١ – ٦٠٣.

والعصيانات توجت بنشوب ثورة الإمام القاسم التي كانت سببا في خروج العثمانيين من اليمن عام ١٦٣٥م.

صدرت الأوامر السلطانية لحسن باشا بتوليه ولاية اليمن في ٥ جمادى الأخرى سنة ٩٨٨هـ الموافق ١٨ حزيران ١٥٨٠م[٤٤٨]، وكان حينها في الرابعة والأربعين من عمره، وتنفيذا لتلك الأوامر فقد عزم على السفر إلى ذلك القُطر الذي كان غالبا ما يهابه الكثير من الولاة نظرا لما يشاع عنه من كثرة الفتن والاضطرابات.

خرج حسن باشا من إسطنبول في ٨ جمادى الأخرى سنة ٩٨٨هـ الموافق ١٥ حزيران ١٥٨٠م متوجها إلى مصر، وانضم إليه في مصر كثير من الناس، ثم اتجه منها إلى جدة ووصلها في ٧ شوال سنة ٩٨٨هـ، وبعد أن أتم العمرة اتجه إلى اليمن؛ فوصل إلى جزيرة كمران في ٩ ذي القعدة ٩٨٨هـ، ومن كمران اتجه نحو الصليف، ووصله في ١٢ من الشهر نفسه الموافق ١٩ ديسمبر سنة ١٥٨٠م، وبقي في الصليف قرابة أسبوع، ثم اتجه إلى بيت الفقيه[٤٤٩] ومنها إلى زبيد، فوصلها في ٨ ذي الحجة من السنة نفسها، وفور وصوله زبيد قام بترتيب أمورها، ورفع بعض المظالم التي كانت مفروضة من قبل، فيُذكر أن الأهالي فيها كانوا يعانون من ظلم دفع خراج ليس له أساس شرعي، فقد يكون لدى الشخص عدد مسجل من النخيل أو الأبقار، وهو بهذا ملزم بدفع خراجها بالرغم من موت أغلبها، وما إن علم حسن باشا

---

[٤٤٨] الجرافي، إدارة اليمن في فترة الوالي حسن باشا، مرجع سابق، ص٤٩.

[٤٤٩] بيت الفقيه: مدينة مشهورة جنوب شرق الحديدة، على بُعد ٦٧ كيلومتر، سميت باسم الفقيه الشهير أحمد بن موسى بن علي بن عمر بن عُجَيْل المتوفى فيها سنة ٦٩٠هـ، وكانت من قبل تعرف باسم كثيب الشَوْك، نسبة إلى رمالها الممتدة والأشواك التي تملؤها، اشتهرت المدينة باحتضانها العلماء، كما اشتهرت بصناعة منسوجات الحرير والقطن، حاليا مديرية تابعة لمحافظة الحديدة، وتشكل ثاني أكبر مدينة في المحافظة بعد مدينة الحديدة نفسها. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج٢، ص١٢٢١.

بذلك حتى قام برفع تلك المظالم عنهم، وجعل كل شخص ملزما بدفع ما هو موجود معه فقط[٤٥٠].

لم يمكث الباشا في زبيد كثيرا، فبعد شهرين تقريبا من وصوله إليها خرج قاصدا تعز، فوصلها في ١٠ محرم سنة ٩٨٩هـ/ ١٤ فبراير ١٥٨١[٤٥١]، وأقام فيها أربعة أشهر، نظم فيها أمورها ثم انتقل إلى صنعاء التي وصلها في ٢٧ جمادى الأولى من سنة ٩٨٩هـ/ ٢٩ يونيو ١٥٨١م[٤٥٢].

سياسة حسن باشا وأعماله العسكرية:

من الصعب تتبع الاختلالات والأعمال الحربية في فترة ولاية حسن باشا ١٥٨٠-١٦٠٤م؛ نظرا لكثرتها وتشعبها وطول الفترة الزمنية، ولكننا سنسلط الضوء على أهمها، لاسيما تلك الأحداث التي ترتب عليها أثر كبير وتغيير في الخارطة السياسية والجغرافية للوجود العثماني في اليمن.

استخدم حسن باشا سياسة ذا حدين لحكم اليمن، فقد عمل ما بوسعه على استقطاب اليمنيين، خصوصا الأمراء من آل شرف الدين وشيوخ القبائل، وأعطاهم الوظائف والهدايا والمرتبات في سياسة استقطاب ودية لما من شانه تثبيت دعائم الحكم العثماني في اليمن وضمان استقراره، ومن جانب آخر استخدم القوة والقمع مع الخارجين على السيادة العثمانية، كما يُحسب له استخدامه لسياسةٍ قلّ أن يستخدمها غيره من الولاة، وتتمثل في تفريق الخصوم والحرص على عدم اجتماع رأيهم وكلمتهم.

---

[٤٥٠] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٦١٤.

[٤٥١] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٦١٥.

[٤٥٢] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص ٢١٣.

كما اتخذ خطوة في غاية الأهمية ساعدته كثيرا في التفرغ أكثر للأعمال السياسية والإدارية، وخففت عنه كثيرا من الأعباء الحربية والعسكرية، وتتمثل هذه الخطوة في تنصيب الأمير سنان بك[٤٥٣] نائبا له، وتفويض كثير من الأمور إليه خاصة في الجوانب الحربية، فكان بمثابة القائد العام للجيوش العثمانية في ولاية اليمن. وبهذا التعيين وفر حسن باشا على نفسه كثيرا من الأعباء، وتفرغ للأمور السياسية والدبلوماسية التي من شانها تعزز الوجود العثماني في اليمن.

بدأ حسن باشا بالصدامات الحربية منذ الأيام الأولى لوصوله إلى بلاد اليمن، وكانت بدايات تلك الصدامات مع بعض القبائل التي حاولت الخروج عن السيادة العثمانية، أو بالأصح لم يرق لحسن باشا توجهاتها، ثم دخل في صراع مع بعض الأمراء الذين حاولوا الانفراد بالسلطة، وأعلنوا العصيان على السيادة العثمانية، كما اصطدم مع أمراء من الزيدية، حاولوا الخروج عن طاعة الدولة العثمانية والانفراد بسلطتهم على أقاليمهم ومناطقهم.

ومن أول التمردات في بلاد اليمن ضد حسن باشا كان تمرد بلاد الحجرية[٤٥٤]، حيث خرجت بعض القبائل، وأعلنت عصيانها على السيادة العثمانية بسبب سوء إدارة عامل العثمانيين عليها، وقد واجه حسن باشا ذلك التمرد بإرسال جيش يقوده سنان بك، تمكن من إنهاء التمرد، واستولى على حصون البلاد وجبالها[٤٥٥]، لتهدأ

---

[٤٥٣] سنان باشا(بك): هو ممن صحب حسن باشا منذ خروجه من إسطنبول، وأحد قادة الجيش العثماني في اليمن، يُذكر أنه شخص يتصف بالشجاعة والحنكة والدهاء السياسي، وكان رجلا مشهورا بالحنكة والدهاء، شجاعا جوادا كريما. ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٦٢٦.

[٤٥٤] الحجرية: بلاد واسعة تقع شمال عدن وجنوب تعز، كانت تُعرف قديما باسم المعافر، نسبة إلى معافر بن يُعفر بن الحارث بن مرة بن أدد بن الهميسع بن حمير، ومركز الحجرية اليوم مدينة التربة من ذُبْحَان، وتتبعها عدد من الوحدات الإدارية منها؛ القبيطة، جبل حبشي، المقاطرة، الشمايتين، الصلو، الوازعية، المواسط. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص٤٢٢.

[٤٥٥] الإحسان، الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص٦٢.

الأوضاع نوعا ما في إقليم الحجرية حتى سنة ١٠٠٦هـ عندما ظهر عصيان آخر ضد العثمانيين يقوده الأمير علي الشرجبي أحد شيوخ قبائلها، وشكل ذلك العصيان خطرا مباشرا على السيادة العثمانية، كون ساحته توسعت حتى وصلت الى تعز، لكن كاشف العثمانيين فيها آنذاك استطاع التصدي له بعد أن جمع ما أمكنه جمعه من العسكر، وحقق نصرا على قوات القبائل بالرغم من قلة إمكانياته[٤٥٦].

كما أخمد العثمانيون في رجب من سنة ٩٨٩هـ عصيانات واضطرابات كانت قد نشبت في بلاد ريمة[٤٥٧] ووصاب[٤٥٨]، واستطاع سنان بك أن يضع حدا لتلك الاضطرابات، وأعاد الأمور إلى نصابها[٤٥٩].

وفي العام نفسه حاصرت العساكر العثمانية حصن ظفار الذي كان يتحصن فيه الأمير محمد بن ناصر الحمزي، مما اضطره إلى طلب الأمان وسلّم الحصن بكل ما فيه[٤٦٠]. وعلى صعيد آخر من العام نفسه، دخل حسن باشا في صراع مع البرتغاليين بعد أن وصله خبر ظهور سفن من جهة المحيط الهندي مشحونة بالإفرنج، وأصبحت تشكل تهديدا مباشرا للمراكب الإسلامية، فأرسل جيشا من صنعاء في ٥ ربيع الآخر سنة ٩٨٩هـ يقوده القبطان البحري علي آغا، وقد واجه

---

[٤٥٦] الإحسان، الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص ٨٧.

[٤٥٧] ريمة، منطقة جبلية واسعة، متصلة ببلاد وصاب وأطراف جبل بُرع، وتشرف من جهة الشرق على المنصورية وبيت الفقيه من تهامة، حاليا ريمة إحدى محافظات الجمهورية اليمنية، وتشتمل على ٦ مديريات هي: مديرية بلاد الطعام، السلفية، الجبين، مزهر، كسمة، الجعفرية. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص٧٢٣.

[٤٥٨] وصاب: بلاد واسعه تشكل مديريتين من مديريات محافظة ذمار هما وصاب العالي ووصاب السافل، تعود تسمية وصاب إلى وصاب بن سهل بن زيد بن الجمهور بن عمرو بن قيس وصولا إلى الهميسع بن حمير، وكانت وصاب قديما تسمى جُبْلاَن العَرَّكبة، نسبة إلى اسم إحدى قراها القديمة، تمتاز بجبالها الشاهقة، وبأرضها الخضراء المثمرة. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج٢، ص١٨٧٣.

[٤٥٩] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٦٢٦.

[٤٦٠] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص ٢١٤.

علي آغا البرتغاليين بثلاث سفن عثمانية، وحقق انتصارا كبيرا عليهم، ووقع بعض الجنود البرتغاليين في الأسر، وغنم العثمانيون سبع سفن برتغالية، فقاموا بأخذ كل ما فيها من سلاح وعتاد وأموال ثم أحرقوها[٤٦١]، وبتحقيق هذا الانتصار على البرتغاليين قويت شوكة حسن باشا عند اليمنيين أكثر ،وهابه من كان يروم الخروج عن طاعته.

وفيما يخص الإقليم الشمالي المتمثل في بلاد صعدة، فقد قرر حسن باشا بسط السيطرة العثمانية عليه؛ كونه من الأقاليم التي لم تدخل تحت السيطرة الفعلية الكاملة للعثمانيين لوعورته وشدة ولاء أهله لآل شرف الدين، إذا ما علمنا أن الوجود العثماني في هذا الإقليم منذ دخول العثمانيين اليمن كان شكليا أكثر من كونه وجودا فعليا، وغالبا ما كان يمثل وجود السيادة العثمانية فيه حامية عثمانية صغيرة. وفي هذا المرحلة قرر حسن باشا بسط السيطرة الكاملة على هذا الإقليم، وجهز جيشا بقيادة سنان بك يرافقه الأمير عبد الله بن المطهر والأمير مطهر بن الشويع وهم من الأمراء المحسوبين على الزيدية، سبق أن استقطبهم حسن باشا سنة ٩٩١هـ بعد أن زاروه في صنعاء، كما انضم إلى سنان بك من أهل الجوف عدد لا باس به[٤٦٢]، وقد سار بهم حتى وصل بركة مداعس وعندها التقى بهم صاحب صعدة آنذاك السيد أحمد بن حسين المؤيدي وعمه المهدي وأولاده، الذين كانوا قد قرروا لقاء جيش العثمانيين في الطريق للحيلولة بينه وبين وصوله صعدة، وقد عسكروا في جبل الشرفة أو– شرفة آل عمار– جنوب صعدة بعد أن قاموا بتحصينها.

[٤٦١] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٦٢٢.

[٤٦٢] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٥٩.

دارت حرب بين الفريقين انهزم على إثرها السيد المؤيدي، وقتل هو وابن عمه مع ٨٠ رجلا من أتباعه، والتجأ أولاده وعمه المهدي إلى حصن أم ليلى[٤٦٣] بعد أن هربوا من أرض المعركة. وتقدم سنان بك واستولى على معظم بلاد صعدة، وحاصر حصن أم ليلى لأيام، ولم يصمد كثيرا أمام قوة العثمانيين ومدافعهم؛ فاستولوا عليه وغنموا ما فيه من الأموال والخزائن[٤٦٤]. وبحلول سنة ٩٩٢هـ كان سنان بك قد استولى على جميع بلاد صعدة حتى نجران شمالا، وتحقق حلم حسن باشا بإحكام السيطرة على ذلك القطر المهم من اليمن.

أحس حسن باشا بالخطر من بعض أولاد المطهر الذين لم يُقدموا على الخطوة التي خطاها عبد الله بن المطهر والأمير مطهر بن الشويع بالتقرب منه والدخول المباشر في خدمة العثمانيين، وحتى يأمن جانبهم ويحترز من عدم قيام أي انتفاضة مناهضة لحكمه، قام بدعوتهم إلى صنعاء، ثم أمر بإيداعهم السجن وبعد فترة وتحديدا في ١٨ شوال سنة ٩٩٤هـ الموافق ٢ أكتوبر ١٥٨٦م، أمر بنفيهم إلى إسطنبول، وأمر كتخداه سنان بك بإيصالهم إلى ميناء المخا لإرسالهم من هناك عبر البحر إلى منفاهم، والمنفيون هم: لطف الله، وحفظ الله، وغوث الدين أبناء المطهر، وابن أخيهم محمد بن الهادي بن المطهر، والإمام الحسن بن علي، ونصيره الشيخ وهان العذري، وقد قضوا في إسطنبول باقي أيام حياتهم. وبهذه الخطوة فقد أمن حسن باشا من احتمالية قيام أي دعوة مناهضة للحكم العثماني من خلفاء المطهر

---

[٤٦٣] أم ليلى: جبل في مديرية باقم، التابعة لمحافظة صعدة، يبعد حوالي ٤٨ كيلومتر شمال غرب مدينة صعدة، وفي أعلى الجبل حصن مشهور، له سور وأبراج، ويتم الطلوع إليه عبر طريق معبد بالأحجار. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج٢، ص١٣٨٣.

[٤٦٤] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٥٩-٧٦٠. ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص٧٤٨.

بن شرف الدين، وهدأت الأوضاع في المنطقة الشمالية حتى ظهور دعوة الإمام القاسم في أوائل سنة ١٠٠٦هـ الموافق ١٥٩٧م[٤٦٥].

وفي سنة ٩٩٥هـ ظهر تمرد في بلاد المقاطرة، وهي من البلدان المعروفة بوعورة جبالها وتعقيد مسالكها وكثرة مهالكها، ولمواجهة ذلك التمرد حشد سنان بك أكثر من ١٢ ألف مقاتل، واستطاع استعادة السيطرة العثمانية فيها، وأخذ الرهائن من أهلها[٤٦٦]. وفي السنة نفسها وتزامنا مع السيطرة على بلاد المقاطرة استولى العثمانيون على شهارة[٤٦٧]، ودخلوا حصنها المعروف بشهارة الأمير الذي يعد من أهم الحصون والقلاع في بلاد اليمن، ويُذكر أن سيطرتهم على هذا الحصن كان بتواطؤ من أحد أشراف غربان يدعى السيد عبد الله بن حاجب الغرباني[٤٦٨].

وفي يافع[٤٦٩] حدثت اضطرابات أرهقت العثمانيين، وكلفتهم الكثير، واستغرقت حوالي أربع سنوات حتى تم إخمادها[٤٧٠]، وذلك بعد أن توجه إليهم سنان بك في جيش جرار يضم جموعا كبيرة من العرب والعثمانيين، ودخلها قهرا، وقتل من أهلها خلقا كثيرا، وقبض الرهائن منهم[٤٧١].

---

[٤٦٥] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ٢٢٦. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص ٣٤٩.

[٤٦٦] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص٦٤.

[٤٦٧] شُهَارة: مدينة معروفة في بلاد الأهنوم شمال مدينة حجة، وهي عبارة عن مدينتين تعرف إحداهما بشهارة الأمير نسبة الى الأمير محمد بن جعفر بن قاسم العياني، أما الأخرى فتعرف بشهارة الفَيْش، وكلا المدينتين أعلى جبلين تفصل بينهما هاوية سحيقة يبلغ عمقها نحو ٢٠٠ متر، وللوصول لهما كان هناك طريق واحد عبر جسر مشهور ما يزال موجودا لحد الآن، والآن بعد أن تم شق الطرق الحديثة للسيارات فقد صارت شهارة مدينة مفتوحة، وتعد شهارة من أمنع الحصون في بلاد اليمن وأشهرها، وتشكل اليوم إحدى مديريات محافظة حجة يتبعها عدد من المراكز الإدارية. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص٨٨٠-٨٨١.

[٤٦٨] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص ٢٢٧. يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٦٦.

[٤٦٩] يافع: بلاد وقبيلة تقع ما بين الضالع ولحج في منطقة معروفة قديما بسَرْو حمير، وهي اليوم تشكل إحدى مديريات محافظة لحج، تتميز بكثرة آثارها التاريخية، وبنمطها المعماري الخاص، وكانت تشتهر بزراعة البن قبل أن تحتل شجرة القات المساحة الأكبر. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج٢، ص١٨٩٤.

[٤٧٠] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣٥١.

[٤٧١] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص ٦٧-٦٨. عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ٢٢٨.

ومن الاضطرابات الداخلية التي نشبت أيام حسن باشا انتفاضة المساجين في قلعة القاهرة بتعز في رجب سنة ٩٩٦هـ، حيث قام المحابيس بانتفاضة؛ نتيجة لما لحقهم من ظلم وعذاب من آغا القلعة الذي وصل به الأمر إلى استخدامهم في أعمال بساتين ومزارع القلعة ونزع الماء إليها من الأسداد وهم مكبلين بالقيود.

وقد خلا لهم الجو ذات يوم بخلو القلعة من القيادات بسبب ذهابهم مع حاكم تعز آنذاك سفر آغا لإحدى مهام جمع الجند، فعمد جماعة من المساجين ودفعوا بآغا القلعة إلى سد جوار القلعة، فجعل يسبح في الماء يريد الخروج وإنقاذ نفسه، لكنهم رموه بالحجارة حتى مات، ثم قام جماعة منهم إلى أبواب القلعة وأغلقوها، وبعضهم ذهب إلى مخزن الأسلحة وأخذوا منها، وفكوا القيود لبعضهم بعضا، وكادت انتفاضتهم أن تنجح ،ويخلّصوا كل من في القلعة لولا تنبه سفر آغا للأمر ورجوعه على وجه السرعة، وتم ضبطهم وضربهم، وأعاد القيود على أرجلهم وبأثقل مما كانت.

عندما علم حسن باشا بتلك الانتفاضة أمر بأن يتم وضع من كان مضطلعا فيها في خياش، ورميهم من أرفع مكان في القلعة، فتم الأمر كما أمر الباشا، وتم تصفيتهم بتلك الطريقة جزاء لفعلهم[٤٧٢]. وإدراكا من حسن باشا بأهمية لواء تعز، وأن حدوث أي فوضى فيه ستؤثر على باقي الأقاليم، فقد أصدر قرارا في سنة ٩٩٩هـ يقضي بتولي ابنه حسين بك على تعز وأعمالها وجبل صبر وشرعب والحجرية، وقد حكمها الأخير بأسلوب جيد، وضرب السكة فيها باسم السلطان العثماني مراد الثالث، وكان لديه خطة للإصلاح والإعمار، لكنه توفى قبل تحقيق ذلك[٤٧٣].

[٤٧٢] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص ٦٥-٦٧.

[٤٧٣] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص ٦٨-٦٩. يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٦٧.

وثمة تمرد داخلي خطير يختلف عن سابقيه في أنه ظهر من داخل السلك العسكري العثماني، ففي سنة ١٠١٠هـ تمرد وخرج عن طاعة الوالي العثماني أحد رجال عسكره يدعى دالي جعفر، دفعه للتمرد خلاف نشب بينه وبين الوالي حسن عقب تكليفه بمهمة في جهة رداع[٤٧٤]، والظاهر أن أصل الخلاف وقع بين دالي جعفر وبين كاشف رداع، لكنه كان بمثابة شرارة لإطلاق تمرد دالي جعفر.

وكيفما كان الأمر، فقد خرج دالي جعفر عن طاعة الوالي العثماني ومعه حوالي ٣٠٠ من العساكر الموالين له، كان قد وعدهم بالأموال من المناطق التي سيستولي عليها، وقد خرج بهم إلى العدين والمخلاف ووصلوا إلى زبيد، وتزايد عدد العساكر المنطوين تحت لوائه حتى بلغوا ما يقارب الألف، وأصبحوا يشكلون تهديدا خطيرا للوجود العثماني في اليمن، وكاد أن يظهر أمره أكثر لولا نهايته المفاجئة التي كانت على يد كاشف زبيد حين تظاهر بمساعدته له، وبيّت له خديعة، فلما دخل عليه طعنه برمح بين كتفيه حتى خرج من صدره، وتم احتواء الموقف، ونودي بالأمان لعسكره وأتباعه وسكنت فتنته، وانتهى أمره[٤٧٥].

لا شك أنه حدث في فترة ولاية حسن باشا استقرار نسبي في بعض الأحيان مقارنة مع فترات بعض الولاة السابقين التي كانت فترتهم يغلب عليها الصراع الدائم منذ دخول الوالي حتى مغادرته، وكان حسن باشا يستغل فترات الهدوء للتفرغ للأعمال السياسية والدبلوماسية والعلاقات الخارجية، ففي رمضان سنة ١٠٠٢هـ وصل إلى صنعاء وزير ملك الهند عزيز كوكه في زيارة رسمية غير مسبوقة، وقد

---

[٤٧٤] رداع: مدينة مشهورة شرق ذمار على مسافة حوالي ٥٠ كيلومترا، وتشكل إحدى مديريات محافظة البيضاء. الشيبة، عبد الله حسن وآخرون، الموسوعة اليمنية، مرجع سابق، مادة رداع، ج٢، ص١٣٨٢.

[٤٧٥] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص ٩١-٩٣.

استقبله حسن باشا استقبالا رسميا كبيرا، وجلب الوزير الهدايا للباشا، وأقام في صنعاء إلى شهر شوال، ثم عزم على الحج[٤٧٦]، وتدل هذه الزيارة على مستوى العلاقات القوية بين مملكة الهند والدولة العثمانية من جهة، وعلى قوة شخصية حسن باشا وحُسن إدارته وعلاقاته الخارجية من جهة أخرى، كما يعكس مدى الاستقرار التي وصلت إليه اليمن في تلك الأيام.

استطاع حسن باشا بفعل حنكته السياسية وجهوده العسكرية من السيطرة الكاملة على اليمن بما فيها الإقليم الشمالي الذي كان الوجود العثماني فيه يمكن أن يوصف بأنه شكلي، لذلك ذهب المؤرخون العرب والأتراك المعاصرون والمتأخرون إلى أن حسن باشا هو فاتح اليمن الثاني؛ نظرا للجهود التي بذلها في ولاية اليمن والنتائج التي حققها[٤٧٧]، كما أشار المؤرخ المعاصر سيد مصطفى سالم إلى أن ثمة عوامل وأسبابا ساعدت حسن باشا على بلوغ هذه الأهمية، منها طول فترة ولايته (١٥٨٠- ١٦٠٥م)، وقوة شخصيته وخبرته السياسية في مقابل عدم وجود شخصية قوية بين أبناء المطهر بن شرف الدين، كما أن قوة الدولة العثمانية آنذاك انعكست على الوضع في اليمن، فقد كانت إسطنبول لا تتوانى عن دعمه خاصة أثناء نشوب ثورة الإمام القاسم[٤٧٨]. وقد حدد سالم ملامح ومرتكزات سياسة حسن باشا في اليمن بما يلي:

١) توجيه ضربات قوية إلى الخارجين عن السيادة العثمانية.

---

[٤٧٦] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص٢٣٠. يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٦٨.

[٤٧٧] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ٣٣١ نقلا عن أحمد راشد، تاريخ يمن وصنعاء، ج١، ص ١٨٦ – ١٨٧. وعاطف باشا، يمن تاريخي، ص ٨٨.

[٤٧٨] للمزيد انظر: سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص ٣٣١ – ٣٣٣.

٢) العمل على التخلص من العناصر القوية من أبناء المطهر وغيرهم من الأمراء في المنطقة الشمالية.

٣) العمل على تقريب اليمنيين إليه ونشر العدل والأمن والخدمات ما أمكنه ذلك[٤٧٩].

ثورة الإمام القاسم وجهود حسن باشا المضادة[٤٨٠]:

لا شك أن ثورة الإمام القاسم تُعد أهم وأخطر ثورة على الوجود العثماني في اليمن؛ لأنها استطاعت أن تنهي السيادة العثمانية فيه، وتُكسب اليمن استقلاله عام ١٦٣٥م؛ ويُسَجل بذلك أول ولاية عربية تستقل عن الدولة العثمانية.

كان الإمام القاسم يسكن صنعاء، ويقوم بالتدريس في أحد مساجدها قبل ظهور دعوته في أواخر سنة ١٠٠٥هـ، وقد أورد مؤرخون منحازون إلى دعوته قصة بداية ظهوره وهروبه من صنعاء جراء ملاحقة حسن باشا له، فأورد صاحب كتاب "غاية الأماني في أخبار القطر اليماني" حكاية لبداية هذه الدعوة، سنوردها بالرغم من تحفظنا على مدى صحتها؛ كوننا نراها أقرب إلى الخرافات التي طالما كان يتم نسجها لتمرير أمر ما في ذلك الزمن، هذه الحكاية مفادها أن الناس في صنعاء كانوا يسمعون مناديا في الليل ينادي (يا إمام قاسم)، واستمر هذا الحال حوالي شهرين، وكانوا يذهبون إلى موضع النداء فلا يجدون أحدا، وقد أشار عليه بعض

---

[٤٧٩] نقل بتصرف من سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص ٣٣٤.

[٤٨٠] الإمام القاسم: هو القاسم بن محمد بن علي بن محمد، يعتبر من أهم وأشهر الشخصيات اليمنية في القرن السابع عشر، أفرد له المؤرخ الجرموزي مؤلفا بعنوان سيرة الإمام القاسم بن محمد، تم تحقيقه من قبل المؤرخة اليمنية الدكتورة أمة الملك الثور، كجزء من متطلبات الحصول على درجة الدكتوراه. للمزيد عن الإمام القاسم بن محمد وعلاقاته مع الأتراك العثمانيين انظر: المداح، أميرة علي وصفي، العثمانيون والإمام القاسم بن محمد بن علي في اليمن ١٠٠٦هـ/١٥٩٨م – ١٠٢٩هـ/١٦٢٠م، رسالة ماجستير مجازة من قسم التاريخ بجامعة الملك عبد العزيز، جدة، ١٩٨٠م.

تلاميذه بالقيام بمهمة الدعوة للإمامة، بالرغم من أنه لم يكن في باله ذلك، ولما علم حسن باشا بالأمر أراد التعرف على الإمام القاسم، وأخذ يبحث عنه بعد أن توارى عن الأنظار، ولما علم الإمام القاسم بأن حسن باشا يبحث عنه خرج من صنعاء خائفا ومعه اثنان من تلاميذه، واتجه إلى شبام كوكبان، ثم توجه منها إلى بلاد الشرف، واستقر في بلدته الأصلية التي تُعرف بالقويعة[٤٨١] من أعمال الشاهل[٤٨٢].

بدأ الإمام القاسم بن محمد دعوته بعد خروجه من صنعاء، وتحديدا في صفر من سنة ١٠٠٦هـ الموافق سبتمبر ١٥٩٧م، وكان قد ابتدأ دعوته في بلاد حجة من مكان يعرف بحديد قارة[٤٨٣]– شامي بلاد الشرف–[٤٨٤]. واستجاب لدعوته بعض أهل تلك الجهات، وبعض أهل الأهنوم، وبنو عباس وغيرهم، فاجتمع حوله ما يقارب ٤٠٠ شخص، وكان أول صدام بين أتباعه والعثمانيين حدث مع نائب عامل الشرف الذي تغلب عليه أتباع الإمام.

وما إن علم حسن باشا بأمر الدعوة وخروج القاسم عن طاعة الدولة العثمانية حتى أصدر أوامر إلى قائده المقرب سنان بك تقضي بتجهيز الأمير عبد الله المعافا على رأس قوة كبيرة من العسكر والأسلحة والذهاب على وجه السرعة إلى الأهنوم؛ لتفادي أي خطر محتمل، كما وجه الأمير عبد الله بن المطهر إلى خمر[٤٨٥] ثم إلى

---

[٤٨١] القُوَيْعة: قرية جنوب مديرية الشاهل التابع لمحافظة حجة. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج٢، ص١٣٠٦.

[٤٨٢] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٦٩.

[٤٨٣] حديد قارة: قرية بجبل قارة من مديرية وشحة في بلاد حجور التابعة لمحافظة حجة. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص٤٣٥.

[٤٨٤] الكبسي، اللطائف السنية، مصدر سابق، ص٢٩٨.

[٤٨٥] خَمِرْ: مدينة مشهورة من بلاد حاشد شمال صنعاء، سميت نسبة إلى خمر بن دومان بن بكيل بن جُشم بن خيوان بن نوف بن همدان، وهي مركز قبائل بني صريم الحاشدية، ومركز زعمائها آل الأحمر. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص٥٨٠.

وادعة[486]، أما سنان بك فقد توجه إلى حضور في بني مطر غرب صنعاء؛ لعلمه أن فيها تجمعات تدين بالولاء للإمام القاسم[487]، وحدث قتال عظيم بينهم وبين سنان بك استطاع الأخير بطريقة أو بأخرى التغلب عليهم، ثم توجه نحو ثلا لإخماد تمرد جديد نشب هناك، وبعد حرب استمرت لمدة أسبوع، كاد سنان بك أن يستعيد ثلا، لكنه رجع إلى صنعاء بعد أن طلبه حسن باشا هو ومن معه من العساكر، ويبدو أن حسن باشا استدعاه تحسبا لأي هجوم محتمل على صنعاء، إذا ما علمنا بأن الفقيه يوسف الحماطي كان قد خرج بعصيان آخر في بلاد الحيمة[488]، وأخذ يُسقط المناطق بشكل سريع دون أن يستطيع أحد إيقافه حتى وصل إلى آنس ثم ذمار واتخذها نقطة انطلاق لقتال العثمانيين.

وقد تطور الأمر وتعقد أكثر باستجابة أهل الحيمة لدعوة الإمام القاسم، ما جعل حسن باشا يرسل الأمير أحمد بن يوسف الواعظ مع جيش كبير إلى ذمار لمواجهة الحماطي، ولما علم الأخير بخروج الجيش العثماني نحو ذمار خرج لملاقاته إلى مكان يقال له يفاع[489]، ويُذكر أنه لما علم أن الواعظ هو قائد الجيش العثماني وليس سنان بك هان عليه الأمر واستهان به، فقصده الواعظ وأحاط به، ثم قبضه أسيرا، وأرسله إلى صنعاء في جمادى الأخرى سنة ١٠٠٦هـ[490].

---

[486] وَادِعَة: قبيلة كبيرة تنحدر من قبيلة حاشد ثم قبيلة همدان الكبرى، ومساكن وادعة منتشرة في كثير من البلدان الإسلامية، أما داخل اليمن فقد توزعت مساكنهم في مناطق عدة أشهرها وادعة حاشد، وادعة الشام في شرق صعدة، ووادعة همدان صنعاء. والمقصود هنا هي وادعة حاشد، وهي تشكل قسم تاسع من قبيلة بني صريم، وهي اليوم مركز إداري يتبع مديرية خمر محافظة عمران. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج٢، ص١٨٤٣.

[487] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص ٢٣٣.

[488] الحَيْمَة: بلاد واسعة غرب مدينة صنعاء بمسافة ٣٧ كيلومترا، عُرفت قديما باسم قبيلة الأَخْرُوج، وتنقسم إلى قسمين الحيمة الداخلية ومركزها العِر، والحيمة الخارجية ومركزها مَفْحَق. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص٥٥١-٥٥٢.

[489] يَفَاع: قرية كبيرة من قرى مديرية عنس محافظة ذمار. الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، مرجع سابق، ج٢، ص٧٨٤.

[490] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص٢٣٣-٢٣٨. يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٧٢ – ٧٧٣.

وفيما يخص بلاد صعدة، فقد حاول الإمام القاسم جاهدا بسط سيطرته عليها؛ كونها تمثل عمقا استراتيجيا للزيدية على مر العصور، فأرسل إليها في محرم من سنة ١٠٠٧هـ السيد عبدالله بن محمد المحرابي في عسكر كثير؛ لغرض نشر دعوته وبسط السيطرة عليها.

وفي سنة ١٠٠٨هـ تم مهاجمة الحامية العثمانية فيها، لكن قائد الحامية آنذاك الأمير مصطفى استطاع أن يصمد في مواجهة أتباع الإمام، ودخل معهم في مناوشات انتصر فيها بعد أن هربوا إلى الجبال، وحاصر من بقي منهم في بيوت رحبان[٤٩١] حتى سلموا أنفسهم بعد أن أعطاهم الأمان، ويُذكر أن الأمير مصطفى لم يفِ بوعده الذي قطعه لهم، وقام بقتلهم جميعا، وهم حسب روايات المؤرخين يومئذ حوالي ٦٠٠ نفر[٤٩٢].

ومما لاشك فيه، أن دعوة الإمام القاسم وسرعة استجابة القبائل لها- خصوصا في الشمال- أحدثت إرباكا كبيرا داخل صفوف العثمانيين، مما اضطر حسن باشا لطلب المساعدة من الدولة العثمانية، وعلى الفور أرسل السلطان أوامره إلى والي مصر بسرعة تجهيز ما يلزم من إمدادات وإرسالها إلى اليمن، ووصل إلى اليمن الباشا علي الشهير بالجزائري في رجب من سنة ١٠٠٧هـ الموافق يناير ١٥٩٩م قادما من الحبشة كمدد لحسن باشا، وقد قام الجزائري بدور كبير في مساعدة حسن باشا، فأصلح كثيرا من الاختلالات في وصاب وريمة وما جاورهما، وقد كانت نهاية

---

[٤٩١] رَحْبَان: منطقة تقع جنوب مدينة صعدة القديمة، كانت عبارة عن قرى ومزارع تنتج أنواعا مختلفة من الأعناب والفواكه، حاليا ومع التوسع المعماري في مدينة صعدة تُشكل رحبان جزءا من المدينة نفسها. الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، مرجع سابق، ج١، ص٣٥٩.

[٤٩٢] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٧٨- ٧٨٣.

هذا القائد الشجاع في أرض اليمن عندما اجتمع عليه الناس في دنوة من بلاد ريمة، وقيل أن سبب وفاته كانت بحجر رُجم بها في رأسه[٤٩٣] في ٢٣ صفر سنة ١٠٠٩هـ الموافق ٣ سبتمبر سنة ١٦٠٠م[٤٩٤].

لم يخلُ الجو لحسن باشا للتفرغ لتمرد الإمام القاسم، بل حدثت بعض الاختلالات في مناطق أخرى شتّت جهوده، وفرّقت عساكره، منها حدوث اضطراب في عدن سنة ١٠٠٨هـ تمرد فيه الرهائن والمحابيس بعد أن اعتدوا على أمراء السجن، وأخذوا أسلحتهم، وأغلقوا الأبواب، ونقضوا القيود من أرجلهم ، وكاد أن يعظم الأمر، وتتسع دائرة الاضطراب لولا قيام حاكم عدن يومئذ الأمير سليمان بك بتلافي الأمر والاجتماع فورا مع جماعة من أمرائه وأعيان البلد، وأقروا أن يعطوا الرهائن والمحابيس الإذن بالخروج، وأن يبذل لهم الأمان مقابل عدم التصعيد وإرجاع الأسلحة[٤٩٥].

وبالعودة إلى ترتيبات العثمانيين لمواجهة ثورة الإمام القاسم، فقد عملوا بكل ما أوتوا من قوة لإخمادها، وحاول حسن باشا وكتخداه سنان بك السيطرة على المواقع والأماكن ذات المكانة الإستراتيجية للإمام القاسم، فعمدوا إلى حصن ثلا بعد أن تفرق أتباع الإمام في أكثر من جبهة، ولم يلبث حصن ثلا المنيع كثيرا بعد الضغط الشديد عليه حتى استسلم[٤٩٦]، ثم وجه سنان بك كل قوته لأخذ شهارة، وكلف لتلك المهمة الأمير عبد الله بن المعافا الذي استطاع أن يصل إليها بعد أن أخضع كل

---

[٤٩٣] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص٨٨-٨٩.

[٤٩٤] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص ٣٧٠.

[٤٩٥] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص ٩٠ – ٩١.

[٤٩٦] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص ٢٤٨-٢٤٩.

المناطق التي مر منها، وحاصرها لمدة سنة وثلاثة أشهر حتى اضطر محمد بن الإمام القاسم المتمركز فيها إلى المصالحة والتفاوض على أن ينتقل هو وأقاربه وأعيان أصحابه إلى كوكبان، بينما بقية أهل شهارة ينتقلون إلى حيث يريدون[٤٩٧]، وكان خروجهم منها في محرم سنة ١٠١١هـ[٤٩٨].

ولما أحس الإمام القاسم بالخطر ورجحان كفة العثمانيين في المواجهات قرر الذهاب إلى برط[٤٩٩]، وبالرغم من أن الإمام اعتبر بلاد برط الجبلية ملاذا آمنا له فإنه تعرض فيها لمحاولة تصفية على يد نائب حسن باشا على صعدة، وذلك بمحاولته إغراء الشيخ عبيد البرطي بالمال مقابل إلقاء القبض على الإمام القاسم، لكنه - البرطي - تمنع من ذلك، بل يُذكر أنه أخذ المال وأحضره إلى الإمام وأخبره بالخبر.

وقد أقام الإمام القاسم في برط، وبنى فيها مسجدا، وجعله مقرا لدعوته، وبقي بعيدا عن متناول العثمانيين، وهدأت الأوضاع حتى أتيحت له الفرصة لاستعادة نشاطه ضد العثمانيين أثناء فترة ولاية سنان باشا الكيخا ١٦٠٤-١٦٠٧م.

وهكذا انتهت المرحلة الأولى من ثورة الإمام القاسم التي استمرت حوالي خمس سنوات سيطر خلالها على أغلب المنطقة الشمالية، ثم عاد فخسر كل ما حققه، ولجأ إلى منفاه الاختياري في برط[٥٠٠].

---

[٤٩٧] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٨٣.

[٤٩٨] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ٢٥٢.

[٤٩٩] بَرَطٌ: منطقة جبلية تقع شمال شرق صنعاء، سميت نسبة إلى برط بن كريم بن الدعام بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان بن بكيل، وتتكون منطقة برط من ثلاث مديريات هي: برط العنان، وبرط المراشي، و رَجُوْزَه ، وجميعها تم ضمها إلى محافظة الجوف، بعد أن كانت تابعة لمحافظة صنعاء. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص١٥٥-١٥٦.

[٥٠٠] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص ٣٧١.

أعمال حسن باشا الإنشائية في اليمن:

يُعد الوالي حسن باشا ١٥٨٠- ١٦٠٥م من أهم الولاة العثمانيين الذين اهتموا بالأعمال المعمارية والإنشائية في اليمن، وقد ساعده في ذلك طول فترة بقائه فيها، إضافة إلى شخصيته التي كانت تميل إلى البناء والاستقرار أكثر من الحروب والأعمال العسكرية، ولهذا تعددت مآثره في اليمن ما بين المدارس والمساجد والزوايا العلمية وغيرها.

ومن أهم مآثر الوالي حسن باشا بأرض اليمن جامع البكيرية بصنعاء، تم بناؤه في سنة١٠٠٥هـ، وكان الجامع الرسمي آنذاك، يقع في الجزء الشرقي من مدينة صنعاء، وسمي بجامع البكيرية تيمنا ببانيه بكير آغا الذي دفن بعد ذلك بجوار المسجد.

كما بنى الباشا حسن حمام الميدان في صنعاء، ووسع مسجد داوود[٥٠١]، وزاد في عدد قبابه، ووسع كذلك مسجد المدرسة الشرقية[٥٠٢]، كما كان له دور كبير في ترميم أجزاء من سور صنعاء وإصلاحه، واهتم بقبر فروة بن مسيك الذي كان يقع خارج صنعاء آنذاك، وبنى جواره مسجدا[٥٠٣].

وفي تعز تم إصلاح الطرق والمدرجات، وإنشاء جبّانة كبيرة لصلاة العيد خارج المدينة[٥٠٤]، كما اهتم ابنه حسين، بعد أن ولاه على تعز، بترميم وإصلاح المدرسة

---

[٥٠١] من المساجد العامرة في صنعاء، يقع وسطها بالقرب من سوق البقر، عمّره الشيخ داوود بن المكين في القرن السابع وينسب إليه. انظر: الحجري، القاضي محمد بن أحمد، مساجد صنعاء، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٤م، ص٥٦.

[٥٠٢] من المساجد العامرة، يقع شرق صنعاء وغربي الطريق النافذة من باب شعوب إلى الميدان، قيل كان محله مسجد صغير من عمارة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وكان يسمى بمسجد الأزهر، أشهر من وسع فيه كان الإمام المتوكل على الله شرف الدين يحيى بن شمس الدين سنة ٩٢٦هـ. الحجري، مساجد صنعاء، مرجع سابق، ص١٠٥-١٠٦.

[٥٠٣] الثور، مرجع سابق، ص ١٢٩. يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٨٤ و٧٦٩.

[٥٠٤] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص ٧٠.

الظاهرية التي بناها السلطان الظاهر يحيى بن الملك الأشرف إسماعيل[505]، وفي عمران قام حسن باشا بإعادة إعمار مدينة عمران بعد أن خربها المطهر في أزمنة سابقة أثناء حروبه مع العثمانيين[506].

عزل حسن باشا عن ولاية اليمن:

غادر حسن باشا اليمن يوم السبت الثاني والعشرين من محرم سنة ١٠١٣هـ، بعد أن وصل في شوال من سنة ١٠١٢هـ رسول من والي مصر يحمل معه مرسوما يستدعي فيه الوالي حسن باشا من بلاد اليمن، ويُذكر أن الباشا قبل مغادرته لليمن جمع الناس في الديوان السلطاني، ونصّب كتخداه سنان بك على رأس الولاية.

هكذا انتهت فترة أحد أهم الولاة العثمانيين الذين حكموا اليمن في الفترة الأولى. وأخيرا، يمكننا القول بأن فترة حكم حسن باشا في اليمن كانت فترة قوة، فاستطاع توسيع رقعة السيادة العثمانية حتى بلغ عدد السناجق/الألوية حوالي أربعين سنجقا/لواء، وهو ما لم يكن لأحد من الولاة قبله[507].

سنان باشا الكيخا ١٦٠٤-١٦٠٧م:

كان من الشخصيات العثمانية البارزة في اليمن أثناء فترة الوالي السابق حسن باشا خصوصا بعد أن عينه نائبا له وقائدا أعلى للجيش العثماني، وكان من أهم الأمراء الموثوقين الذين اعتمد عليهم في كثير من أموره.

---

[505] الثور، مرجع سابق، ص ١٢٩.

[506] ابن داعر، الفتوحات المرادية، مصدر سابق، ص ٦٥١.

[507] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٨٤. روح عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص ٢٥٣-٢٥٤. الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص ٩٤.

تصفه المصادر المعاصرة أنه كان رجل قوى الشخصية، كثير البحث عن خفايا الأمور والتتبع لأحوال الناس، وفي حال ظهر له خلل فإنه لا يتوانى عن إنزال العقاب القاسي بمرتكبه، وكان يصعب مراجعته من أجل العدول في قراراته[٥٠٨].

قدّم للدولة العثمانية في اليمن خدمات جليلة قبل توليه عليها، أهمها أنه استطاع أن يعيد السيطرة العثمانية إلى كثير من المناطق التي أظهرت التمرد والخروج على العثمانيين، ومن المؤكد أن تلك التجربة الكبيرة أفادته كثيرا عندما أصبح واليا، حيث كان على علم ودراية بأوضاع اليمن وتركيبته القبيلة والجغرافية مما سهل عليه التعامل مع الأوضاع وإدارة الولاية بشكل جيد.

لم تكن فترة ولاية سنان باشا الكيخا في اليمن فترة هدوء واستقرار تام، بل شابها كثير من الاضطرابات، على رأسها استعادة الإمام القاسم لنشاطه الثوري بعد أن كان قد تم قمعه ومحاصرته في برط. وقد ساعدت الإمام على استعادة نشاطه مجموعة من العوامل أهمها: انشقاق الأمير عبد الرحيم بن عبد الرحمن عن العثمانيين، وانضمامه إليه، الأمر الذي أتاح للإمام أن يبدأ مرحلة جديدة من الصراع مع العثمانيين، وقد كان العثمانيون يعتمدون على الأمير عبد الرحيم اعتمادا كبيرا في كثير من الأشياء، أبرزها إخماد ثورة الإمام القاسم في مرحلتها الأولى.

كانت أولى أعمال الإمام القاسم في هذه المرحلة أن انتقل من برط إلى الظاهر؛ لغرض تأليب قبائلها ضد العثمانيين، وقد استجابت له بعض القبائل، الأمر الذي أزعج سنان باشا، وجعله يرسل جيشين، الأول أرسله من جهة صنعاء إلى الظاهر ووادعة يقوده الأمير عبد الله بن المعافا، والثاني أرسله من محور

---

٥٠٨ يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٩٣. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ٣٧٦.

صعدة يقوده الأمير قرا/كارا جمعة، كان قد أمره بالتقدم من صعدة إلى برط؛ لغرض التضييق على الإمام وتحجيمه، لكن الجيشين لم يحققا أي شيء يُذكر[٥٠٩].

وثمة اضطراب آخر في فترة ولاية سنان باشا حدث في بلاد الحيمة سنة ١٠١٣هـ، وللقضاء عليه أرسل الأمير (ذو الفقار) على رأس جيش استطاع أن يقوض الاضطراب، ويعيد الحيمة إلى السيطرة العثمانية. كما حدثت اضطرابات طفيفة في كل من الحدا وبلاد حراز استطاع سنان باشا إخمادها بدون تضحيات تُذكر[٥١٠].

وبالرغم من أن فترة ولاية سنان باشا الكيخا لم تكن طويلة، ولم تزد على ثلاث سنوات ١٦٠٤- ١٦٠٧م، فإنه ترك مآثر كثيرة في بلاد اليمن، يأتي في مقدمتها قيامه بسك عملة خاصة به، قرنت باسمه، يقال لها: "بقشة سنانية" و"منقير سناني"، ضربها في صنعاء، وكان كل أربعين بقشة منها أوقية كاملة؛ بل والثمانية والثلاثون بقشة منها أوقية كاملة أيضا، وتم التعامل بها في جميع أنحاء اليمن، كما ضرب سنان باشا المناقير النحاسية، فكان كل منقير يساوى أربعة أقفال، وكان صرف البقشة الفضية السلطانية أربعة مناقير سنانية[٥١١].

ومن مأثره وأعماله الأخرى بناء سمسرة كبيرة في مدينة تعز، وجعلها سبيلا للمسافرين ومأوى للنازلين إليها، ورتب لها من يقوم بخدمتها، وجعل من خارجها دكاكين أوقفها لصالحها[٥١٢]، وفي صنعاء عمّر صرح الجامع الكبير والقبة التي في

---

[٥٠٩] للمزيد انظر: يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٨٦. عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص ٢٥٥. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص ٣٧٦ – ٣٧٧.

[٥١٠] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص٢٥٤.

[٥١١] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٩٣. الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص ٩٧ – ٩٨.

[٥١٢] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص ٩٦ – ٩٧.

وسطه، وبنى منارة مسجد صلاح الدين[٥١٣]، وكانت حينها أطول منارة في صنعاء، كما بنى حصنا في أعلى جبل نقم، وقام بتشييد بركة كبيرة في قرية القبتين الواقعة في الطريق بين صنعاء وتعز تُحفظ فيها المياه؛ لتنتفع منه الدواب، ورصف الطريق إلى مدينة شهارة شمال صنعاء[٥١٤]، ومن المآثر التي يكاد ينفرد بها سنان باشا أنه وضع دفترا جامعا لأوقاف صنعاء، وأمر القضاة أن يحكموا بصحته[٥١٥].

وفي شهر جمادى الأولى من سنة ١٠١٦هـ وصل إلى ولاية اليمن الوزير جعفر باشا واليا جديدا؛ لتطوى صفحة سنان باشا الكيخا التي استمرت لأكثر من سبع وعشرين سنة، منها ثلاث سنوات كان واليا، والبقية قضاها في خدمة الدولة العثمانية في اليمن تحت إمرة حسن باشا[٥١٦].

وما إن وصل جعفر باشا إلى اليمن حتى عزم الباشا سنان على الرحيل منها، وخرج من صنعاء في ٢٣ جمادى الأخرى سنة ١٠١٦هـ باتجاه تعز، ولم يلتقِ فيها بجعفر باشا، وإنما اكتفوا بالمراسلات، وكان معه مجموعة من المقربين منه على رأسهم ابنه محمد، ولما وصل إلى المخا وافته المنية؛ نتيجة مرض أصابه، وكانت وفاته في ٣ شعبان من السنة المذكورة، ودفن في المخا[٥١٧].

---

[٥١٣] مسجد صلاح الدين: من المساجد العامرة في الجهة الشرقية من صنعاء القديمة، عمره الإمام صلاح الدين محمد بن الإمام المهدي علي بن محمد في النصف الثاني من القرن الثامن، ونسب إليه، وعندما توفي في سنة ٧٩٣هـ دفن بجواره. الحجري، مساجد صنعاء، مرجع سابق، ص٦٧-٦٨.

[٥١٤] الثور، الولاة العثمانيون وأبرز أعمالهم الإنشائية، ص ١٢٩.

[٥١٥] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٧٩٢.

[٥١٦] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص ١٠٥.

[٥١٧] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص ٢٦٢.

جعفر باشا ١٦٠٧-١٦١٦م:

وصل جعفر باشا إلى اليمن في جمادى الأولى سنة ١٠١٦هـ/ أغسطس-أيلول ١٦٠٧م، وكانت أولى محطاته في زبيد، ثم انتقل منها إلى تعز وبقي فيها لفترة، رتب أمورها، وتزود بمعلومات أكثر عن اليمن وأوضاعها السياسية والعسكرية والاجتماعية ثم توجه إلى محطته الأخيرة صنعاء[٥١٨]، وأثناء مروره بالتهائم قام برفع بعض المظالم التي كان يعاني منها الناس، وعلى رأسها الضرائب غير الشرعية التي كانت مفروضة على الأشخاص بناء على سجلات قديمة مع عدم مراعاة التغييرات خصوصا في ضرائب الحيوانات، حيث قام بحلها، وجعل الضرائب فقط على ما هو موجود[٥١٩].

لم يكن الوضع في اليمن عند وصول جعفر باشا على ما يرام، فقد كانت توجد اضطرابات، توجب عليه التعامل معها قبل القيام بوضع أي خطة لإدارة إقليم اليمن، و كان على رأس تلك الاضطرابات استعادة الإمام القاسم لنشاطه الثوري ودعوته ضد العثمانيين، وأخذت ثورته تتوسع بشكل كبير خاصة في الأقاليم الشمالية.

يلي ذلك تمرد قام به عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن المطهر بن شرف الدين، أعلن تمرده على العثمانيين، وانضمامه للإمام القاسم بعد أن راسله الأخير، ووعده بالوقوف معه في حربه مع الأتراك[٥٢٠]، وبالرغم من أن عبد الرحيم راسل جعفر باشا

---

[٥١٨] للمزيد انظر: عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص ٢٦٢. الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص ١٠٥ – ١١٤.

[٥١٩] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص ١٠٦.

[٥٢٠] الشرفي، أحمد بن محمد بن صلاح القاسمي ت ١٠٥٥هـ، اللآلئ المضيئة في أخبار أئمة الزيدية، مخطوط، متوفر في يمن يمن- تفكيك نشده، ص٣٠٥.

فور وصوله إلى اليمن معربا عن رغبته في عقد صلح معه[٥٢١]، لكن ذلك لم يتم؛ لشك الباشا في صدق نواياه، وقد جعل جعفر باشا القضاء على تمرد الأمير عبد الرحيم من أولويات أعماله، خاصة أن الأخير كان قد استولى على بلاد الشرف وحجة، ولذات الغرض جهز مجموعة من عساكره، وأرسلهم إلى عبد الرحيم الذي كان متحصنا في حصن مبين من بلاد حجة، وتمكن من الإفلات من قبضتهم، وخرج متخفيا، واتجه إلى حصن الظفير، فلاحقته العساكر العثمانية إلى الظفير، فهرب إلى كحلان، وعزز جعفر باشا قواته تلك بإمدادات كبيرة تقدر بحوالي ٣ ألف مقاتل، وأرسلهم إلى حصن كحلان، وفي هذه المرة لم يستطع عبد الرحيم الإفلات من قبضتهم، بالرغم من مقاومته الكبيرة وإصراره المستميت على عدم تسليم نفسه، لكن الجيوش العثمانية ألقت القبض عليه، وتم إيصاله إلى جعفر باشا.

وتذكر المصادر أنه لم يقم بقتله، وإنما أبقاه في صنعاء تحت الإقامة الجبرية والمراقبة الشديدة لفترة قصيرة، ثم أرسله إلى إسطنبول في شعبان سنة ١٠٢٠هـ الموافق أكتوبر/نوفمبر سنة ١٦١٦م؛ ليتم إيداعه السجن، وبقي فيها إلى أن توفاه الله[٥٢٢].

وبهذه الخطوة المهمة استطاع جعفر باشا إخماد تمرد الأمير عبد الرحيم، وأمن جانبه من جهة، وأظهر للباب العالي مدى قدرته على ضبط الأمور في ولاية اليمن من جهة أخرى.

---

[٥٢١] كارا، عائشة، الإدارة العثمانية في اليمن في القرنين ١٧-١٨ وفترة القاسميين، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة، إسطنبول، ٢٠١١م، ص١٦.

[٥٢٢] المداح، العثمانيون والإمام القاسم، مرجع سابق، ص١٢٧. الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص١١٥ – ١١٨. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣٧٨.

أما فيما يخص سياسته تجاه الإمام القاسم، فقد رأى أن مصالحته أمر يصب في صالح العثمانيين أكثر من الصدام المسلح، ويبدو أنه كان يطمح للسعي في استقرار الولاية والتفرغ للأمور الإدارية، ويدرك جيدا أن الصراع في الأقاليم الجبلية ذات الطابع القبلي المعقد رهان خاسر، لذلك قرر المصالحة مع الإمام الذي كان هو الآخر يرغب في الصلح؛ كونه غير مستعد للدخول في حرب مع العثمانيين، وكان يفضل أن يوسع دعوته شيئا فشيئا بأسلوب شبه سري.

وكيفما كان الأمر، فقد وقع الصلح بين الجانبين في ذي الحجة سنة ١٠١٦هـ الموافق مارس/ أبريل سنة ١٦٠٨م على أن يعترف جعفر باشا بسيطرة الإمام على ما تحت يده من البلاد، وهي الأهنوم- عذر- وادعة- والحيمة، وأن يتم إطلاق سراح أولاد الإمام محمد وأحمد الذين كانوا في سجن كوكبان، ويُطلق معهم السجناء من سجون كوكبان وصنعاء، وأن تكون مدة الصلح عشر سنوات[٥٢٣].

وفي ربيع الأول سنة ١٠٢٢هـ الموافق أبريل/ مايو١٦١٣م وصل إلى اليمن إبراهيم باشا يحمل فرمانا سلطانيا يقضي بتقليده حكم اليمن، عندها قرر الباشا جعفر المغادرة، وكان إبراهيم باشا قد بقى فترة قصيرة في تعز، تراسل خلالها مع جعفر باشا ولم يلتقيا، وأثناء توجه إبراهيم باشا إلى صنعاء وافته المنية وهو في الطريق إليها بسبب مرض أصابه أثناء ما كان في ذمار[٥٢٤]، وبموته حدث ارتباك

[٥٢٣] للمزيد: يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٧٩٣ — ٧٩٤. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣٧٨-٣٨٠. وللمزيد حول بنود الصلح بين جعفر باشا والإمام القاسم انظر: الهجري، عبد الحكيم، سياسة جعفر باشا في إرساء دعائم السلطة العثمانية في اليمن خلال الوجود العثماني الأول لليمن (١٦٠٧-١٦١٦م)، بحث مقدم للندوة الدولية حول اليمن في العهد العثماني- صنعاء ١٦-١٧ ديسمبر ٢٠٠٩م، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إسطنبول، ٢٠١١م، ص١٥٩-١٦٠.

[٥٢٤] تذكر بعض المصادر؛ أن وفاته كان في صنعاء في ٢٨جمادى الأولى سنة ١٠٢٢هـ الموافق ١٦ يوليو سنة ١٦١٣م. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣٨١. روح الروح، ص٢٧١.

لدى العثمانيين، واجتمع الأمراء الذين كانوا معه وعلى رأسهم محمد بك بن سنان باشا الكيخا، وقرروا طلب بقاء جعفر باشا- الذي كان حينذاك في زبيد متهيئا للخروج من اليمن- حتى يتخذ الباب العالي قرارا يسد ذلك الفراغ الذي أحدثه وفاة إبراهيم باشا.

لم يكن من جعفر باشا عندما علم بالأمر إلا أن قرر العودة لمباشرة عمله كوالٍ، فاتجه من زبيد إلى إب ومنها إلى ذمار. وقد أثارت عودته حفيظة بعض الأمراء خاصة الأمير عبد الله شلبي الذي كان يحكم صنعاء آنذاك، لما كان قد حدث بينه وبين جعفر باشا من الجفاء بعد وصول إبراهيم باشا[٥٢٥]، فعودة جعفر باشا تعني أنه سيجني ثمار ذلك الجفاء الذي سبق بينهما، لذلك قرر التمرد، وحرض بعض الأمراء على ذلك، وبالرغم من تطمين جعفر باشا له فإنه لم يأمن جانبه، واستمر في مسار تمرده عليه، وعدم الاعتراف بشرعيته.

ويُذكر أن عبد الله شلبي اقترح على جعفر باشا بأن يتم تقسيم اليمن بينهما، على أن يكون له صنعاء وما يليها من الشمال، وأن يكون لجعفر باشا الأقاليم الممتدة من ذمار إلى عدن جنوبا، الأمر الذي لم يقبله الأخير، ودخل معه في صِدام مسلح، انتصر فيه، وقُتل عبد الله شلبي[٥٢٦] وعاد جعفر باشا إلى صنعاء وحكم اليمن لمدة ثلاث سنوات إلى أن وصل الوالي الجديد محمد باشا سنة ١٠٢٥هـ[٥٢٧].

---

[٥٢٥] باعلوي، محمد بن أبي بكر بن أحمد الشلي، عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، تحقيق: إبراهيم أحمد المقحفي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ٢٠٠٣م، ص ١٣٥.

[٥٢٦] للمزيد عن خلاف جعفر باشا مع عبد الله شلبي انظر: الضمدي، مخطوط، مصدر سابق، ص ٤٢٨-٤٢٩.

[٥٢٧] يمن سالنامه سي، رقم ٥٣٨، ص١٣٥. باللغة العثمانية.

وقد أثارت تلك الاضطرابات شهية الإمام القاسم بن محمد، واستغل الفرصة، وعمل على توسيع نفوذه، وسيطر على أقاليم حجة وعفار والظاهر وجبل عيال يزيد وما والاها من المناطق، وقام بنقض الصلح الذي سبق أن عقده مع جعفر باشا، وبدأ مرحلة جديدة من كفاحه ضد العثمانيين[٥٢٨].

ولم يقتصر الأمر على الإمام القاسم فقط؛ بل حاول أمير صعدة العثماني آنذاك الخروج عن طاعة جعفر باشا مستغلا سوء الأوضاع وطول فترة إمارته فيها، لكن أمره لم يطل، فقد أرسل إليه جعفر باشا قوة ردعته، وأعادت صعدة إلى سيطرة الدولة العثمانية المباشرة[٥٢٩].

وفي سنة ١٠٢٥هـ تم عزل جعفر باشا واستبداله بالوالي الجديد محمد باشا، وبعد معرفته بقرار عزله سعى لعقد هدنة مع الإمام القاسم وجعل مدتها سنة[٥٣٠]، ويبدو أن غرضه من ذلك ألا يخرج من اليمن وهو ملتهب بالمشاكل والاضطرابات. وبعد أن تم عقد الهدنة عزم على الرحيل، فاتجه من صنعاء إلى زبيد ومنها إلى الحجاز ثم إسطنبول، وقد نال حفاوة استقبال كبير من البلاط السلطاني، وتم تقليده بعد ذلك ولاية مصر تقديرا لجهوده في بلاد اليمن[٥٣١].

وأخير، نستطيع القول أن جعفر باشا عمل ما استطاع عمله من أجل استقرار الأوضاع في اليمن، ويُذكر أن له إسهامات علمية كبيرة تجسدت في اهتمامه الكبير بالعلوم الشرعية والعقيلة وتقريب العلماء منه والإحسان إليهم[٥٣٢]، كما يُذكر أنه كان مطلعا على علم التفسير وعلم الكلام إضافة إلى معرفته باللغة العربية[٥٣٣].

---

[٥٢٨] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣٨٢-٣٨٣.

[٥٢٩] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص ٢٦٥.

[٥٣٠] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص٢٩٢.

[٥٣١] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص ١٤٣.

[٥٣٢] الكبسي، اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، مصدر سابق، ص٣١٣.

[٥٣٣] البكري الصديقي، المنح الرحمانية، مصدر سابق، ص٣٣٥.

محمد باشا ١٦١٦-١٦٢١م:

يعد محمد باشا من رجال الدولة العثمانية المشهود لهم بالكفاءة، فقبل تعيينه واليا على اليمن كان كاتبا للديوان بمصر[٥٣٤]، وبحكم موقعه هذا وارتباط ولاية اليمن بمصر كان على اطلاع بأحوال اليمن. وبعد تكليفه بأمر اليمن شد الرحال صوبه، ووصلها في شهر شعبان سنة ١٠٢٥هـ، وأقام في زبيد إلى منتصف رمضان، ثم انتقل إلى تعز وأقام فيها إلى شهر ذي الحجة من السنة نفسها، ورتب أمورها، واطلع عن كثب على أحوال اليمن وتركيبتها السياسية والاجتماعية، ومن الأعمال التي تحسب له عند وصوله تعز قيامه بإطلاق السجناء الذين كانوا في سجن القلعة[٥٣٥]، وأثناء إقامته في تعز كتب إليه الإمام القاسم يهنئه بتقليده ولاية اليمن، ويعرض عليه رغبته بالتهدئة وإخماد نار الفتن، فكان جوابه أنه للتو وصل، ولا يوجد لديه أي اطلاع كامل على أوضاع البلاد، وأنه غير قادر على إطلاق أي مبادرة إلا بعد معرفة الأحوال والاطلاع عليها[٥٣٦]، ونرى أن قراره هذا يدل على حنكته السياسية وخوفه من التورط في أي أمر قد يؤدى إلى نتائج غير مرضية.

غادر مدينة تعز في ٦ محرم سنة ١٠٢٦هـ باتجاه محطته الأخيرة صنعاء، فمر على ذمار، ووصل إلى صنعاء في ٢٠ ربيع الأول من السنة المذكورة، بعد أن لقيه أعيانها في ريمة حميد[٥٣٧]، ودخلها في هيبة واستقبال كبيرين[٥٣٨].

---

[٥٣٤] تولى محمد باشا الأمر بمصر في ١٢ شعبان سنة ١٠٢١هـ، وفي ربيع الآخر سنة ١٠٢٢هـ ورد على محمد باشا من البلاد الرومية نحو ٤ آلاف نفر، كان قد أرسلهم بسبب فتنة أثاروها في القسطنطينية، ثم وردت الأوامر إلى محمد باشا بعد وصولهم إلى مصر بإرسالهم إلى اليمن، وقد قاموا بتمرد بعد أن علموا بذلك. الإسحاقي المنوفي، محمد عبد المعطي بن أبي الفتح بن أحمد بن عبد المغني بن علي ت ١٦٤٨م أو ١٦٥٠م، أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، مكتبة ملتزمية، القاهرة، دون ت. ط، ص١٥١.

[٥٣٥] للمزيد انظر: عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص ٢٩٢-٢٩٣. الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص١٤٠.

[٥٣٦] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨٠٦.

[٥٣٧] ريمة حُميد: قرية من قرى سنحان على مقربة من صنعاء في الجهة الجنوبية. الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، مرجع سابق، ج١، ص٣٧٧.

كان أول أعماله بعد أن استقر بصنعاء توجيه مجموعة من أمرائه إلى بعض المناطق التي كانت تعاني من اضطرابات وعدم استقرار، ففي محرم سنة ١٠٢٧هـ كلف الأمير محمد بك بن سنان باشا بالذهاب إلى بلاد الحيمة وبنى مطر، كما كلف الأمير تيمور بالذهاب إلى بلاد ريمة[٥٣٩]، وأخمد اضطرابات كانت قد نشبت في وصاب وعتمه والحجرية. أما على الصعيد الإداري فقام بمراجعة الدفاتر المتعلقة برواتب الجنود ومحصولات البلاد وتدقيقها، واجتمع بالكتّاب، واطلع على مجريات الأمور الإدارية والمالية، وقام بحذف أسماء وهمية كانت مسجلة في كشوفات الجند ولا وجود لها في الواقع[٥٤٠].

ومن الجدير بالذكر أنه عند وصول الوالي محمد باشا لم يكن الوضع على ما يرام، فاليمن في حقيقة الأمر كان يعاني من بقايا مشاكل واضطرابات سابقة، أهمها: ثورة الإمام القاسم الذي كان يشكل خطرا كبيرا على الوجود العثماني في اليمن.

وقد تجدد الصراع المسلح بين الإمام القاسم والعثمانيين بمجرد انتهاء فترة الهدنة التي سبق أن تم عقدها أثناء خروج الوالي السابق جعفر باشا من اليمن، وكانت البداية من منطقة المساجد[٥٤١] من ناحية حضور بين طائفة من أتباع الإمام بقيادة الشيخ عبد الله بن سعيد الطير وبين القوات العثمانية بقيادة الأمير تكريم، كما كانت

---

[٥٣٨] للمزيد: عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص٢٩٤-٢٩٦. الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص١٤٣. يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨٠٧.

[٥٣٩] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص٣٠٥.

[٥٤٠] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص ٢٩٦. يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٨٠٧.

[٥٤١] المساجد: قرية في بني مطر على بُعد حوالي ١٥ كيلومترا غرب صنعاء. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج٢، ص١٥٠٧.

الحرب الثانية في نواحي مسور[٥٤٢] بين أتباع الإمام وجماعة من العساكر العثمانية بقيادة الأمير محمد المعافا.

وقد اندلعت حرب أخرى في بني مطر، استولى العثمانيون فيها على بعض الحصون والمواقع، وأرسل الباشا الأمير أحمد بن عبدالرحمن المطهر على رأس قوة إلى بلاد حجة، فوقع بينه وبين الحسين بن الإمام مناوشات عديدة[٥٤٣]، وهكذا فقد كانت السنوات ١٠٢٦هـ و١٠٢٧هـ سنوات حرب ونزال بين الفريقين، عمل كل طرف ما أمكنه لدعم موقفه واستمالة القبائل لحزبه.

وفي شهر صفر من سنة ١٠٢٨هـ وصلت إمدادات عسكرية من إسطنبول، سبق للباشا محمد أن طلبها؛ لتكون عونا له في صراعه مع الإمام، وقدرت تلك الإمدادات بحوالي ٤٠٠ جندي، يقودهم الأمير سفر الذي استقر في تعز، وأخمد اضطرابات كانت قد اشتعلت في جبل حبشي والحجرية وبلاد المقاطرة وغيرها من تلك الجهات[٥٤٤].

وبعد مرحلة استمرت حوالي ثلاث سنوات من الحروب والفتن بين العثمانيين والإمام القاسم لم يستطع فيها محمد باشا إحراز أي نصر يذكر، قرر أن يجنح للمصالحة، وعرض ذلك على أمرائه في جلسة استشارية، حيث أوضح لهم طول فترة الصراع دون تحقيق أي نصر حاسم، وأن ذلك إنما يُحدث إهدارا للأموال والأنفس، وقد أيده الأمراء في مسعاه هذا موضحين له حجم القوة التي بلغها الإمام، وأنه هو وأتباعه صاروا أهل سلاح وعدة.

---

[٥٤٢] مسور: جبل كبير يُطل على بلاد حجة وتهامة، يقع شمال غرب مدينة ثلا محاذيا لجبل المصانع، سمي بمسور نسبة إلى مسور بن عمرو بن معدي كرب من ولد شمر. حاليا تُشكل مسور مديرية من مديريات محافظة عمران، ومركزها بيت عِذَاقة، ويتبعها عدد من المراكز الإدارية. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج٢، ص١٥٢٤.

[٥٤٣] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨٠٨.

[٥٤٤] الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص١٦٧.

وبينما كانوا في إطار الحوار وصل إلى الوالي محمد باشا كتاب من الأمير علي بن الشويع، يفيد بأن السيد عبد الله بن شمس الدين بن جحاف- نسب الإمام- يريد الوصول إليه لعقد الصلح، وقد تلقى محمد باشا ذلك الطلب بالإكرام والقبول التام، وعُقد الصلح بين الطرفين في جمادى الأولى سنة ١٠٢٨هـ الموافق أبريل/مايو سنة ١٦١٩م على أن يكون للإمام ما تحت يده من البلاد، وإخراج جميع الأسرى لدى الطرفين، وأن تكون مدة الصلح عشر سنوات.

وبموجب هذا الصلح ارتفعت عساكر العثمانيين من جميع البلاد التي يسيطر عليها الإمام، وتم إطلاق السجناء من الجانبيين ماعدا الحسن بن الإمام الذي كان معتقلا في سجن دار الحمراء بصنعاء، وتذرع محمد باشا بأنه يخاف ملامة السلطان في حال أفرج عنه، لكنه قرر التنفيس عليه، وأُعطى له مساحة من الحرية بفك قيوده بعد أن كان مكبلا، وتم إخلاء الطابق الأعلى في السجن له، ولم يُمنع أحد من الدخول عليه وزيارته[٥٤٥]. وبعقد هذا الصلح تنفس الطرفان الصعداء، خصوصا الباشا محمد الذي تفرغ بعد ذلك لتوطيد سيطرته في المناطق الوسطى والجنوبية.

بعد عقد الصلح مع محمد باشا بفترة توفي الإمام القاسم الذي يُعد مؤسس الدولة القاسمية في شمال اليمن، وكانت وفاته في ليلة الثلاثاء الرابع عشر من ربيع الأول سنة١٠٢٩هـ الموافق ١٨ فبراير سنة ١٦٢٠م[٥٤٦].

[٥٤٥] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨١٢. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣٨٥.
[٥٤٦] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨١٤. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣٨٥.

وقد خلفه ابنه محمد الملقب بالمؤيد بالله[٥٤٧]، حرص محمد على الإبقاء على الصلح مع العثمانيين، يظهر ذلك من خلال رفعه خبر وفاة أبيه إلى محمد باشا موضحا له أنه ملتزم بالصلح الذي سبق أن عقده مع والده، وأهدى للباشا نسخة من كتاب الكشاف، وطلب منه إطلاق أحد الرهائن التي كانت لديه فاستجاب الباشا له واحترم رسالته وأجلّه[٥٤٨]، ولهذا فقد اتسمت بداية عهد المؤيد بالاستقرار النسبي والهدوء لما يقارب ثمان سنوات، ولم تتجدد الحرب مع العثمانيين إلا في محرم سنة ١٠٣٦هـ الموافق سبتمبر ١٦٢٦م أثناء ولاية حيدر باشا[٥٤٩].

من المآثر والأعمال التي تُحسب للوالي محمد باشا ضربه لعملة جديدة في صنعاء باسم السلطان عثمان خان، وكان كل ستة وخمسين كبيرا منها أوقية كاملة، بينما كانت الأوقية من السكة القديمة ستين أو خمسة وستين كبيرا، وأمر بإبطال التعامل بالعملة القديمة، الأمر الذي انعكس سلبا على الوضع العام للناس[٥٥٠].

وله بعض الأعمال المعمارية مثل بناء جامع يريم[٥٥١]، وتجديد سور صنعاء، وبناء مسجد طلحة[٥٥٢]، كما اهتم ببناء الحصون والقلاع وترميمها، ففي عام ١٠٢٦هـ /١٦١٦م أنشأ حصن الكبريت في ذمار[٥٥٣].

---

٥٤٧ للمزيد عن الإمام المؤيد وكفاحه ضد العثمانيين، ودوره في بناء الدولة بعد وفاة والده الإمام القاسم؛ يوجد دراسة بعنوان "بناء الدولة القاسمية في عهد المؤيد محمد بن القاسم مع تحقيق مخطوط الجوهرة المنيرة في جمل من عيون السيرة للمؤرخ مطهر الجرموزي"، وهي عبارة عن أطروحة دكتوراه، للباحثة د. أمة الملك إسماعيل الثور، أجيزت من جامعة صنعاء عام ٢٠٠٤م، بإشراف المؤرخ أ.د. سيد مصطفى سالم.

٥٤٨ يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨١٥.

٥٤٩ سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣٨٥-٣٨٦.

٥٥٠ الموزعي، الإحسان، مصدر سابق، ص٢١٤.

٥٥١ الصنعاني، إتحاف ذوي الفطن، مصدر سابق، ص٧٣.

٥٥٢ من مساجد صنعاء القديمة العامرة بالقرب من سوق البقر، كان مسجدا صغيرا؛ فابتناه محمد باشا وعمّر منارته في سنة ١٠٢٩هـ. الحجري، مساجد صنعاء، مرجع سابق، ص٧٦.

ويُحسب له كذلك إقامته للعدل وإنصاف المظلومين، فقد قام بفتح ديوان للمظالم في صنعاء[٥٥٤]، وكان محبا للعلماء والصلحاء، ودائما ما كان يجلّهم ويقربهم منه، وكان من الولاة الذين ظفروا بثناء أهل اليمن؛ لما يتصف به من حسن الإدارة والتقدير الصائب[٥٥٥]. وقد عُزل في سنة ١٠٣١هـ وتم استبداله بالوالي الجديد أحمد فضلي باشا، وخرج من اليمن في ربيع الآخر من السنة المذكورة وتوجه إلى مكة المكرمة وتوفاه الله فيها[٥٥٦].

أحمد فضل الله (فضلي) باشا ١٦٢١ـ١٦٢٤م:

حكم الوالي أحمد فضلي باشا ولاية اليمن مدة ثلاث سنوات، تميزت فترة حكمه بالهدوء والاستقرار؛ نتيجة للصلح الذي كان بين العثمانيين والإمام المؤيد، وقد حرص كل منهما على استمرار مدة صلاحيته، كما كان لشخصية أحمد فضلي باشا دور كبير في استقرار الأوضاع؛ كونه يتمتع بشخصية لا تميل إلى الحروب والصراعات؛ بل كان يغلب عليها طابع الزهد والتدين.

وقد وصل إلى بلاد اليمن في سنة ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م بعد أن صدر مرسوم سلطاني يقضي بعزل محمد باشا وتوليه بدلا عنه، ومن أول أعماله بعد أن استقر في صنعاء مكاتبة الإمام المؤيد بالله بن القاسم، يطلب منه الإبقاء والمحافظة على

---

[٥٥٣] الذماري، مبروك محمد يحي، القلاع في تهامة اليمن خلال الفترة ٩٤٥-١٣٣٦هـ/ ١٥٣٨-١٩١٨م دراسة أثرية معمارية توثيقية، رسالة دكتوراه مجازة من جامعة الحسن الثاني المحمدية، الدار البيضاء، ٢٠١٣/٢٠١٤م، ص٧٧. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣٨٨.

[٥٥٤] عيسى بن لطف الله، روح الروح، مصدر سابق، ص٣٠٠-٣٠١. يمن سالنامه سي، ص٤٧. باللغة العثمانية.

[٥٥٥] العقيلي، محمد بن أحمد، تاريخ المخلاف السليماني، مطابع الوليد (للتأكد)، ط٣، ١٩٨٩م، ص٢٩٨.

[٥٥٦] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨١٦. باعلوي، عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، مصدر سابق، ص١٦٠.

الصلح المعقود من قبل[557]، وقد أجابه الإمام المؤيد بالموافقة؛ لأنه كان هو الآخر يحتاج إلى فترة هدوء، يعيد فيها ترتيب أموره؛ كونه لايزال في إطار فترة أشبه بالفترة التجريبية في الحكم بعد وفاة والده.

ومما أثار حفيظة الباشا أحمد عند وصوله صنعاء خروج الحسن بن الإمام القاسم من سجن الحمراء بصنعاء والتحاقه بأخيه المؤيد، وقد خرج في الفترة التي تلت خروج الوالي السابق محمد باشا، وعاتب الباشا أحمد الأمراء على ذلك، وعقد ديوانا في القصر، وأمر بمحاسبة المسؤول عن هروبه[558]، ويبدو أنه كان يريد الإفراج عنه بنفسه؛ ليحظى بعلاقة أكثر ودية مع الإمام، نلحظ ذلك من خلال رسالة بعثها للإمام، ووضح له فيها أنه لا حرج في خروج الحسن وأنه كان بصدد الإفراج عنه حال وصوله صنعاء[559].

كانت فترة الوالي أحمد فضلي باشا استمرارا لفترة التدهور في السيطرة العثمانية في اليمن، وكانت بلا شك مرحلة استفاد منها الإمام المؤيد كثيرا؛ فوسع مناطق سيطرته، وازداد إقبال القبائل عليه، واستجابت له بشكل كبير، كما استطاع في هذه الفترة أن يقمع أي اضطرابات في مناطق نفوذه، ففي سنة ١٠٣٢هـ حدثت اضطرابات في بلاد صعدة؛ فأرسل إليهم أخاه الحسن بن القاسم مع ألف رجل و ثلاثين فارسا، وعندما وصلوا إلى جهات حيدان[560] أقبل عليهم أهلها طائعين، ونبذوا

[557] كارا، الإدارة العثمانية في اليمن، مرجع سابق، ص ٢٢.

[558] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨١٧.

[559] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣٩٢.

[560] حَيْدَان: من أكبر مديريات محافظة صعدة، تقع غرب مدينة صعدة بمسافة تُقدر بحوالي ٧٣ كيلومترا، عاصمتها مدينة حيدان، وتمتد من قلب المرتفعات الشمالية في منطقة الشعف، إلى منطقة السهول التهامية في الملاحيظ. ويتبعها عدد من العزل والمراكز الإدارية مثل زُبيد – الغبر– بني ذويب – جمعة بن فاضل – ولد نوار– مران– غُرامة وغيرها. تُعد مديرية حيدان من المناطق التي لها إرث تاريخي حافل، وفيها معالم أثرية مهمة مثل: حصن المفتاح، ومسجد نشوان بن سعيد الحميري، ومشهد الإمام أحمد بن سليمان المتوفى سنة

ما كان قد أبدوه من عصيان إلا ما كان من أهل شعب حي[٥٦١] الذين تعنتوا وامتنعوا عن الحضور إلى الحسن، مما دفعه إلى إرسال مجموعة من الجنود بقيادة السيد يحيى بن لطف الباري والسيد علي بن الحسن شرف الدين؛ فدخلوا بلادهم ،واستولوا عليها، وأنهوا ما كاد أن يقع من الشر[٥٦٢].

اشتهر أحمد فضلي باشا بتقواه وصلاحه، فكان كثير العطايا خصوصا للعلماء والصلحاء، محافظا على حضور صلاة الجمعة والجماعة، ويُذكر أنه منع أهل الذمة من اليهود من بيع الخمور، وعاقب على شربه، وفي عهده رخصت الأسعار، وصلحت الثمار، وكثر الخير وأمنت السبل وقلت الفتن[٥٦٣].

وقد عمل بعض الأعمال الإنشائية، كتجديد سور صنعاء الذي كان قد بدأه الوالي السابق محمد باشا، وإكمال حفر بئر محمد باشا في صنعاء المعروفة باسم بئر الباشا[٥٦٤].

٥٦٦هـ. وفيها يُنتج أجود أنواع البن الخولاني. للمزيد انظر: المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص٥٤٢. الأكوع، إسماعيل بن علي، هجر العلم ومعاقله في اليمن، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ج١، ص٥٣٧.

[٥٦١] شعب حي: فصيل من قبيلة خولان بن عامر(عمرو)، يسكنون غربي مدينة صعدة، يتبعون مديرية ساقين حسب التقسيم الإداري للجمهورية اليمنية، ومنهم القائد الفاتح الشهير السمح بن مالك الخولاني أمير الأندلس (ت ١٠٢هـ). وشعب؛ هو ابن حي بن خولان، وله من الأخوة: عدي، مرثد، غنم، المقدام، أنوف، أسد. ويذكر الهمداني أن "حي" هو الولد الاكبر من أولاد خولان،كما ذكر في كتاب الاكليل، الجزء الاول، طبعة ١٩٦٥م، الصفحات ٧٥ وما بعدها: أن لخولان بن عمرو بن قضاعة من الاولاد سبعة هم: حيّ بن خولان، سعد بن خولان، رشوان بن خولان، هاني بن خولان، رازح بن خولان، الأزمع بن خولان، صحار بن خولان. وهؤلاء هم خولان صعدة، اما في خولان العالية(خولان الطيال) فله من الاولاد: حبيب، عمرو، الاصهب، قيس، نبيت، ذكران. للمزيد انظر: الهمداني، صفة جزيرة العرب، مصدر سابق، ص١٢٩. الهمداني الأكليل، ج١، ص ٧٥ وما بعدها. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج١، ص٥٤٠.

[٥٦٢] يحي بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨١٧.

[٥٦٣] يحي بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨١٧-٨١٨.

[٥٦٤] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣٨٨.

وفي سنة ١٠٣٣هـ تم عزله عن ولاية اليمن واستبداله بالوالي الجديد حيدر باشا، وفور وصول الخبر إليه عزم على الخروج من بلاد اليمن، ولم ينتظر مجيء الوالي الجديد، وسلّم مقاليد الحكم إلى كتخداه محمد بك بن سنان باشا الكيخا حتى وصول حيدر باشا، الذي وصل بعد حوالي سبعة أشهر من خروج أحمد فضلي[٥٦٥]، وقد توفي في (أبوعريش) أثناء ذهابه إلى إسطنبول بعد خروجه من اليمن بفترة وجيزة[٥٦٦].

حيدر باشا ١٦٢٤ـ١٦٢٩م:

لا نعرف ماهي الاعتبارات التي جعلت السلطان العثماني يُقدم على تعيين حيدر باشا واليا في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الوجود العثماني في اليمن، إذا ما علمنا أنه كان في أمس الحاجة إلى والٍ يتمتع بكفاءة وحنكة سياسية وشجاعة حربية، تلك الصفات التي لم يكن لها وجود في شخصية حيدر باشا؛ بل كان عبئا على اليمن، ولم يستطع أن يعمل شيئا بل فقد العثمانيون مناطق كثيرة في عهده، ولم يتبقَ تحت سيطرتهم إلا زبيد.

كانت فترة ولايته أشبه بمرحلة تمهيدية لخروج العثمانيين النهائي من اليمن عام ١٦٣٥م. ونستطيع القول أن الوضع في اليمن ازداد سوءا بعد أن تسلّم حيدر باشا مقاليد الحكم فيها أوائل سنة ١٠٣٤هـ الموافق ١٦٢٥/٢٤م، حيث كانت سياسته متخبطة، وسمعته سيئة بين الأهالي، وكان على عكس أحمد فضلي باشا الذي اتصف بالتقوى والصلاح؛ فتذكر المصادر أن حيدر باشا أول ما وصل إلى صنعاء

---

٥٦٥ سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ٣٩٢.

٥٦٦ كارا، الإدارة العثمانية في اليمن، مرجع سابق، ص ٢٤.

أقبل على اللهو والشراب[٥٦٧]، أما أمور الحكم فترك شؤونها في يد أتباعه مما زاد من الفوضى والاضطرابات.

وصل حيدر باشا إلى اليمن سنة ١٠٣٤هـ، وفور وصوله إلى المخا أمر بقتل الأمير العثماني محمد بن سنان[٥٦٨] بسبب ميل العسكر إليه وحب الناس له، وقد حزن الناس لمقتله أيما حزن حتى أن بعضهم تنبأ بقرب زوال الحكم العثماني من اليمن بسبب سياسة حيدر باشا التي افتتحها بقتل محمد بن سنان[٥٦٩]، كما أمر بقتل المقربين من محمد بن سنان خوفا وتحسبا لأي انتقام من جانبهم[٥٧٠].

وقد أخذ ترتيب الوضع مع الإمام المؤيد أولوية كبيرة لحيدر باشا فور وصوله صنعاء، فكتب إليه بشأن الإبقاء على الصلح الذي عقد بين الإمام والعثمانيين أيام الباشا محمد، وقد أجابه الإمام إلى ذلك[٥٧١] بعد أن رأى أن مصلحته تقتضي استمرار الصلح للتفرغ لتوسيع رقعة نفوذه بعيدا عن أجواء الحروب والمواجهات.

تجددت الحروب بين العثمانيين والإمام المؤيد بمجرد نقض الصلح بين الطرفين في محرم سنة ١٠٣٦م، وتذكر المصادر أن سبب نقض الصلح هو قيام حيدر باشا بقتل أحد أتباع الإمام المؤيد في رمضان سنة ١٠٣٥هـ الموافق مايو/ يونيو ١٦٢٦م يدعى الفقيه حسن بن علي العلماني، وهو من فقهاء علمان[٥٧٢]، تم

---

[٥٦٧] الصنعاني، إتحاف ذوي الفطن، مصدر سابق، ص٧٤.

[٥٦٨] محمد بن سنان باشا الكيخا: أحد أهم وأبرز الولاة العثمانيين في اليمن آنذاك، عاصر أكثر من والٍ كان لديه خبرة بأمور اليمن، وكان على دراية بأحوالها وأوضاعها وله فيها مآثر كثيرة، وهو الذي حكم اليمن منذ خروج أحمد فضلي باشا حتى قدم حيدر باشا اليها.

[٥٦٩] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨١٨-٨١٩. يذكر الضمدي في مخطوط العقيقي اليماني؛ أن سبب قتل حيدر باشا لمحمد بن سنان كان اتهامه للأخير باختلاس أموال من الخزينة، كانت مرقومة في الدفاتر. الضمدي، العقيق اليماني، مخطوط، مصدر سابق، ص٤٤٥.

[٥٧٠] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣٩٣.

[٥٧١] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨١٨.

[٥٧٢] منطقة قريبة من وادي ظهر شمال غرب مدينة صنعاء.

قتله أثناء زيارته صنعاء لقضاء بعض حاجاته، واتُهم بأنه كان يدعو الأهالي إلى مبايعة الإمام، وبعد مقتله أرسل الإمام إلى حيدر باشا يطلب منه تسليم القاتل لمعاقبته، وطالت المراسلات بين الطرفين بهذا الشأن، ولم تصل إلى نتيجة، حيث كان حيدر باشا يماطل أحيانا، وينكر أحيانا أخرى، مما جعل الإمام يتخذ قرارا بشن حرب على العثمانيين[٥٧٣].

وبنقض الصلح بدأت، ما أسماها المؤرخ سالم، المرحلة الأخيرة من مراحل ثورة الإمام القاسم ضد العثمانيين[٥٧٤]، ولا شك أنه كان يوجد آنذاك احتقان مجتمعي ضد العثمانيين خصوصا في المنطقة الشمالية مما ساعد الإمام في تحقيق مكاسب سريعة ضدهم.

تزعم الإمام المؤيد الحرب ضد حيدر باشا، وجعل إخوته الثلاثة الحسن والحسين وأحمد على رأس جيوشه التي بدأت بالتحرك في المناطق الشمالية في أواخر محرم سنة ١٠٣٦هـ، ولم يُقْدم حيدر باشا على اتخاذ أي خطوة لمواجهة تلك التحركات، مما جعل الإمام يتوسع بشكل كبير، واستطاع خلال عامين مد سيطرته إلى أغلب أقاليم اليمن، وقد أثارت تلك الانتصارات السريعة والمتتالية حفيظة المسؤولين في مصر؛ كونهم المسؤولين عن السيادة العثمانية في اليمن مما حدا بهم إلى محاولة إنقاذ الوضع ولكن دون جدوى[٥٧٥].

---

٥٧٣ للمزيد انظر: يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص ٨١٩-٨٢٠.

٥٧٤ سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ٣٩٤.

٥٧٥ سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣٩٧-٣٩٨.

يعود السبب الرئيس في رجحان كفة الإمام المؤيد على حساب العثمانيين إلى قوة القيادة التي أبداها إخوانه الثلاثة وقدرتهم العسكرية الفذة ومساندة القبائل لهم في مقابل ضعف وتشتت العثمانيين وسوء إدارة حيدر باشا.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الإمام المؤيد لم يكن ينفرد برأيه خصوصا في اتخاذ القرارات التي تتعلق بالسلم والحرب، بل كان - غالبا - ما يشاور إخوانه في الأمر. وكانت شرارة المواجهة الثانية بين الطرفين بسبب اعتداء حيدر باشا على قبائل الحدا، وخروجه إليهم بعدما وصله خبر أن مجموعة من أولاد مشايخهم ذهبوا إلى الإمام، الأمر الذي جعل الإمام المؤيد يتزعم حربا أخرى ضد حيدر باشا، ابتدأها بإرسال أخيه الحسين إلى بلاد الحيمة، وبعث أخاه أحمد إلى بلاد خمر، ثم توسعت الحرب إلى بلاد حجة ولاعة ومسور وكحلان عفار وعمران، وامتدت المواجهات إلى الجوف، وتم قطع أغلب الطرق المؤدية إلى صنعاء، كما تقدم الحسين بن الإمام إلى الأهجر، وتقابل هناك مع أخيه الحسن، ورتبوا أمورهم، واتفقوا على بقاء الحسن في محله، ورجوع الحسين إلى الأهجر؛ لمحاصرة كوكبان، واشتبك العثمانيون مع قوات الحسن في ريمة حميد مما أدى إلى انهزام العثمانيين، ثم انتقل الحسن إلى بلاد حضور، واستقر في مسيب[٥٧٦].

ووقعت مواجهة أخرى في حدود ثلا بين السيد أحمد المحنكي التابع للإمام والأمير صفر عامل العثمانيين على عمران، انهزم على إثرها الأمير صفر إلى ثلا، وتبعه أبناء الإمام، الحسن من جهة كوكبان، وأحمد من جهة المطلعة؛ فطلب منهما

---

[٥٧٦] مَسْيَب: قرية في بني الراعي من مديرية بني مطر التابعة لمحافظة صنعاء، سميت نسبة إلى مسيب بن زيد بن عوف بن يريم. المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، مرجع سابق، ج٢، ص١٥٢٧. غاية الأماني، ص٨٢٠-٨٢٢.

الأمـان، وسلم نفسـه، فأسروه وأرسلوه إلـى الإمـام المؤيـد، ورتبـوا لحصـن ثـلا مـن يحفظه[٥٧٧].

تطورت الأحداث، وتسارعت انتصارات الإمام حتى تم محاصرة صنعاء بشكل فعلـي مـن قبـل الحسـن بـن القاسـم[٥٧٨] فـي أوائـل شـعبان سـنة ١٠٣٦هـ الموافـق أبريل/مايو ١٦٢٦م بعد أن تم الاستيلاء على حصن كوكبان وانضمام الأمير عبد الرب بن شمس الدين الموالي للعثمانيين، وقد حُوصرت صنعاء من جهة حدة بنـي شـهاب كمحـور أول، ومـن الروضـة كمحـور ثـانٍ، وتمـت الإغـارة عليهـا مـن جميـع الجهات، واستولى أتباع الإمام على حصن نقم، وابقوا فيه حامية أوكلوا إليها حماية من في الروضة وحدة من أي هجوم محتمل.

وأثنـاء الحصـار توالـت منـاطق النفـوذ العثمـاني بالسـقوط واحـدة تلـو الأخـرى؛ فسقطت عمران بعد أن عمل أحمد بن الإمام على محاصرتها، واستسلم أميرها عمر والشيخ ناصر المحبشي، كما قام حاكم ذمار العثماني الأمير سنبل بالتواصل مع الحسن، وطلب منه التسليم مقابل أن يعطيه الأمان؛ فأمنه وأبقاه على ذمار[٥٧٩].

نتيجة للحصار المشدد على صنعاء مال حيدر باشا إلى المصالحة، فكتب إلى الإمام طالبا الصلح على أن يغادر صنعاء إلى اليمن الأسفل هو ومن معه من جنود وعتاد، وشاءت الأقدار أن يقع ذلك الكتاب في يد الحسن الذي حال بينه وبين

---

[٥٧٧] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨٢٣.

[٥٧٨] للمزيد عن سيرة الحسن بن الإمام القاسم انظر ترجمته في: ابن أبي الرجال، أحمد بن صالح ت١٠٩٢هـ، مطلع البدور ومجمع البحور في تراجم رجال الزيدية، تحقيق: عبد الرقيب مطهر محمد حجر، مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية، صعدة، ط١، ٢٠٠٤م، ج ٢، ص ٩٠ – ١٠١.

[٥٧٩] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨٢٥-٨٢٤.

وصوله إلى الإمام المؤيد، ولم يترك للعثمانيين فرصة سوى الاستبسال في الدفاع عن صنعاء.

لم يكن أمام العثمانيين بعد ذلك إلا خيار الصمود والدفاع، فعمل حيدر باشا على تشجيع الجنود على الثبات، وأوهمهم بأن مدد السلطان قادم إليهم، وفرق بينهم الأموال، وأمرهم بالخروج إلى أطراف المدينة، وحدث صدام بين الفريقين، انهزم على إثرها أتباع الإمام، وقتل منهم مجموعة، ولم يدم ذلك الانتصار طويلا؛ فسرعان ما رجحت كفة الحسن بعد ذلك، خاصة بعد أن وصله مدد من المناطق المجاورة لصنعاء[٥٨٠].

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن بعض المؤرخين الأتراك أرجعوا سبب تدهور الأوضاع في اليمن في فترة ولاية حيدر باشا إلى والي مصر بهرام باشا؛ كونه أخفى على إسطنبول أخبار اليمن، في محاولة لعدم إيصال الحقيقة المؤسفة عن اليمن وأوضاعها خصوصا بعد حصار الإمام المؤيد لصنعاء وفقدانها، إضافة إلى عدم قيامه بأي تعزيز لحيدر باشا[٥٨١].

وكيفما كان الحال، فقد استمر حصار صنعاء حوالي عامين كاملين مما اضطر حيدر باشا إلى تسليمها بعد أن اشترط أن يخرج منها سالما إلى زبيد، فتم له ذلك في فبراير سنة ١٦٢٩م[٥٨٢]، وتم تنصيب يحيى بن الإمام المؤيد عاملا لأبيه فيها، وقد ترافق مع حصارها سوء في الوضع العام، فارتفعت الأسعار، وزاد الفقر

---

[٥٨٠] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨٢٤-٨٢٥. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣٩٦.

[٥٨١] يحيى يشيل يورت وآخرون، الوضع الجغرافي والتاريخي لليمن ومنظومة (نظرة) جديدة عن فتح اليمن، بحث منشور في المجلة التاريخية، العدد ٥١، إسطنبول، ٢٠١١م، ص١١٢. المقال باللغة التركية.

[٥٨٢] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣٩٦.

والجوع، وقام حيدر باشا بالسطو على الميسورين من أهلها بعد أن نفدت عليه الذخائر والمؤن، ومارس عليهم ضغوطات مما حدا ببعضهم إلى النزوح منها.

استغل الإمام المؤيد الوضع المتدهور للعثمانيين؛ فقام بإشعال جبهات القتال في كل أنحاء اليمن حتى عدن جنوبا، وترافق مع حصار صنعاء اضطرابات في مناطق أخرى، فبينما كان أحمد بن الأمام يحاصر صنعاء، كان أخوه الحسن يقاتل العثمانيين في المناطق الوسطى والجنوبية، وقد حقق الأخير انتصارات توجت بالسيطرة على تعز في ١٠ شوال سنة ١٠٣٨هـ الموافق ٢ يونيو ١٦٢٩م بعد محاصرتها لما يقارب العام، وبسقوط تعز سقطت باقي المناطق الجنوبية بسهولة، ولم يلقَ الحسن بن القاسم إلا بعض المقاومة البسيطة. أما أمير عدن آنذاك– وهو أحد شيوخ قبائل يافع– فقد سارع هو الآخر إلى الدخول في طاعة الإمام، وأبقاه الحسن بن القاسم في منصبه[٥٨٣].

وبسقوط صنعاء وتعز وعدن لم يبقَ للإمام المؤيد إلا السيطرة على المناطق التهامية؛ لتكتمل له السيطرة على كافة أرجاء اليمن، وينهي الوجود العثماني فيها، وقد حاول مد نفوذه إلى المناطق التهامية بإرساله في البداية الشريف هاشم بن حازم المكي والسيد التقي بن إبراهيم، لكن الحامية العثمانية التي كانت في زبيد آنذاك استطاعت صدهم وحالت دون تحقيق أهدافهم[٥٨٤].

وبعد أن خرج حيدر باشا من صنعاء توجه إلى زبيد، وكان الإمام قد وجه القبائل بعدم التعرض له في الطريق، وأرسل مجموعة من أصحابه لذات

---

٥٨٣ سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٣٩٧.

٥٨٤ يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ٨٢٦.

الغرض[585]. ولم يطل به المقام في زبيد، فقد تم القبض عليه وإيداعه السجن في جزيرة كمران، بحجة تواصله ومراسلته مع الإمام المؤيد، وقد مكث في السجن إلى أن قدم الوالي الجديد قانصوه باشا.

بهذا نستطيع القول أن فترة ولاية حيدر باشا ١٦٢٤-١٦٢٩م كانت بداية النهاية للوجود العثماني في اليمن، وكانت فترة ذهبية بالنسبة للإمام المؤيد استطاع خلالها السيطرة على كافة المناطق اليمنية باستثناء زبيد، ثم إخراج العثمانيين نهائيا عام ١٦٣٥م؛ وبذلك تكون اليمن أول ولاية عربية تستقل عن الحكم العثماني.

ومن الجدير بالذكر أن العامل الأساسي الذي أسرع بتدهور أوضاع العثمانيين على النحو الذي أسلفنا تمثل في قوة ووحدة الجبهة الزيدية، وعدم وجود خلافات داخلية بين الإمام المؤيد وإخوانه، على عكس ما كان يحدث بين أبناء الإمام شرف الدين، في مقابل ضعف كبير في الجبهة العثمانية سواء على المستوى المحلي في اليمن أو على المستوى الخارجي في إسطنبول ومصر؛ كونهم لم يقوموا بواجبهم إزاء الأوضاع المتدهورة في اليمن باستثناء محاولة بسيطة قام بها والي مصر آنذاك تمثلت في إرسال تعزيز يقدر بحوالي ١٥٠٠ نفر، غرق أكثرهم في البحر، ولم يصل جدة إلا حوالي ٣٠٠ نفر[586].

---

[585] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨٣٠.

[586] ميشيل توششر، الأسطول العثماني في البحر الأحمر من أواخر القرن السادس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر، ترجمه للغة التركية: زكي أريكان، إدارة الطباعة البحرية، إسطنبول، ط١، تموز٢٠٠٩م، ص٢١٨. مقال للمؤرخ ضمن كتاب بعنوان "تاريخ البحرية التركية من البداية حتى نهاية القرن السابع عشر" الكتاب باللغة التركية.

أحمد قانصوه باشا ١٦٢٩ـ ١٦٣٥:

أحمد قانصوه باشا هو آخر الولاة العثمانيين في اليمن في فترة الوجود العثماني الأولى (١٥٣٨-١٦٣٥م)، وكان الغرض الأساسي من تعيينه إصلاح الوضع المتفاقم الذي كان قد وصل إلى مرحلة يصعب عليه وعلى غيره تجاوزها وحلها.

قدم قانصوه باشا إلى اليمن سنة ١٠٣٩هـ في ١٠٠٠فارس، و٨٠٠٠ رجل عبر مصر، وفي ربيع الثاني سنة ١٠٣٩هـ الموافق نوفمبر/ديسمبر ١٦٢٩م نزل في ميناء (أبوعريش) الواقع في أقصى شمال الساحل اليمني، وكان غرضه من ذلك محاولة استرجاع منطقة شمال تهامة، وقد نجح في استعادة بعض المناطق في إقليم تهامة الشمالي، لكنها كانت استعادة مؤقتة، ولم تلبث أن عادت إلى سيطرة الإمام بعد أن أرسل ولده يحيى إلى أبي عريش وشمال تهامة[٥٨٧] تسانده قبائل صعدة .

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الوضع المضطرب الذي كان يعيشه اليمن عند وصول أحمد قانصوه باشا، لم يكن سببه واليا سابقا بعينه، وإنما كان نتيجة تراكمات وإفرازات مرحلة طويلة من التقهقر، ابتدأت من بعد ولاية حسن باشا.

وقد افتتح الباشا قانصوه سيرته في اليمن بأعمال عنف مع أتباع الدولة العثمانية نفسها، فبدلا من أن يحاول احتواء الوضع بالطرق الدبلوماسية أظهر قوة وقسوة مع أتباعه وأعدائه على حد سواء، فما إن وصل بيت الفقيه حتى أقدم على قتل الفقيه أحمد بن جعفر الصوفي بحجة إفادته بصعوبة تحصيل خمسمائة حمل من الطعام بعد أن كان قد طلبها الباشا من أهل المنطقة[٥٨٨]، كما أقدم على قتل

---

[٥٨٧] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨٣١. سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٤٠٠-٤٠١.

[٥٨٨] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨٣١

عابدين باشا فور وصوله إلى زبيد بحجة سوء معاملة والي اليمن السابق حيدر باشا[٥٨٩].

وللإنصاف فقد حاول الباشا أحمد استعادة ما يمكن استعادته من أراضي اليمن، لكن جهوده الحربية دارت في دائرة ضيقة، تمثلت في زبيد والمخا وأبعد مدى وصل إليه كان محاولته غير الموفقة في استعادة تعز، ومحاولة لا تكاد تُذكر لاستعادة عدن من خلال استمالة بعض أتباع الإمام الموجودين فيها.

وفيما يخص استعادة تعز فيُذكر أنه كلف أحد أمرائه، يدعى الأمير يوسف، باستعادتها، وتواجه الأمير مع قوات الإمام بقيادة أخيه الحسن بن القاسم في منطقة نجد المخيرّب/المحرّاب، ودارت حرب بين الطرفين في أواخر رمضان سنة ١٠٣٩هـ الموافق ١٣ مايو سنة١٦٣٠م هُزم فيها العثمانيون هزيمة كبيرة، وقد عززت هذه الحرب معنويات أتباع الإمام، وأعطتهم دفعة قوية لمواصلة السيطرة ما تبقى من الأراضي اليمنية، وفي المقابل ولدت خيبة أمل لدى العثمانيين، وجعلتهم يفكرون كيف يمكنهم حماية زبيد نفسها، وإزاء ذلك طلب أحمد قانصوه باشا الصلح مع الإمام، فوافق على صلح مدته سنة، تم عقده في أوائل محرم سنة ١٠٤٠هـ الموافق ١٠ أغسطس ١٦٣٠م وبموجبه تجمدت الأعمال الحربية حول زبيد حتى سنة ١٠٤٣هـ الموافق ١٦٣٤/٣[٥٩٠].

[٥٨٩] الكبسي، اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، مصدر سابق، ص ٣٣٣. يحي بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨٣١-٨٣٢.

[٥٩٠] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٤٠١-٤٠٢. يحي بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨٣٢

تجددت الحروب بين العثمانيين وأتباع الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم في سنة ١٠٤٣هـ الموافق ١٦٣٤/٣م في إقليم تهامة[٥٩١]، كما تجددت الحرب بين الطرفين في الجنوب وذلك بعد محاولة قانصوه باشا السيطرة على عدن بإرسال سفينتين من الجنود لغرض الاستيلاء عليها بعد أن تآمر مع بعض جنودها اليمنيين لفتح أبوابها له، لكن تلك المؤامرة باءت بالفشل، وعاد الجنود إلى المخا. كما قام بإرسال حملة أخرى إلى ميناء جازان، استولت عليه بغتة، وقامت بأعمال سلب ونهب[٥٩٢].

وعلى كل حال، فقد تجددت الحرب بين الطرفين، ووجه الإمام بجمع العسكر وتجهيزهم، ووصل عددهم - حسب إشارة بعض المصادر - إلى ما يقارب ٤٠ ألف جندي، وجعلهم تحت إمرة أخيه الحسن الذي أوكل إليه مهمة محاربة العثمانيين في زبيد وما حولها، فخرج الحسن من صنعاء في شهر رجب من السنة المذكورة، وانطلق إلى المناطق التهامية وسيطر على بيت الفقيه وحيس ثم تقدم لمحاصرة زبيد[٥٩٣].

شدد الحسن بن القاسم الحصار على العثمانيين في زبيد، ولم يستطيعوا الصمود طويلا خصوصا بعد أن نفدت عليهم المؤن، فتقدم أحمد قانصوه باشا بطلب عقد هدنة مع الإمام لمدة سنة، وأجابه الإمام إلى ذلك، وعُقد الصلح في محرم سنة ١٠٤٥هـ الموافق يوليو ١٦٣٥م بالرغم من معارضة أخويه الحسن

---

[٥٩١] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨٣٦. للمزيد حول تهامة (تكوينها – وتقسيمهما الجغرافي– مناطقها – وحاصلاتها الزراعية) انظر: الأكوع، محمد بن علي الحوالي، اليمن الخضراء مهد الحضارة، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ط٢، ١٩٨٢م، ص٣٨–٤٢.

[٥٩٢] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٤٠٣.

[٥٩٣] يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨٣٦.

والحسين، وكان لدى الإمام المؤيد حينها وجهة نظر مغايرة لإخوانه الذين كانوا يفكرون تفكيرا عسكريا محضا، فكان يرى أن تضييق الخناق والحصار على العثمانيين كفيلا بالإجهاز على من تبقى منهم دون المزيد من الضحايا والخسائر، وقد صدق توقع الإمام المؤيد، فلم يمر أكثر من شهر من عقد الهدنة حتى هرب الوالي أحمد قانصوه باشا من زبيد، وتقدم إلى الحسن بن القاسم، وسلم نفسه مقابل مغادرته لليمن سالما.

وتذكر المصادر أن الحسن أكرم وفادته، وبقي عنده من شهر صفر إلى جمادى الأخرى، ثم غادر اليمن بعد أن أعد له ما يلزمه للسفر بحرا إلى مصر، ولا شك أن هروب الباشا من زبيد له أثره السيئ على موقف من تبقى من العثمانيين فيها، فجاهر بعض الجنود بالانضمام إلى معسكر الحسن، والبعض الآخر قرر الذهاب إلى خارج اليمن، بينما بايع بعضهم، وهم قلة، الأمير مصطفى الذي حاول جاهدا الصمود والمقاومة في زبيد، ولم يلبث الأمير مصطفى أن طلب عقد صلح مع الحسن بن القاسم بالتسليم مقابل أن يغادر اليمن هو وجنوده سالمين إلى مصر فتم له ذلك، وخرج هو ومن تبقى من الحامية العثمانية من زبيد والمخا في العشر الأوائل من شهر جمادى الأولى عام ١٠٤٥ الموافق ٢٢ أكتوبر عام ١٦٣٥م[٥٩٤].

وبهذا تكون اليمن قد تحررت بالكامل من الوجود العثماني، وتصبح أول ولاية عربية تنفصل عن السيادة العثمانية، وتحصل على استقلالها الذي استمر حتى عودة العثمانيين إلى اليمن سنة ١٨٧٢م.[٥٩٥]

---

[٥٩٤] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق ص٤٠٤-٤٠٥. يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ص٨٣٨.

[٥٩٥] للاطلاع على تاريخ اليمن في الفترة ١٦٣٥-١٨٧٢م انظر: ١- أبو طالب، حسام الدين محسن بن الحسن بن القاسم بن أحمد بن القاسم بن محمد ت ١١٧٠هـ، تاريخ اليمن عصر الاستقلال عن الحكم العثماني الأول من سنة ١٠٥٦هـ إلى سنة ١١٦٠هـ، تحقيق

وفـي الأخيـر؛ فمـن الإنصـاف القـول: إن الـوالي أحمـد قانصـوه باشـا قـد بـذل جهـودا، وإن كانـت بسـيطة، فـي سـبيل اسـتعادة السـيطرة العثمانيـة فـي الـيمن أو بالأصح في حفظ ماء الوجه وخلق عقبات ومصاعب أمام قوات الحسن بن القاسم فـي إقليم تهامـة، لكنهـا كانـت جهـودا بائسـة وضـعيفة ومنيـت بالفشـل، وكانـت أقـل بكثير من أن تُغيّر شيئا على الخارطـة السياسية والعسكرية التـي كانـت تصـب فـي صالح الإمام المؤيد.

نظام الحكم العثماني في اليمن ١٥٣٨-١٦٣٥م:

مـن المؤسـف أن المصـادر المعاصـرة للوجـود العثمـاني فـي الـيمن ١٥٣٨-١٦٣٥م لـم تـدلِ بمعلومـات كافيـة ووافيـة عـن نظـام الحكـم الإداري الـذي اتبعـه العثمـانيون فـي حكـم الـيمن، وإن ذكـرت شـيئا مـن ذلـك فهـو مـن قبيـل تعلقـه بـأمر عسكري أو سياسـي، إذا مـا علمنـا أن الأوضـاع العسكرية والسياسية أخذت نصيب الأسد ممـا ورثتـه لنـا مصـادر تلـك الحقبـة الزمنيـة، لذلك تتوجب الإشارة إلـى أن مـا كُتب عـن نظـام الحكـم فـي الـيمن فـي العهـد العثمـاني هـو عبـارة عـن استنتاجات ومقاربـات لمـا مـدتنا بـه تلـك المصـادر، ولسـد العجـز فقـد ذهـب أغلـب البـاحثين والمؤرخين إلى دراسة نظام الحكم في اليمن في العهد العثماني دراسة تشابهية، إن صح التعبير، وذلك من خلال الربط بين نظام الحكم في الدولة العثمانية بشكل عام

عبد الله محمد الحبشي، مطابع المفضل، صنعاء، ط١، ١٩٩٠م. ٢- الحرازي، فترة الفوضى وعودة الأتراك إلى صنعاء - السفر الثاني من تاريخ الحرازي — رياض الرياحين ١٨٥٩- ١٨٧٢م، تحقيق: د. حسين عبدالله العمري، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ط١، ١٩٨٦م. ٣- الحبشي، عبد الله محمد، الأدب اليمني عصر خروج الأتراك الأول من اليمن ١٠٤٥-١٢٨٩هـ/١٦٣٥-١٨٧٩م، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٦م.

والولايات العربية بشكل خاص ومحاولة إسقاط ذلك على ولاية اليمن مع مراعاة بعض الاختلافات التي أملتها طبيعة اليمن الجغرافية والاجتماعية.

كان الوجود العثماني في اليمن وجودا عسكريا، لذلك نلاحظ أن هرمية السلم الإداري في الولاية كان تشكيلا عسكريا بامتياز، فالوالي هو القائد الأعلى للجيوش، يأتي بعده في الأهمية الكتخداه ثم الدفتر دار ثم السناجق والكشاف الذين يحكمون المدن، وكان يتم تعيين حكام المدن من قبل الوالي، ودائما ما يكونون من الضباط والأمراء العسكريين. وحسب المصادر فإن الولاة العثمانيين في اليمن كانوا يستعينون باليمنيين المعروفين بولائهم الشديد للدولة العثمانية في الجوانب الإدارية، وكان يتم منحهم الرواتب والرتب والألقاب والنياشين، كما عمل بعض الولاة العثمانيين على الإبقاء على النظام القبلي[٥٩٦] خصوصا في المناطق الجبلية ما أمكنهم ذلك[٥٩٧].

وحسب المعطيات التاريخية فإن الوضع الإداري في اليمن في فترة الحكم العثماني الأول كان مزيجا بين الوضع المحلي الخاص بولاية اليمن مع الوضع العام للدولة العثمانية، وكانت اليمن إداريا تتبع مصر لفترة طويلة، والولاة في مصر كانوا هم المعنيون بالدرجة الأولى عن الوضع باليمن.

وقد مرت ولاية اليمن بثلاث مراحل هي بكلربكية وإيالة ثم ولاية، وفي الأولى والثانية كانت تابعة بشكل مباشر لولاية مصر، أما في المرحلة الثالثة فقد كانت مرتبطة بإسطنبول مباشرة. واختلفت التقسيمات الإدارية للسناجق/ الألوية من فترة إلى أخرى بحيث بلغت في الفترة ما بين ١٥٧٨-١٥٨٨م ٨٢ سنجقا/ لواء[٥٩٨].

---

[٥٩٦] للمزيد حول القبائل اليمنية، ترتيباتها وتفرعاتها وانظمتها، انظر: لقمان، حمزة علي، تاريخ القبائل اليمنية، منشورات دار الكلمة صنعاء، ط١، ١٩٨٥م.

[٥٩٧] البطريق، مرجع سابق، ص ٤٠ -٤١.

[٥٩٨] يلدرم، محمد، سياسة الدولة العثمانية في القرن السادس عشر في (البحر الأحمر – اليمن – خليج البصرة (الخليج العربي) – الحبشة)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة سليمان ديميرال، أسباطة - تركيا، ٢٠٠١م، ص٦٦.

يتشابه الحكم المحلي في الولايات العثمانية بما فيها اليمن مع الحكم المركزي في الدولة، فكان على رأس كل ولاية وال أو بكلربك، بمعنى أمير الأمراء، ودوره في الولاية يشبه دور السلطان في المركز، وكان يساعد الوالي في حكم الولاية مجموعة من الموظفين تتشابه أعمالهم وألقابهم مع أعمال وألقاب موظفي الحكومة المركزية كذلك، وإلى جنب هؤلاء كانت هناك مجموعة السناجق، وهم أمراء المقاطعات والمدن المهمة داخل الولاية، وكان إلى جانب كل سنجق مجموعة من الموظفين تُشبه مجموعة موظفي الوالي[٥٩٩]، وكان الوالي هو الشخصية الأولى في الولاية، يليه في الأهمية الدفتر دار أو المسؤول المالي الذي كان في الغالب يرتبط بإسطنبول مباشرة في كثير من الفترات.

وبالرغم من خضوع اليمن للسيطرة العثمانية وبالتالي خضوعها للنظم والقوانين العثمانية، فإنها كانت تتمتع بأوضاع خاصة داخل إطار الدولة العثمانية العام[٦٠٠]، وذلك نظرا لطبيعة الأوضاع الطبيعية والبشرية الخاصة بها.

وقد ساعد في ذلك مرونة النظم العثمانية التي كانت تستوعب النظم الموجودة في البلاد المفتوحة وتوائم بينها وبين النظم العثمانية الأصلية، ولذلك وُجدَ نوع من الاختلاف في نظم الحكم والإدارة من ولاية إلى أخرى.[٦٠١]

وأخيرا، فمن المؤكد أن الهيكل الأساسي للنظام الإداري والعسكري العثماني استمر العمل به في اليمن بعد خروج العثمانيين منها عام ١٦٣٥م، واستفاد منه أئمة الزيديين الذين حكموا البلاد بعد ذلك[٦٠٢].

---

[٥٩٩] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ٤٥١.

[٦٠٠] للمزيد عن التقسيم الإداري لليمن في العصر العثماني انظر: كيليتش، أورهان، التقسيم الإداري لليمن والولاة في العصر العثماني الأول، ورقة بحث مقدمة للمؤتمر الدولي (اليمن في العهد العثماني الأول) جامعة أوشاك تركيا، منشورات جامعة ٩ أيلول- أزمير- تركيا، ٢٠١٦م، ٦٩-٨٢. المقال باللغة التركية.

[٦٠١] سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مرجع سابق، ص ٤٥٣.

عمل بعض الولاة العثمانيين على تطوير الجوانب الزراعية والصناعية والتجارية [٦٠٣]والصحية، ومما يجب ذكره هنا أن التطور الصناعي والزراعي والتجاري في تلك الفترة كان يتسم بالطابع البدائي في العالم كله، وكان بالكاد يلبي الاحتياجات الضرورية للناس، وكان وضع اليمن مشابها للولايات الأخرى مع وجود بعض الفوارق التي فرضتها طبيعته العامة.

ومن الملاحظ أنه تم الاهتمام أكثر بالجوانب الصناعية التي تخدم العثمانيين، فعلى سبيل المثال، كان يتم إنتاج البارود بكميات وفيرة في اليمن في القرن السادس عشر، ويتم تصديره لمصر حسب ما ورد في وثائق الأرشيف العثماني[٦٠٤].

وقد تركزت أعمال الولاة العثمانيين في اليمن أكثر حول الجوانب الإنشائية، فقد تركوا آثارا إنشائية ومعمارية كثيرة، بعضها لا يزال بارزا حتى الوقت الحاضر، وتركزت تلك الأعمال إجمالا في إنشاء المساجد والمدارس والقلاع والحصون والطرقات وترميمها.

وفيما يخص النظام الإقطاعي الذي كان يشكل جانبا أساسيا في نظام الحكم العثماني آنذاك، فقد اتبع العثمانيون نظام الالتزام (أو نظام الضمان- التضمين) لجمع الأموال المقررة على الأراضي، وقد كان هذا النظام موضع سخط الأهالي وتذمرهم في كثير من الأحيان، لما فيه من ثغرات تسمح للقائمين عليه باستغلال

---

[٦٠٢] الحاضري، أحمد محمد علي، تاريخ الأئمة الهادويين في اليمن الفكر والتطبيق، دون دار نشر، دون مكان نشر، ٢٠٠٣م، ص١٤٠.

[٦٠٣] للمزيد عن الأوضاع الاقتصادية في اليمن في القرن السادس عشر انظر: لعجه، ماجد يحيى مجاهد، التاريخ الاقتصادي لليمن والحجاز في القرن السادس عشر، دار ليبرا للطباعة والنشر، إسطنبول، ٢٠٢٠م. (الكتاب باللغة التركية).

[٦٠٤] الأرشيف العثماني، دفاتر المهمة: دفتر رقم: ٥، وثيقة/ حكم رقم: ٦٢٧ و٦٢٨، ص٢٤٥. وثيقة مسجلة ضمن وثائق سنة ٩٧٣هـ الموافق ١٥٦٦/٦٥م، وهي عبارة عن توجيه سلطاني إلى والي اليمن، يقضي بإنتاج البارود في اليمن وبنوعية ممتازة، ويتم إرسال ٥٠٠ قنطار إلى مصر عن طريق المخا والسويس، على أن يتم اعتماد إرسال ألف قنطار سنويا.

الناس وجمع الثروات الخاصة، ولم يثبت أن العثمانيين قسموا أراضي اليمن إلى إقطاعات عسكرية (خاص- زعامات- تيمارات)؛ بل تركت الأرض لأصحابها على أن يدفعوا الخراج- الالتزام- المقرر عليها لخزانة الدولة[٦٠٥].

كما كانت اليمن من الولايات العثمانية التي تتبع نظام السليانة[٦٠٦]، وهو نظام دفع رواتب الجنود والموظفين بشكل سنوي.

---

[٦٠٥] خلوصي ياووز، الإدارة العثمانية في اليمن، مرجع سابق، ج١، صLXXXIX.

[٦٠٦] إينالجك، خليل، التاريخ الاقتصادي والإداري للدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٦.

الخاتمة

ظل التواجد العثماني الأول في اليمن ما يقارب قرنا من الزمان، حكم خلالها ٢٢ واليا عثمانيا، اختلفت سياساتهم وأعمالهم وأسلوب حكمهم من شخص إلى آخر، فقد كان لكل والٍ سياسة خاصة مستقلة به، والقليل منهم من وجدناه مكملا لمن سبقه. وقد عاشت اليمن في تلك الفترة (١٥٣٨–١٦٣٥م) أطوارا مختلفة بين السلم والحرب، وإن كان الأخير هو المسيطر على الوضع. ومما لا شك فيه، فإن المقاومة اليمنية للوجود العثماني في القرن السادس عشر كانت شرسة وقوية، ولا نبتعد كثيرا إذا قلنا إنها كانت أشرس مقاومة واجهها العثمانيون في تلك الفترة، حيث كلفتهم كثيرا من الخسائر البشرية والمادية، الأمر الذي ترتب عليه خروجهم من اليمن عام ١٦٣٥م.

لا شك أن اليمن من الولايات التي احتلت مكانة خاصة عند العثمانيين، ليس بما تدره من موارد؛ بل لكثرة الاضطرابات والعصيانات التي أرّقت العثمانيين على مر تواجدهم فيها، الأمر الذي جعلهم يهتمون بأمرها، ويعينون ولاة طابعهم العسكري أكثر من السياسي في كثير من الأحيان، وكانت كما وصفها أحد المؤرخين المعاصرين أشبه بالمنفى، يتم إرسال الأشخاص غير المرغوب فيهم لغرض التخلص منهم[٦٠٧].

كما كانت اضطرابات وتمردات القبائل في اليمن تؤثر بشكل أو بآخر في تشويق وخروج تمردات مشابهة في الولايات الأخرى، تجلّى ذلك بوضوح في فترة

---

[٦٠٧] ميشيل توششر، الأسطول العثماني في البحر الأحمر من أواخر القرن السادس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر، مرجع سابق، ص٢١٨.

الوجود العثماني الثاني في اليمن، حيث تذكر إحدى الوثائق العثمانية المحفوظة في أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول أن تمردات اليمنيين مع الزمن أثرت وشوقت ولايات أخرى للخروج عن السيادة العثمانية خصوصا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين[٦٠٨].

اعتمد الوضع في اليمن- خلال فترة بحثنا- اعتمادا كبيرا على نباهة الوالي ومسؤوليته وأسلوبه في الحكم، فمنهم من كان يبحث عن مجد وثراء شخصي، ويفتعل الحروب والمشاكل لأجل ذلك، ومنهم من كان يسعى إلى استتباب الأمور وتثبيت العدالة والاستقرار والمحافظة على سمعة الدولة العثمانية ومكانتها.

وفي الجهة المناهضة للعثمانيين المتمثلة في الجبهة الزيدية التي كان يقودها آل شرف الدين ومن بعدهم آل القاسم نلاحظ أنهم سخروا كل إمكاناتهم من أجل إخراج العثمانيين من اليمن منذ البدايات الأولى لتواجدهم فيها، لكن المشاكل الداخلية التي كانت تتواجد داخل جبهتهم إضافة إلى اهتمام إسطنبول وإرسال التعزيزات تلو التعزيزات هو ما أخّر خروج العثمانيين إلى سنة ١٦٣٥م، بالرغم من أن أغلب الدلائل التاريخية تشير إلى إمكانية خروجهم قبل ذلك التاريخ لولا وجود تلك المعضلتين.

وقبل أن نختم؛ يجب أن نشير الى حقيقة مفادها ان العثمانيين لم يكونوا بالسوء الذي صوره ويصوره بعض المؤرخين، وهم قلة، ولا يمكن بأي حال من الأحوال مقارنتهم بالفرنسيين أو البرتغاليين أو الإنجليز أو غيرهم من الأوروبيين، فحروب

---

[٦٠٨] وثيقة محفوظة في أرشيف رئاسة الوزراء- إسطنبول في إطار تصنيف يلدز، أوراق رقم: ٣٣، قسم رقم: ٣٣١/مكرر، ظرف رقم:٧٣، كرتون رقم:٩٠. ترجمه ونقله إلى اللغة التركية: إحسان ثريا سرما.

الغرب على العالم الإسلامي كانت في نظرهم حروبا صليبية مقدسة، حسب المصادر الأوروبية نفسها، لذا لا يمكن بأي حال من الأحوال وضعهم في مقياس واحد مع العثمانيين الذين أفادوا واستفادوا من وجودهم بالبلاد العربية، إذا ما علمنا أن المنطقة العربية آنذاك كانت مائلة للسقوط والخضوع للسيطرة الأوروبية البرتغالية حين أخذت تجوب البحار والمضائق العربية والإسلامية آنذاك، ولم يكن في العالم العربي والإسلامي قوة قادرة على صدهم، فالمماليك كانوا في ضعف كبير، والممالك المحلية في البلاد العربية والهند كانت في حالة من التشتت والتمزق، ولم يكن لديها ما يؤهلها لصد الخطر البرتغالي حينها.

وفي الأخير، أحمد الله وأشكره أن وفقني وأعانني على إنجاز هذا الكتاب، فإن أحسنت فهذا ما قصدت، وهو بتوفيق من الله تعالى، وإن جانبت الصواب فمن نفسي والكمال دائما لله، وأتمنى أن يكون جهدا مباركا ينتفع به المثقفون والمختصون على حد سواء، وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد.

والحمد لله رب العالمين

قائمة المصادر والمراجع

١- وثائق الأرشيف العثماني:

A- BAŞBAKANLIK OSMANLI ARŞİVİ

- Mühimme Defteri No: 7, Hüküm No: 2356, III. S.191.
- Mühimme Defteri No: 6, Hüküm No: 894.
- Mühimme Defteri No: 5, Hüküm No: 627, s. 245.
- Mühimme Defteri No: 5, Hüküm No: 628, s. 245.
- Mühimme Defteri No: 5, Hüküm No: 710, s. 277.
- Mühimme Defteri No: 5, Hüküm No: 720, s. 280.
- Mühimme Defteri No: 5, Hüküm No: 752, s. 290.
- Mühimme Defteri No: 7, Hüküm No: 1465, s. 136.
- Mühimme Defteri No: 7, Hüküm No: 1253, s. 31.
- Mühimme Defteri No: 7, Hüküm No1335.
- Mühimme Defteri No: 7, Hüküm No: 1255, s. 32.
- Mühimme Defteri No: 7, Hüküm No: 1508, s. 158.
- Mühimme Defteri No: 7, Hüküm No: 1731, s. 268.
- Mühimme Defteri No: 7, Hüküm No: 1794, s. 297.
- Mühimme Defteri No: 7, Hüküm No: 2664, s.343.
- Mühimme Defteri No: 7, Hüküm No: 2665, s.344.
- Mühimme Defteri No: 12, Hüküm No: 73, s. 36.
- Mühimme Defteri No: 12, Hüküm No: 79, s. 37.
- Mühimme Defteri No: 9, Hüküm No: 174, s. 65.

B- TOPKAPI SARAYI MÜZESİ ARŞİVİ

- TSMA. E. 6455.
- TSMA. E. 6454.
- TSMA. D. 333. S.320.
- TSMA. D. 888. S.320.

2- المخطوطات:

- الجرموزي، القاسم بن الحسن، نزهة الفطن في أخبار ملوك اليمن، مخطوط محفوظ بمكتبة السليمانية، اسطنبول، رقم المخطوط ٢٣٧٣.
- الحنفي، قطب الدين بن علاء الدين، رسالة مناسك الحج، مخطوط محفوظ في مكتبة السليمانية بإسطنبول تحت رقم ٠٠٠٠٤٥-٠٢.
- ابن داعر، عبد الله بن صلاح الدين تـ١٠٠٧، الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية، مخطوط محفوظ بمكتبة راغب باشا، إسطنبول، برقم ٩٧٩.
- رموزي، مصطفى بك، تاريخ فتح يمن، مخطوط محفوظ في مكتبة جامعة إسطنبول تحت رقم ٦٠٤٥.
- ابن أبي السرور، محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، المنح الرحمانية في تاريخ الدولة العثمانية، مخطوط محفوظ بمكتبة جامعة إسطنبول، رقم ١١٠٥.
- الشرفي، أحمد بن محمد بن صلاح القاسمي تـ ١٠٥٥هـ، اللآلئ المضيئة في أخبار أئمة الزيدية، مخطوط، متوفر في يمن يمن- تفكيك نشده.
- الضمدي، عبد الله بن علي ت بعد ١٠٦٨هـ، العقيق اليماني في حوادث ووفيات المخلاف السليماني، مخطوط موجود في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء تحت رقم ٧١/٠، ويوجد نسخة أخرى في مكتبة جامعة الملك سعود- قسم المخطوطات- تحت رقم ٧٧٠٨ق ٢٠/١٤٨٨.
- الواسطي، ضياء الدين أحمد بن موسى تـ بعد ١٠٧٥هـ، نبذة في تاريخ ولاة اليمن في مديدة من الزمن، مخطوط محفوظ بمكتبة السليمانية- إسطنبول.

٣- المصادر والمراجع العربية:

- المصادر:

الإسحاقي المنوفي، محمد عبد المعطي بن أبي الفتح بن أحمد بن عبد المغني بن علي تـ ١٦٤٨م أو ١٦٥٠م، أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، مكتبة ملتزمية، القاهرة.

باعلوي، محمد بن أبي بكر بن أحمد الشلي، عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، تحقيق: إبراهيم أحمد المقحفي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ٢٠٠٣م.

بافقيه، محمد بن عمر تـ١٠٠١هـ/١٥٩٢م، تاريخ حوادث السنين ووفاة العلماء العاملين والسادة المربين والأولياء والصالحين، تحقيق: أحمد صالح رابضه، إصدارات جامعة عدن، عدن، ٢٠١١م.

بامخرمة، أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بن علي، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، تحقيق: بو جمعة مكري وآخرون، دار المنهاج للنشر، جدة، ط١، ٢٠٠٨م.

بجوي، إبراهيم أفندي، التاريخ السياسي والعسكري للدولة العثمانية (المعروف بتاريخ بجوي)، ترجمة: ناصر عبد الرحيم حسين، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٥م.

البكري الصديقي، محمد بن أبي السرور تـ ١٦٦١م، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية وذيلة اللطائف الربانية على المنح الرحمانية، تحقيق: ليلى الصباغ، دار البشائر، دمشق، ط١، ١٩٩٥م.

ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي بن محمد، الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق: يوسف شلحد، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٨٣م.

ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي بن محمد، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، صنعاء، ط٢، ١٩٨٨م.

ابن أبي الرجال، أحمد بن صالح تـ١٠٩٢هـ، مطلع البدور ومجمع البحور في تراجم رجال الزيدية، تحقيق: عبد الرقيب مطهر محمد حجر، مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية، صعدة، ط١، ٢٠٠٤م.

شرف الدين، عيسى بن لطف الله، روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، تحقيق: إبراهيم أحمد المقحفي، صنعاء، مركز عبادي للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٣م.

الشلي، السيد محمد، السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر، تحقيق: إبراهيم بن احمد المقحفي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ط١، ٢٠٠٤م.

الشوكاني، محمد بن علي بن محمد تـ١٢٥٠هـ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق: محمد حسن حلاق، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.
الصنعاني، عبد الملك بن حسين الآنسي، إتحاف ذوي الفطن بمختصر أنباء الزمن، تحقيق: إسماعيل بن أحمد الجرافي، منشورات جامعة صنعاء، ملحق العدد الثالث من مجلة كلية الآداب، ربيع الثاني سنة ١٤٠١هـ / مارس ١٩٨١م.
ابن عبد الظاهر، محي الدين، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١م.
العبدلي، أحمد فضل بن علي محسن، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٥١هـ.
كاتب جلبي/ تشلبي، مصطفى عبد الله المعروف بحاجي خليفة (ت١٦٥٨م)، فذلكة أقوال الأخيار في علم التاريخ والأخبار- تاريخ ملوك آل عثمان، تحقيق: د. سيد محمد السيد، أنقرة، مؤسسة تاريخ الأتراك للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٩م.
الكبسي، محمد بن إسماعيل، اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، تحقيق: خالد الأذرعي، صنعاء، مكتبة الجيل الجديد، ط١، ٢٠٠٥م.
المليباري، أحمد بن زين الدين المعبري، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، تحقيق: محمد سعيد الطريحي، مؤسسة الوفاء للنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
الموزعي، شمس الدين عبد الصمد بن إسماعيل، دخول العثمانيين الأول إلى اليمن المسمى الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، بيروت- لبنان، منشورات المدينة، ط١، ١٩٨٦م.
النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد ت ٩٩٠، غزوات الجراكسة والأتراك في جنوب الجزيرة العربية المسمى (البرق اليماني في الفتح العثماني)، الرياض، منشورات دار اليمامة، ط١، ١٩٦٧م.

الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب تــ بعد ٩٤٧م، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٩٩٠م.

يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي (تــ ١٦٨٩م)، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ط١، ١٩٦٨م.

- **المراجع:**

إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية المعروف بكتاب التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

أحمد، إبراهيم خليل، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦-١٩١٦م، دار ابن الأثير للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ٢٠٠٥م.

الأكوع، القاضي إسماعيل بن علي، أسرار مقاومة اليمن للحكم العثماني، ورقة مقدمة إلى المؤتمر العالمي الرابع للدراسات العثمانية، زاغوان- تونس، ٢٦-٣٠ يناير ١٩٩٠م.

الأكوع، محمد بن علي الحوالي، اليمن الخضراء مهد الحضارة، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ط٢، ١٩٨٢م.

الأمير، أمة الغفور عبد الرحمن، خطاب السلطان سليمان القانوني إلى المطهر بن شرف الدين في اليمن ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م وجواب المطهر، ورقة بحث مقدمة للمؤتمر الدولي (اليمن في العهد العثماني الأول) جامعة أوشاك تركيا، منشورات جامعة ٩ أيلول- أزمير- تركيا، ٢٠١٦م.

البطريق، عبد الحميد، من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧-١٨٤٠م، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٩م.

إيمـان مصـطفى، ديـو البحريـة ١٥٠٩م وأثرهـا فـي انهيـار دولـة سـلاطين المماليك، جامعـة عين شمس/ مجلـة البحث العلمـي- الآداب والعلـوم الانسانية، العدد ٢٢، يناير ٢٠٢١م، الجزء ١، ص ٥٤-٧٩.

بوسـتان، إدريـس، أهميـة ترسـانة السـويس وجـدة وموخـا فـي الصـراع العثمـاني البرتغالي في البحر الأحمر، بحث مقدم إلى الندوة الدولية حول اليمن في العهد العثماني صنعاء ١٦-١٧ ديسمبر ٢٠٠٩م، منشورات مركز الأبحـاث للتـاريخ والفنـون والثقافـة الإسـلامية (IRCICA)، إسـطنبول، ٢٠١١م.

بيـات، فاضـل، الـبلاد العربيـة فـي الوثـائق العثمانيـة، مركـز الأبحـاث للتـاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إسطنبول،٢٠١٥م، ط٢.

الثور، أمة الملك إسماعيل قاسم، الولاة العثمانيون وأبرز أعمالهم الإنشائية في فترتي الحكم العثماني الأول والثاني لليمن (٩٤٥-١٠٤٥هـ / ١٥٣٨-١٦٣٥م، ١٢٨٩-١٣٣٦هــ / ١٨٧٢-١٩١٨م)، الريـاض، مجلـة جامعة الملك سعود، العدد ٢٢، السياحة والآثار(٢)، ٢٠١٠م.

الثور، أمة الملك إسماعيل قاسم، اليمن في عهد القائدين أوزدمير باشا والوزير سنان باشا (دراسة مقارنة)، ورقة بحث مقدمة إلى المؤتمر الدولي عن الـيمن فـي العهـد العثمـاني الأول، جامعـة أوشـاك، تركيـا، ٢٠١٥م، منشورات جامعة ٩ أيلول، أزمير، تركيا، ٢٠١٦م.

الثـور، عبد الله محمد أحمـد، هذه هـي اليمن، مطبعـة المدني، صـنعاء، ط١، ١٩٦٩م.

جانكارلوا كازالي، رياس البحر الهندي عصر الاستكشافات العثمانية، ترجمة: مصطفى قاسم، إصدارات عالم المعرفة، الكويت، أغسطس ٢٠١٨م.
الجرافي، عبد الله بن عبد الكريم، المقتطف من تاريخ اليمن، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.
الحاضري، أحمد محمد علي، تاريخ الأئمة الهادويين في اليمن الفكر والتطبيق، دون دار نشر، دون مكان نشر، ٢٠٠٣م.
الحجري، القاضي محمد بن أحمد، مساجد صنعاء، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٤م.
الحداد، عبد الله عبد السلام، صنعاء تاريخها ومنازلها الأثرية، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.
الحداد، علوي بن طاهر بن عبد الله بن طه، الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها، طبع الكتاب في سنغافورا، ١٩٤٠م.
الحداد، محمد يحيى، التاريخ العام لليمن (التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي منذ بداية تاريخ اليمن القديم وحتى العصر الراهن)، منشورات المدينة، ط١، ١٩٨٦م.
حراز، السيد رجب، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠-١٩٠٩م، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٠م.
الخطيب، مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
دلال، عبد الواحد محمد راغب، البيان في تاريخ جازان وعسير ونجران، دار التعاون للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.

الذماري، مبروك محمد يحيى، القلاع في تهامة اليمن خلال الفترة ٩٤٥-١٣٣٦هـ/ ١٥٣٨-١٩١٨م دراسة أثرية معمارية توثيقية، رسالة دكتوراه مجازة من جامعة الحسن الثاني المحمدية، الدار البيضاء، ٢٠١٣/٢٠١٤م.

سالم، سيد مصطفى، الفتح العثماني الأول لليمن، القاهرة، دار الأمين، ط٥، ١٩٩٩.

ساحلي أوغلي، خليل، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني بحوث ووثائق وقوانين، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية- أرسيكا-، إسطنبول، ٢٠٠٠م.

السلمان، محمد حميد، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة ١٥٠٧-١٥٢٥م، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين-الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٠م.

سونيا. ى. هاو، في طلب التوابل، ترجمة: محمد عزيز رفعت، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٧م.

شرف الدين، أحمد حسين، اليمن عبر التاريخ، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م.

الشيبة، عبد الله حسن، الموسوعة اليمنية، مادة سهام، مؤسسة العفيف، صنعاء، ط٢، ٢٠٠٣م.

الشيبة، عبد الله حسن وآخرون، الموسوعة اليمنية، مؤسسة العفيف، صنعاء، ط٢، ٢٠٠٣م، مادة رداع.

صابان، سهيل، نظرة عامة في السياسة العثمانية لتثبيت الحكم في اليمن ٩٦٧ من واقع دفاتر المهمة-٩٩٩هـ/١٥٥٩-١٥٩١م، مجلة أبحاث الشرق الأوسط، جامعة الفرات، الأزيغ، العدد ١-٢.

صالحية، محمد عيسى، وثائق جديدة عن حملة سليمان باشا إلى اليمن سنة ٩٨٦هـ /٦٨-١٥٦٩م، مجلة حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الثامنة، ١٩٨٧م.

العرشي، حسين بن أحمد، بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

العروسي، محمد علي وآخرون، الموسوعة اليمنية، الشيبة، مؤسسة العفيف، صنعاء، ط٢، ٢٠٠٣م، مادة موزع.

العقيلي، محمد بن أحمد، تاريخ المخلاف السليماني، مطابع الوليد (للتأكد)، ط٣، ١٩٨٩م.

عمار، محمود، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان ١١٧-١١٨، كانون الثاني- حزيران ٢٠١٢م.

عمر، عمر عبد العزيز، تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢م، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٤م.

العمري، حسين عبد الله، الموسوعة اليمنية، مؤسسة العفيف، صنعاء، ط٢، ٢٠٠٣م، مادة السر.

فاروقي، ثريا وآخرون، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، ترجمة: قاسم عبده قاسم، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٧م.

لقمان، حمزة علي، تاريخ القبائل اليمنية، منشورات دار الكلمة صنعاء، ط١، ١٩٨٥م.

محروس، صالح، ولاية مصطفى باشا النشار على اليمن وآثارها ١٥٥١-١٥٥٨م، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الأول عن اليمن في العهد العثماني الأول، جامعة أوشاك- تركيا، منشورات جامعة ٩ أيلول- أزمير -تركيا، ٢٠١٦م.

محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، بيروت، دار النفائس، ط١، ١٩٨١م.

محمود، سيد محمد السيد، تاريخ الدولة العثمانية (النشأة والازدهار) وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

المداح، أميرة علي وصفي، العثمانيون والإمام القاسم بن محمد بن علي في اليمن ١٠٠٦هـ/١٥٩٨م- ١٠٢٩هـ/١٦٢٠م، رسالة ماجستير مجازة من قسم التاريخ بجامعة الملك عبد العزيز، جدة، ١٩٨٠م.

نصر، علي أحمد، المقاومة اليمنية ضد العثمانيين في القرن السادس عشر الميلادي دراسة تاريخية في الأسباب، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية- المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، غزة، العدد الخامس، المجلد الثالث، مايو ٢٠١٩م.

نيقولاي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦-١٥٧٤م، ترجمة: يوسف عطا الله، دار الفارابي للنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

الهجري، عبد الحكيم، سياسة جعفر باشا في إرساء دعائم السلطة العثمانية في اليمن خلال الوجود العثماني الأول لليمن (١٦٠٧-١٦١٦م)، بحث مقدم للندوة الدولية حول اليمن في العهد العثماني- صنعاء ١٦-١٧ ديسمبر ٢٠٠٩م، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إسطنبول، ٢٠١١م.

ياغي، إسماعيل أحمد، العالم العربي في التاريخ الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٧م.

يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، إسطنبول، مؤسسة فيصل، ١٩٨٨.

المعاجم:

الأكوع، إسماعيل بن علي، مخاليف اليمن، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ط٣، ٢٠٠٩.

الأكوع، إسماعيل بن علي، البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، مؤسسة الرسالة للنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م.

الأكوع، إسماعيل بن علي، هجر العلم ومعاقله في اليمن، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

الحجري، محمد بن أحمد، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق: إسماعيل بن علي الأكوع، دار الحكمة اليمانية للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٦م.

الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.

س. موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة: عصام محمد الشحات، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
صابان، سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ٢٠٠٠م.
المصري، حسين مجيب، معجم الدولة العثمانية، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
المقحفي، إبراهيم أحمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، صنعاء، دار الكلمة، ٢٠٠٢م.

٤ـ المصادر العثمانية التركية:

- المصادر العثمانية:

جودت، أحمد باشا تـ١٨٩٥م، تاريخ جودت، مطبعة علي بك، إسطنبول، ١٢٩٢هـ، ج٣.
عاشق باشا زادة، تواريخ آل عثمان (عاشق باشا زادة تاريخي)، مطبعة عامرة، إسطنبول، ١٣٣٢هـ، ص٢٢٠-٢٤٧.
مؤلف مجهول، تواريخ آل عثمان، دراسة وتحقيق: نهات أزمات، منشورات دار كلية الآداب للطباعة والنشر، إسطنبول، ١٩٩٢، ص١٣٥-١٤٠. الكتاب باللغة التركية مترجم من اللغة العثمانية.
كامل باشا، محمد، التاريخ السياسي للدولة العثمانية العلية، مطبعة أحمد إحسان، إسطنبول، ١٣٢٧هـ، ج١، ص٢٥٨. الكتاب باللغة العثمانية.
عاطف باشا، تاريخ اليمن، مطبعة منظومة الأفكار (دار سعادة)، إسطنبول، ١٣٢٦م، ج١، ص٥٣. الكتاب باللغة العثمانية.

بجوي، إبراهيم باشا تـ ١٦٥٠م، تاريخ بجوي، ج١، ص٤٨٤. الكتاب باللغة العثمانية.

بجوي، إبراهيم باشا تـ ١٦٥٠م، تاريخ بجوي، المطبعة العامرة، إسطنبول، ١٢٨٣هـ، ج١، ص٤٧٦. الكتاب باللغة العثمانية.

يمن سالنامه سي، طبع في مطابع صنعاء، محفوظ في المكتبة الوطنية العامة، إسطنبول، ١٣٠٤هـ، القسم: A.E.Salname، رقم ٥٣٨، ص١٢٧. باللغة العثمانية.

يمن سالنامه سي، رقم ٥٣٨، ص١٢٨. باللغة العثمانية.

يمن سالنامه سي، رقم ٥٣٨، ص١٣٥. باللغة العثمانية.

يمن سالنامه سي، تحرير: حميد وهبي، المكتبة الوطنية العامة، إسطنبول، ١٢٩٩هـ، القسم: A.E.Salname، محفوظة برقم ٥٣٦. ص٤٧. باللغة العثمانية.

- **المراجع التركية:**

Ahmed Raşid Paşa, **Yemen ve Sana'a Tarihi**, Yay. Haz. Güllü Yıldız ve Filiz Dığıroğlu, İstanbul Fetih Cemiyeti Yayınları, İstanbul, 2015.

Baştürk, Sadettin, **Yemen'de Osmanlı-Zeydî Mücadelelerin Sebep ve Sonuçları**, Fırat Üniversitesi Orta Doğu Araştırmaları Dergisi, Cilt. IX, Sayı 1, Elazığ, 2013, ss. 11-20.

Genç, Mehmet, **Osmanlı İmparatorluğu'nda Devlet ve Ekonomi**, Ötüken Neşriyat, İstanbul, 2000.

Hathaway, Jane. ***Osmanlı Hakimiyetinde Arap Toprakları***, Çev. Gül Çağalı Güven, Türkiye İş Bankası Kültür Yayınları, İstanbul, 2016.

AL-Gerafi, Ebtisam, **Beylerbeyi Hasan Paşa Döneminde Yemen İdaresi (988-1013/ 1580-1604)**, (Doktora Tezi), İsanbul Üniversitesi, 2015.

İnalcık, Halil, ***Devlet-i Aliyye, Osmanlı İmparatorluğu Üzerine Araştırmaları-I Klasik Dönem***, İstanbul, Türkiye İş Bankası Kültür Yayınları, 54. Basım, 2014.

İnalcık, Halil, **Osmanlı İdare ve Ekonomi Tarihi**, İstanbul, İslam Araştırmaları Merkezi, 2011.

Kara, Ayşe, **XVII. Ve XVIII Yüzyıllarda Osmanlı Yönetiminde Yemen ve Kasimiler Dönemi**, (Yüksek Lisans Tezi), Istanbul Üniversitesi, 2011.

Kılıç, Orhan, **İlk Osmanlı Hakimiyeti Döneminde Yemen Vilayet-Eyaleti'nin İdari Taksimatı ve Yöneticileri**, Uşak Üniversitesi, I. Uluslararası Osmanlı'nın I. Hâkimiyet Döneminde, Yemen Sempozyumu Bildirileri, Uşak- Türkiye, 12-15 Mart 2015.

El-Lahverdî, Reyhan Şahin, **Yemen Tarihi Çalışmalarında " Fetih ve fatihe" bakış**, Uşak Üniversitesi, I. Uluslararası Osmanlı'nın I. Hâkimiyet Döneminde, Yemen Sempozyumu Bildirileri, Uşak-Türkiye, 12-15 Mart 2015.

Lajah, Maged Yahya Mujahed, **XVI.Yüzyılda Yemen ve Hicaz (İktisadi Tarih)**, İstanbul, Libra kitap Yayınevi, 2020.

Michel Tuchscherer, **XVI. Yüzyıl Sonlarından XVIII. Yüzyıl Sonlarına Kadar Kızıldeniz'de Osmanlı Donanması**, Deniz Basımevi Müdürlüğü, İstanbul, Temmuz 2009.

Mughul, Muhammad Yakub, ***Kanunî Devri Osmanlıların Hint Okyanusu Politikası ve Osmanlı Hint Müslümanları Münasebetleri 1517-1538***, İsanbul, Fetih Yayınevi, 1974.

Orhonlu, Cengiz, **Osmanlı İmparatorluğu`nun Güney Siyaseti Habeş Eyaleti**, Ankara Türk Tarih Kurumu Yayınları, 1996.

Özbaran, Salih, **Ottoman Expansion Towards The Indian Ocean In The 16th Century**, İstanbul Bilgi Üniversitesi Yayınları, İstanbul, 2009.

Önal, Ahmet, **Koca Sinan Paşa'nın Hayatı ve Siyasî Faaliyetleri 1520-1596**, Yayımlanmamış Doktora Tezi, Marmara Üniversitesi, istanbul, 2012.

Özbaran, Salih, **Yemen'den Basra'ya Sınırdaki Osmanlı**, İstanbul, Kitap Yayınevi, 2004.

Öztuna, Yılmaz. ***Tarihü'l-Devletü'l-Osmaniye***, Çev. Adnan Mahmud Salman, Muassat el-Feysal Yayınevi, İstanbul, 1990.

Sırma, İhsan Süreyya, **Yemen'in Jeo-Politik Durumu ve Osmanlı Devleti'ne Katılması**, *İstanbul Üniversitesi Edebiyat Fakültesi Tarih Enstitüsü Dergisi*, Sayı. 12, 1981-1982, ss. 428-454.

Yavuz, Hulusi. **Yemen'de Osmanlı İdaresi ve Rumuzi Tarihi I-II**, Türk Tarih Kurumu Yayınları, Ankara, 2003.

Yeşilyurt, Yahya, **Yemen'in Tarihi-Coğrafî Durumu ve Yeniden Fethine Dair bir Manzume**, Tarih Dergisi, Sayı 51, İstanbul, 2011, ss. 103-121.

Yıldırım, Muhammet, **XVI.Yüzyılda Osmanlı Devleti'nin Kızıldeniz, Yemen, Basra Körfezi ve Habeşistan Politikaları**, (Yüksek Lisans Tezi), Süleyman Demirel Üniversitesi, İsparta, 2001.

ملحقات

ملحق(١) فرمان سلطاني يقضي بأمر والي مصر بمساعدة محمود باشا بما يلزمه أثناء توجهه إلى إسطنبول بعد عودته من اليمن سنة ١٥٦٥م.

Numaralı Mühimme Defteri Belge No: 894, 895.. 6

ملحق (٢): صورة تقرير سليمان باشا الخادم المحفوظة في أرشيف الباب العالي- اسطنبول

Topkapı Sarayı Arşivi, E. 6454

بیلمانوقلری و علم شریف جهان آرالریه مخفی و مستور بویورلمیه که بو تدبیر و تدارک ایله فتحی میسر اولمیوب طشره‌ده قونقلری و باکیکلری ایله آنده اولو اولسه
بو طاشدن قوی موج دکلی یقیننه و یورمسه اوغرانمق ممکن اولمزدی زیرا قدیمدن صعوبت ایله مشهور اولمش حصن حصین و قلعه متین اولوب
بو زمانه دکین هر کیم فتح و تسخیرنه قصد اتسه امکان و ده ماه میسر اولمیوب فتحی باشدن محروم و ناامید کیتمشلردر زیرا که اوچ جانبی دریا احاطه ایدوب
و دریانک ایچ طرفی جبال شامخه دخی اطرافنی احاطه ایلمشدر که هر قله‌نک بناسی آیدن و کلکسی سحابدن در سور قلعه‌یه کوکدن بر برج عالی بنا اولنمشدر که
هر بری نام بسیط شهری اولوب کویا که لم یخلق مثلها فی البلاد انک حقنده نازل اولمشدر و قلعه‌سنک حسن و ملاحتی نظیری اولمیوب ایجنده اولان
دولری دخی بالا و بلند اولوب هر بریسنک شقیقی بروج فلکه عروج ایدوب همان مصر اولرینه مماثل و معادلدر بحمد الله حواله اولو پادشاه عالم پناه حضرتلرینک
دولتلی برجه که بورنه قانبوب فتحی آسان اولمق ایله میسر اولدی ان شاء الله ایام سعادت پادشاهیده بو جانبلر تمام فتح و ضبط اولنور زیرا که جمیع
مملکت یمنک باشی عدن اولوب عدن مکه مشرفه ولدیکه خیلی واسع مملکت اولوب زبید و تعیس و صنعا نام مشهور قلعه‌لر
اولوب بونلر نجه وجه خوه کوردوع اما الحاصل اوتوز سنجاق قدرلیدر دیو سویلیورلر ایله اولیجاق بو کلو واسع مملکتی دخی یوب [illegible]
فتح و ضبط ایتمک ایچون بر مقدار تکالیکی قونلمق لازمدر که اکر یوزلرجه عدن محافظه‌سیچون قونلمش هم آدم [illegible] اولوب کرکی کبی حفظ و حراست
جلوس ایدوب آنلر قوللر ایله اطراف و جوانبنی مکه مشرفه جانبنه کلنجه تحت یدنده و قبضه تصرفنده اولوب کرکی واقع اولمش بر قلعه
ایلیورلر نفس عدندن عادت قدیمه اولن همان خروارکه و کتخدا و حصارلری و غیری اولا زیرا عدن طاغ ایچنده واقع و ممکندر و حالیا
اولوب [illegible] طارده اما زبید مملکتی اوزماسی اولوب لکن طور ملغا هر اطرافی و جوانبی ضبط و حفظ اولنمغه قابل و ممکندر آنده اولندی
دیو جانبنه توجه ایلکه موسم قریب اولوب وقت زیاده طار اولماغین بر وده تعمیر سطور قولار قونیلوب بر قلعه‌سنجاق اول جانبه روانه اولندی
الا مذکور قلعه افراط ایله بیوک قلعه اولوب و قلعه‌دن غیری لیمان اغزنده بر کوچک قلعه دخی اولوب اصل قلعه‌یه بیشیوز حصار اری
و دقوز عزب و کوچک قلعه‌یه دخی ده آرا ایله یوز حصار اری قونلمق لازم اولوب نوقه اولنان کمسه لری بونده بو نفاقده همان زیرنه
نفرکم یا زیلوب باقی بیشیوز کشی نی بیش نفر که ده احتیاج اولمغین اول چوآننده کوندرلمک اسد عا اولندی و اطراف اولان مملکتی
حفظ و حراست ایتمک ایچون دکا. صلاوه‌ده بر کونکللولر اغاسی و بر توفکجیلر اغاسی و بر عزب اغاسی و یوز توکلی و بیشیوز نفر آتلو توفکچی و قلعه‌لو ایچون نفر طوپچی ولدن نفر
طوپ عربه‌جی یازیلوب و علوفه‌لری تعیین اولنوب عدنه ارسال اولنمغه علو عنایت پادشاهی مبذول و مصروف بیوریله اقلا ایکیوز کونکللولرک
علوفه‌لری اوزالنتیر و توفکجیلرک علوفه‌لری لعزبیشر و حصار لرک علوفه‌لری اوز و عزبلرک علوفه‌لری زراعتی اولوب و طوپچیلرک و طوپ عربه‌جیلرک
دخی علوفه‌لری اوزراقچه اولا زیرا مصرده بو یرلرده قطعا نفع اله کیرمک احتمالی یوقدر و ارسال اولنمق بر ییللق علوفه‌لری مصر خزینه‌سندن
تعیین اولنوب و یریله تا مملکت حدودی وسعت بولوب اطرافدن محصول کلوب خزینه حاصل اولنجه اوکالر کفایت ایلیه انلردن صکره علوفه‌لری بونده
منصوب لنداری و ده کا. صلاوه‌دن عربه‌لری ایله اوتوز ضربزن و اوریلی اوراق‌لی اوتوز قطعه شاهیه طوپلر قتیم اولمشدر و انده غیری
قلعه‌نک بورونلرینک تعمیر و ترمیمی و بعض محلاتک تشییدی ایچون لعی نفر معمار و بش نفر خلیفه و سائر مهماته لازم اولان قازمه و
کوروکده و کولنکده و مور کوسکیده و سائر بنایه کرکلو اولان آلات و اسبابدن کفایت مقداری آلات و اسباب تدارک اولنوب
مصرده ارسال بیوریله تا که آنلار دخی حتی امینه کوندروب حتی امینی دخی عدنده بر آدم کلیکنده خزینه ارسال ایلیه و دادخواه او
ومصر تکالیکیسنه حکم شریف عنایت بیوریله که برقطعه استعمال مصروف اکمه تکلیفات اولدقده انتظار یاروق نصیب ایدر ایدوب مملکت حدودلرینه ذخیره ایچون بیشیکلیک
اولوب تعذیری تدارکی ایدروب عدن قلعه‌سنه اولاشدرن و مذکور عدن بکلیکنه تعیین و قفدی کافی ایله برادلوچ ایلمشدر حتی تعیین زمانینه کافی ن
کنده و برقانی کلمشی ایلمش و ساباغا پادشاه عالم پناه حضرتلرینک نام شریفلرینه کمدروب فرمان ایلیه در کا. صلاویه کوندردیکی باره. همان
محضا بر صورت معامله ایلمش جمیع اچه سن کنده و لو نه کسدروب و خطبه کنده وکوینه اوقوده ایلمش و حالیا اشبو سنه ظهور ربیعین ربیع الاول
دون اول جمعه کونده قلعه جامعنده جمعه نمازی قیلنوب پادشاه عالم پناه حضرتلرینک نام شریفلرینه خطبه فتح اوقندی بانه فرمان هر کا

Topkapı Sarayı Müzesi Arşivi: No: E. 6454

ملحق (٣): الأرشيف العثماني، دفاتر المهمة: دفتر رقم ٥، وثيقة/حكم رقم ٧١٠، ص٢٧٧(وثيقة تقضي بتقسيم اليمن إلى ولايتين)

ملحق (٤): الأرشيف العثماني، دفاتر المهمة: دفتر رقم: ٥، وثيقة/ حكم رقم: ٦٢٧ و٦٢٨. وثيقة تقضي بضرورة إنتاج البارود في اليمن، وبنوعية ممتازة، وإرسال ٥٠٠ قنطار إلى مصر عن طريق المخا والسويس على أن يتم اعتماد إرسال ألف قنطار سنويا.

ملحق (٥): نص خطاب الامام شرف الدين الى القائد المملوكي الأمير حسين الكردي.

المصدر: الجرموزي، القاسم بن الحسن، نزهة الفطن في أخبار ملوك اليمن، مخطوط محفوظ بمكتبة السليمانية، اسطنبول، رقم المخطوط ٢٣٧٣، ص٥٤-٥٥.

٥٦

في اخبارهم فقتل صبرا في سنة ٩٢٣ وانتهبوا خزانته وذخائره وقصوره
وعادت كان لم تغن بالامس وبادت ايامه ❁ الفصل الثالث عشر
في اخبار دوله الجراكسه ❁ قد ذكرنا صفه خروجهم لحرب الافرنج
فاول من خرج منهم الامير حسين في ست بريش وثلاثه اغربه فاوغل
في بحر الهند لطلب الافرنج ثم عاد فوصل بمراكبه الى فوق قمران فتزلزلت
دولة عامر واضطرب اليمن بوصولهم فلما بلغ الامام شرف الدين
عليه السلام كتب الى الامير حسين ومن معه كتابا يستنجدهم على عامر
بهذا اللفظ بسم الله الرحمن الرحيم نعمة شملت وسبغت ومنحة كملت
فبلغت من لدن حكيم خبير على بيت نبيه البشير النذير اجراها الله
على يد الامير الهمام الخطير الشهير المقدام امير الامرا الاسلاميه مفرج
كرب العترة الطاهرة الزكيه الناقم بثار الحرمين من الفرق الظالمه
العامريه المتحلي من اجل ذلك بكل زين المتخلي فيما هنالك ان شا الله
عن كل شين الوافي بحق اسم سيد الشهدا سبط المختار الحسين ذلك
الامير الاجل النبيل حسين حياه الله من السلام باسناه ومن الاكرام
باذكاه والله المسول ان يوفقنا واياه لاصابه مراده وهدايه عباده
واجرا احكام شريعته الطاهره في بلاده وتطهيرها من اثار جور
الجاير وتنويرها من ظلما جبرانه وعناده وبعد فكتابنا هذا
لتعريف خاطر الامير وفقه الملك القدير انا لم نزل الى الله مبتهلين
ولما لديه من الفرج منتظرين وبالنجم لمنابذه عدو الله الجاير مشمرين
امتثالا لامر الله القوي القادر على عدم المعين والناصر وخذلان من
اهل هذا الزمن المشوم القاصر وميل من الناس الى عاجل هذه الاطماع

كتاب الامام شرف الدين عليه السلام الى الامير حسين الكردي ومن معه

الحقيرة وانخداع من الخلق بزخارف الباطل الفاضحة المبيرة حتى
تمكن منهم هذا الظالم الغشوم واوقعهم من الخزي والوبال والهون
الى اقصى التخوم وشمل شره القوي والبري والنبي والخلي وتتبع بمعظم
خبثه وجوره ومكره اعيان بيت النبي حتى لم يبق في سلطانه لاهل
البيت باقية ولا اجاب لهم اجابة نافعة واعية حتى بدد بهم
هذا الظالم في البلاد وفرق منهم بين الاباء والاولاد ومات الاكثر
منهم في تخوم اليمن مطردين مبددين مشردين يتمنى الولد بحضن
موت ابيه والوالدان يشاهد احوال بنيه ولقد همّ اخزاه الله
بتقصد الحرمين واخراج من بها من آل الحسنين ولم يعذرنا اهل
زماننا بعد قبض الامام الوسلي من ان نقوم في مقامه المجلي فجمعنا
مع ما بقي معنا من جهد في دفاع مجهود المذاكره له في كثير من الحدود
الى الله سبحانه ونحن نساله تعجيل الفرج واطفا وهج المتهج على يد
من هو اهل للمحامد المبروره والمشاهد المشهوره في حياطة هذا
الدين والرعاية لحق رسول رب العالمين وما ذاك الا لسيرة صالحة
وتجارة رابحة من السلطان الاكرم المستطيل الاعظم فانصره
ادام الله توفيقه واوضح الى نيل كل مقصود مبرور طريقه ونرجوا
من الله ان يكون قد ومكم ايها الغزاه الاعلام المشابهة من قال
فيهم الملك العلام فسوف ياتي الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على
المؤمنين اعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة
لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشا والله ذو الفضل العظيم وقد
استرجحنا ارسال هذه الرسالة بيد صاحبنا الفقيه العالم العامل

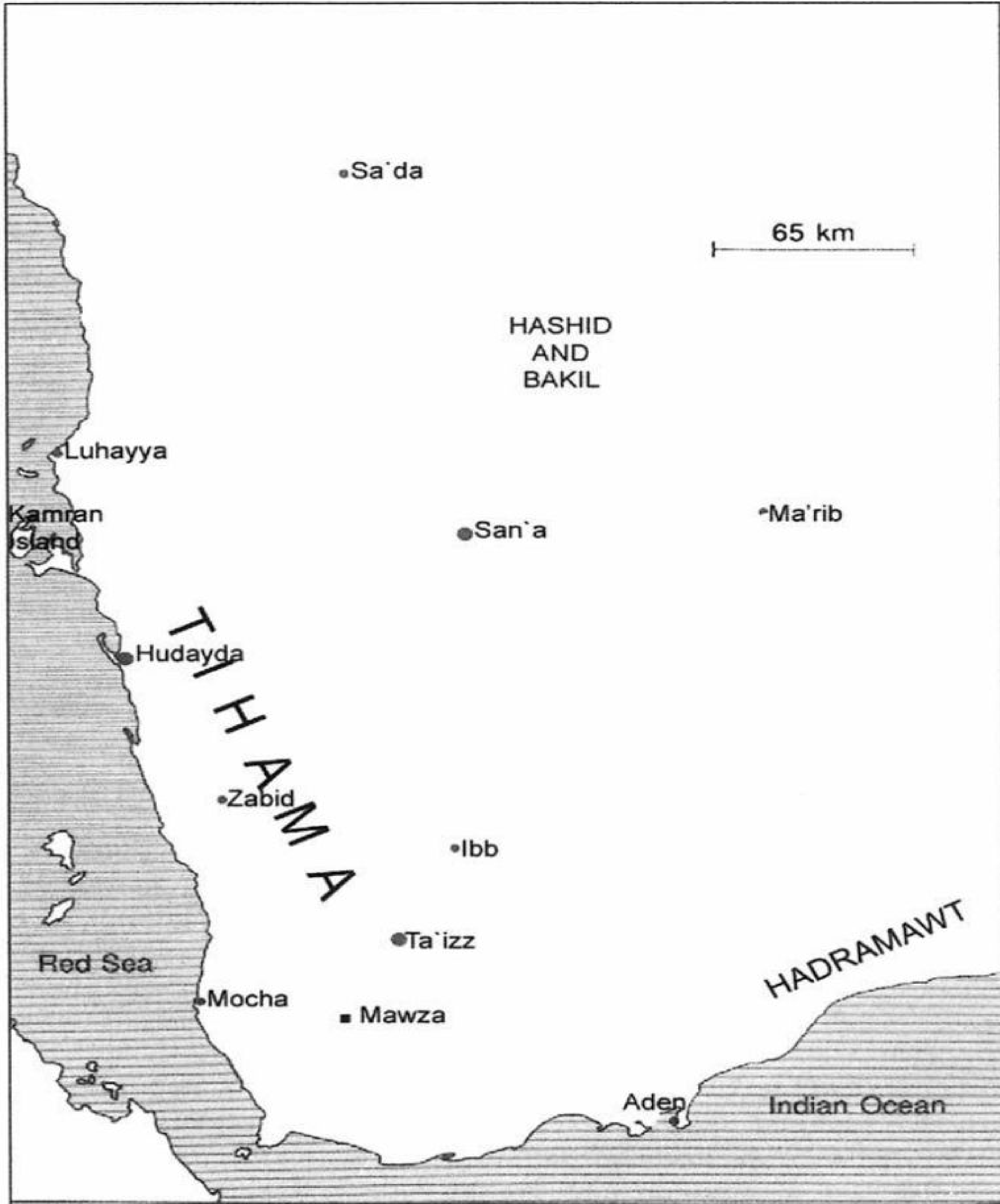
صلاح

صلاح بن شراح كتب الله هدايته واحسن رعايته لالقا النهضة
بما فتح الله على ايديكم من الفتوح المضية والحث لكم على استدراك هذه
البقية من عترة نبيكم الطاهرة الزكية وبذل المعاونة على استخلاص
سائر البلاد من يد هذا الطاغي واعوانه اهل الظلم والفساد وقد
بقي لنا بلاد مجاورة للبلاد العليا ونحن نفتقر فيها الى الاعانة منكم
بما امكن من الرجال والعدة وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم والفقيه
يحقق لكم ما لا يتسعه الكتاب ولا يقوم به الا المشافهة والخطاب
وصلى الله على محمد واله ۞ فلما وصل الكتاب الى الامير حسين تحققه و
تصفحه ثم اكرم الرسول وانزله واحسن اليه ثم راى واشار بعض
اصحابه ان جواب الامام ورسوله يتاخر حتى يكتب الى عامر بن عبد
الوهاب ويطلب منه المعونة والمدد على الفرنج الذي خرجنا من اجلهم
فان يرجع جوابه بموافقتنا فلا باس والا تحققنا صدق كتاب الامام
عليه السلام واعناه على هلاكه فكتب الى السلطان عامر كتابين مع
رسولين عاقلين من اصحابه فلما وصلا الى عامر اشار الفقيه علي
النظاري احد روسا حضرته بان يكون الجواب بالاعانة والمدد
على الفرنج وهذا امر يسير فلم يلتفت عامر الى قوله بل مال الى
راي الامير علي البعداني وكان عنده محل لتوليه الحروب فقال
انا اكفيك الجواب ثم طلب الرسولين وقال لولا ان قتل الرسل
ما يحسن لقتلتكما فان اميركم هذا ما عرف قدر السلطان وانه
عظيم الشان ثم قال اذهبا فليس لكما جواب فبادرا بالرواحل
الى الامير حسين وعرفاه بذلك فاضمر الشر لعامر وجهز رسول

ملحق(٦): خارطة توضيحية لليمن في القرنيين السادس والسابع عشر.

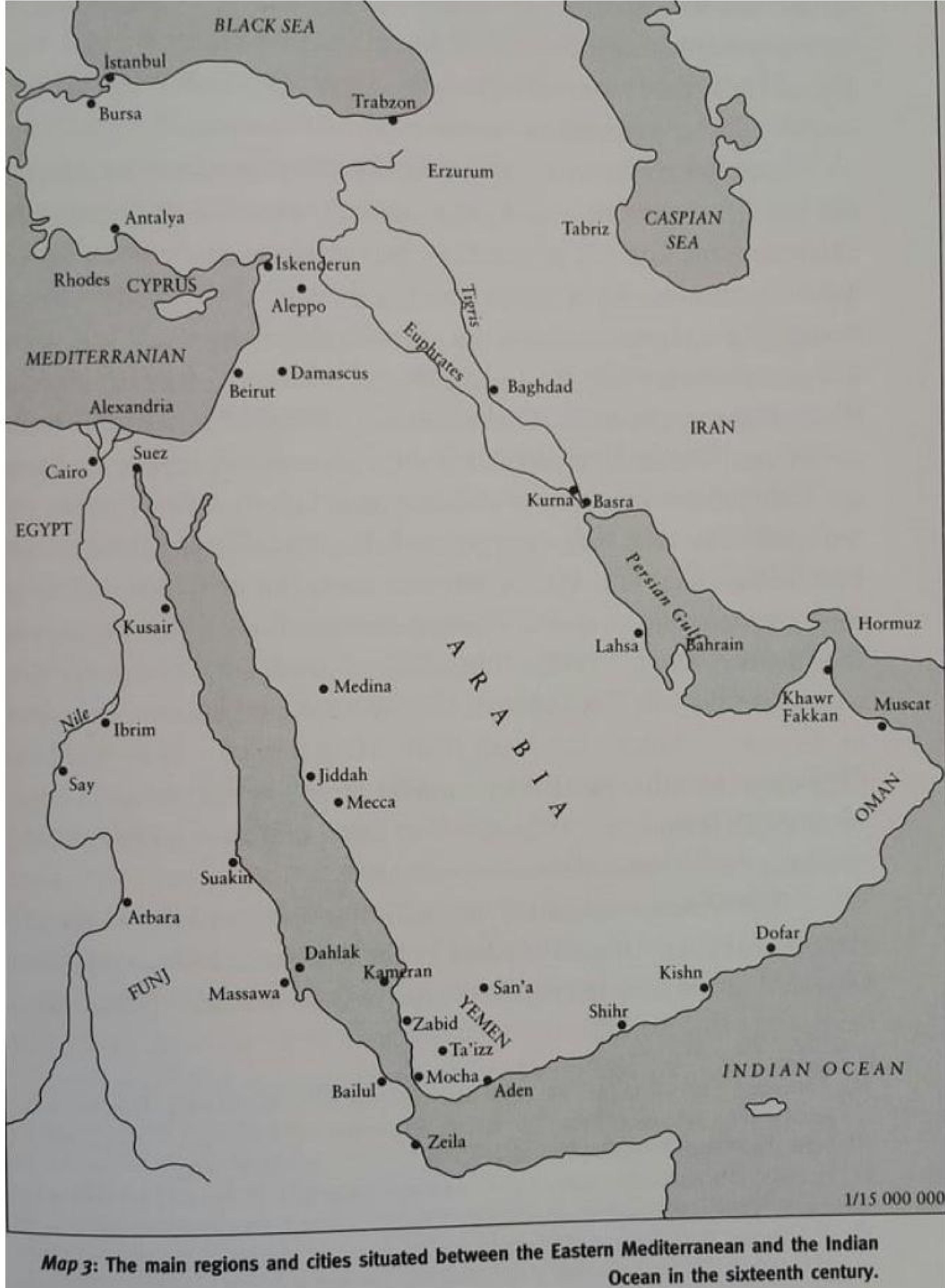
HARİTA-3: XVI. ve XVII. yüzyıllarda Yemen

(Kaynak: Jane Hathaway, *A Tale of Two Factions, Myth, Memory, and Identity in Ottoman Egypt and Yemen,* State University of New York Press, New York, 2003, s. 80.)



ملحق (٧): خارطة توضح المدن والمناطق الهامة الواقعة بين شرق البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندي في القرن السادس عشر.

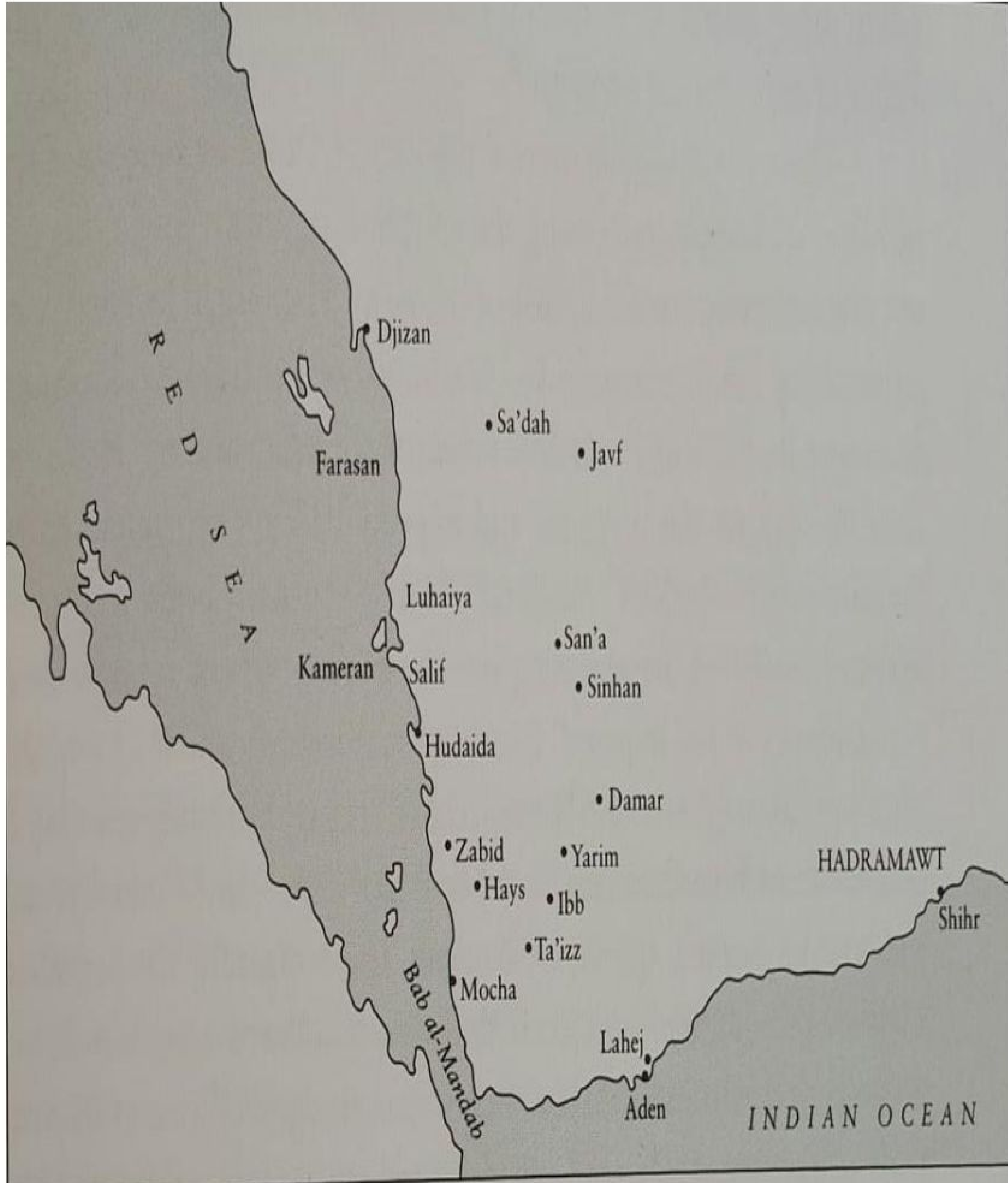
Kaynak: Özbaran, Salih. *Ottoman Expansion Towards The Indian Ocean In The 16th Century,* İstanbul Bilgi Üniversitesi Yayınları, İstanbul, 2009.



Map 3: The main regions and cities situated between the Eastern Mediterranean and the Indian Ocean in the sixteenth century.

ملحق (٨): خارطة توضح التقسيم الاداري العثماني لولاية اليمن في القرن السادس عشر، موضحه أسماء السناجق/الألوية الرئيسة:

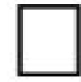
Kaynak: Özbaran, Salih. *Ottoman Expansion Towards The Indian Ocean In The 16th Century,* İstanbul Bilgi Üniversitesi Yayınları, İstanbul, 2009.



Map 4: The Ottoman province (*eyâlet/beylerbeyilik*) of Yemen in the sixteenth century with the main district names.

الفهارس

فهرس الأماكن

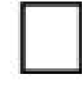


فهرس الأعلام

- ف -

- ق -

- م -



فهرس القبائل والأمم والشعوب